الرد على شبهة إنكار الوحي

أ.د. حكمت بن بشير بن ياسين

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله ومن والاه، أما بعد:

فهذا البحث فيه الرد على ''شبهة إنكار الوحي''، ونفتتح به ضمن سلسة الرد على الشبهات لأهميته وخطورته، وقد بدأت البحث بدراسة تاريخية عن المراحل التي مرت بها هذه الشبهة وبيان نشأتها، ثم قمت بالرد على هذه الشبهة بالأدلة النقلية من التوراة والإنجيل والمزامير والزبور، ثم أردفتها بالأدلة العقلية، ثم ختمتها بشهادات كبار العلماء من الغرب والشرق الذين أكدوا ربانية القرآن الكريم وصدق النبي الحكيم ﷺ.

وفي ختام هذه المقدمة أتقدم بالشكر الجزيل لرعاة الكرسي، المهندس بكر بن محمد بن عوض بن لادن رئيس مجلس إدارة مجموعة ابن لادن السعودية، ولمعالي مدير الجامعة الأستاذ الدكتور أسامة بن صادق طيب.

والله تعالى ولي التوفيق

شبهات إنكار الوحي:

استخدم المحرومون من بركات القرآن الكريم حرب الشبهة المغرضة، واتخذوا من إثارة الشبهات الخطيرة والنعرات المثيرة حول وحي القرآن الكريم طريقة سانحة للتشكيك في ربانيته، وتشويه سيرة نبي الرحمة ﷺ.

ولا يقف خطر هذه الشبهات عند هذا الحدّ فحسب؛ بل إنها تحول دون سبل السلام بين الأمم وأهل الإسلام؛ لأن هذه الافتراءات المتتالية على نبي الإسلام ﷺ وعلى الكتاب المعصوم من رب العالمين تشعل فتيل الفتن وتروج فكرة صراع الحضارات.

والغريب أنَّ هذه الافتراءات الآثمة تناقلها الناس حتى أصبحت تدرس في مقررات دراسية، وهذا شيء مؤسف أن تدرس مثل هذه الافتراءات في مدارس حديثة وجامعات عصرية متقدمة؛ وعلى سبيل المثال فقد قام الدكتور محمد بن عبد القادر برادة بمراجعة حوالي (١٦٨) كتاباً مدرسياً في إسبانيا، فوجدها كلها مليئة بالمغالطات لتشويه سمعة

العرب والمسلمين[1].

وهذه الشبهات الآثمة من أخطر الشبهات؛ لأنها تهدف إلى هدم الإسلام والقرآن الكريم، وهي ليست وليدة اليوم، بل هي إرث تاريخي قديم منذ نزول القرآن الكريم وحتى عصرنا الحاضر يأخذه اللاحق عن السابق، يحدوهم في ذلك الحسدُ والجهلُ على الإسلام والقرآن الكريم الذي به عزة المسلمين وسعادتهم وسيادتهم في الدنيا والآخرة؛ ولهذا عندما أدركوا عظمة هذا القرآن الكريم ورأوا أنه المعجزة الخالدة لهذا الدين أرادوا النيل منه بمثل هذه الإشاعات والشبهات، وحاولوا إلغاء قدسيته وكونه وحياً معصوماً من رب العالمين، وادَّعوا وجود القصور فيه، وأنه غير ملائم لتطور الحياة وطبيعتها في عصر العلم والحضارة، فكذَّبوا النبيَّ الصادق الأمين ﷺ، وزعموا أنه ﷺ ادعَّى زوراً وبهتاناً نزول القرآن الكريم عليه من عند الله وأنه من نظمه وتأليفه، وأنه استعان على ذلك بكتب اليهود والنصارى، ويضيف بعضهم شبهة أخرى وهي أنه ﷺ عايش فحول الشعراء وأتقن فن الشعر ليتمكن من تأليف القرآن! وفي ذلك تزييف لمعالم الحق الواضح.

وليسَ يصحُّ في الأفهام شيءٌ إذا احتاج النهار إلى دليل[2]

لكن هذه الشبهات المختلقة التي لا تثبت أمام الحوار لا تروج إلا في أجواء الفتن والجهل بهذا الدين العظيم وربانية هذا القرآن الكريم، ولهذا كان لا بد من ردود حاسمة على مثل هذه الافتراءات الآثمة على مقام نبي الرحمة ﷺ والقرآن الكريم الذي أُنزل عليه؛ لئلا يلتبس الأمر على من لا يعرف مقام هذا النبي الكريم والقرآن الحكيم حتى لا يختلط الحق عليه بالباطل. ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: ٨].

و يصدق فيهم قول الشاعر:

ما يضير البحر أمسى زاخراً أن رمى فيه غلامٌ بحجر؟![3]

وقد غفلوا أن الله تعالى قد حفظ قرآنه الكريم، وعصم نبيه الحكيم من الكذب والكتمان قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]. ولو أنهم وقفوا من هذا الأمر موقفَ المنصف لرأوا أن تلك الشبه المزعومة أضعف من بيت العنكبوت لو كانوا يعقلون.

---

[1] ينظر: دراسات أسبانية للسيرة النبوية، ص٣٤-٣٥.

[2] البيت للمتنبي كما في شرح ديوانه لعبد الرحمن البرقوقي٢/ ٢١٥.

[3] البيت للأخطل كما في ديوانه ٤٠٧.

وقد هيأ الله تعالى في كل عصر ومصر نخبة من النقاد والعقلاء من المسلمين وغيرهم من كشف عوار هذه المخططات، وهتك أستار المؤامرات، وفنَّد تلك الافتراءات بالحجج والبيّنات، في دراسات متعددة ومناسبات مختلفة.

دراسة تاريخية عن مراحل هذه الشبهة:

وهذه الشبهة مرَّت بمراحل متدرجة وتطورت في الوسائل والآليات، وإن بقي المضمون واحداً على مرِّ العصور، وهذه المراحل يمكن أن نرتبها حسب تسلسلها التاريخي كما يأتي:

المرحلة الأولى: بداية شبهة التكذيب ومعارضة القرآن

لقد تولى كبر هذه الشبهة المشركون في مكة المكرمة، الذين كذبوا رسول الرحمة ﷺ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣]. ثم تلاهم اليهود في المدينة الذين كتموا صفة رسول الحكمة ﷺ، وتبعهم بعض المكذبين في الجزيرة العربية، وقد أظهر الله تعالى دينه، ونصر رسوله نصراً مؤزراً بالحجة والحكمة والقرآن.

ولقد تورط الذين تجرأوا على معارضة القرآن ففلتت من ألسنتهم عبارات تقطر جهلاً وركاكة، حتى صاروا موطن تندر، لكثرة السخرية بهم وبمقالاتهم الواهية، ومنهم مسيلمة الكذاب والأسود العنسي.

ومن مقالات مسيلمة: "الفيل ما الفيل وما أدراك ما الفيل له ذنب وبيل وخرطوم طويل..."[٤].

قال الجاحظ في الحيوان عند القول في الضفدع: ولا أدري ماهيَّج مسيلمة على ذكرها ولِمَ ساء رأيه فيها حتى جعل بزعمه فيها فيما نزل عليه من قرآنه: ياضفدع بنت ضفدعين، نقي ماتنقين، نصفك في الماء ونصفك في الطين، لا الماء تكدرين ولا الشارب تمنعين[٤].

[٤] ينظر: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ١٧٥.

المرحلة الثانية: بداية التأليف في التكذيب ونقض القرآن الكريم

ولما ساد الإسلام وانتشر السلام في جزيرة العرب، وبدأت الدعوة تنتشر في البلاد المجاورة كبلاد الشام والعراق ومصر، وتمَّ التعايش مع غير المسلمين بالعدل وإعطاء الحقوق للجميع أغضب ذلك بعض المحرومين من النصارى مما حدا بهم إلى تقليد العرب المشركين في نشر إشاعة التكذيب، فانتقل الافتراء من الأقاويل إلى الكتب والرسائل، فقام يوحنا الدمشقي المتوفى سنة (١٣٢هـ) بكتابة كتابين أحدهما بعنوان: (محاورة مع مسلم)، والآخر: (إرشاد النصارى في جدل المسلمين)، وزعم بأن الإسلام عبارة عن هرطقة مسيحية[٥]. هكذا ذكر الدكتور قاسم السامرائي نقلاً عن إدوارد سعيد في كتابه (Mohammed and Charlemagne) ثم قال: ''وقد كان يوحنا الدمشقي وعبد المسيح بن إسحاق الكندي المجهول النسبة من أهم الذين ساعدوا على ترسيخ مفاهيم الغرب عن الإسلام، فقد كتب يوحنا الدمشقي كتابه (Dialexis) وأراد به أن يكون نوعاً من وسائل الجدال بين النصارى والمسلمين، وقد توقع أن يردَّ عليه المسلمون فينفتح بذلك مجال الصراع ولا نعرف إن كان تطوع أحد إذ ذاك بالرد عليه، ولعله كان أول من استخدم علم الكلام في أجوبته عن الأسئلة التي أثارها، فأحدث ما يسمى عند المنصّرين بالمحاورة (Dialogue)، وقد صبَّ هجوماً عنيفاً على الرسول الكريم ﷺ، واتهمه باختلاق الوحي لإشباع رغباته الدنيوية، فأصبح هذا الاهتمام المحور التقليدي لجميع كتابات القرون الوسطى ومن هذا القديس جاءت فكرة الغرب عن الإسلام من أنه تلفيق وتزوير للتوراة والإنجيل، وذلك بمساعدة راهب آريوسي كان يعلم محمداً ﷺ سراً[٦].

وفي القرن الثالث ظهرت رسالة عبد المسيح بن إسحاق الكندي التي كتبها سنة ٢١٥هـ وفيها تكذيب للنبي ﷺ وأن الإسلام ليس ديناً إلهياً... وقد ترجمها مارك الطليطلي إلى اللاتينية بأمر من بطرس المحترم، وتتضمن هذه رسالة الهاشمي إلى عبد المسيح بن إسحاق الكندي التي يدعوه فيها إلى الإسلام، ورسالة عبد المسيح إلى الهاشمي التي يردُّ بها عليه ويدعوه فيها إلى النصرانية، وقد نشرت هذه الرسالة مرتين في لندن ما بين سنة (١٨٨٠م- و١٨٨٥م) لاستعمال المنصّرين، ونشر المستشرق الإنجليزي وليم ميور تلخيصاً للرسالة بالإنجليزية، وطبع مرتين أيضاً في لندن (١٨٨١م- و١٨٨٧م)[٧].

---

[٥] الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية ٣٨ – ٣٩.

[٦] الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية ص٣٨-٣٩.

[٧] المصدر السابق ص٥٧-٥٨.

ومن الذين حاولوا إيجاد التناقض في آيات القرآن الكريم ابن النغريلة اليهودي[٨] الذي صنف كتاباً يدعي فيه وجود التناقض في آيات القرآن الكريم، وقد انبرى له الإمام ابن حزم الأندلسي في رسالته القيمة: ''الرد على ابن النغريلة''، وقد نشرت ضمن رسائل ابن حزم في الجزء الثالث بتحقيق الدكتور إحسان عباس.

المرحلة الثالثة: معارضة الزنادقة للقرآن الكريم

ظهرت فرقة من الزنادقة في القرن الثاني الهجري وادَّعت وجود التعارض بين آيات القرآن الكريم، وفي ذلك تشككيك في ربانية القرآن الكريم، وقد قيَّض الله الإمام أحمد بن حنبل، فقام بالرد عليهم في رسالته القيمة: ''الرد على الزنادقة والجهمية''.

ومن الذين تجرأوا على الطعن في القرآن الكريم ابن الراوندي[٩] الذي ألف كتابه: ''الدامغ للقرآن''، وقد حاول في هذا الكتاب الطعن في نظم القرآن وما يحتويه من المعاني، وقال: إن فيه سفهاً وكذباً[١٠]، وقد ألف بعض العبارات السخيفة وادّعى أنه بذلك استطاع أن يأتي بمثل آيات القرآن الكريم، ولا شك أن هذا تحد لله سبحانه وتعالى في قوله تعالى: ﴿قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ [الإسراء: ٨٨].

ومن الجدير بالذكر أن كتابه: ''الدامغ للقرآن الكريم'' صنفه في مدة إقامته في بيت ابن لاوي اليهودي الذي آواه حين طلبه السلطان فهرب إلى بيت هذا اليهودي[١١].

المرحلة الرابعة: الشبهات في ترجمة القرآن الكريم

وفي هذه المرحلة تطور أمر الافتراء على نبي الرحمة ﷺ وإنكار الوحي بأن القرآن الكريم من صنعه وليس من عند الله تعالى، وذلك في القرن السادس الهجري عن طريق أول ترجمة لمعاني القرآن الكريم. قال الدكتور محمد صالح البنداق: أول ترجمة للقرآن الكريم باللغات الأوروبية كانت باللاتينية، وقد تمت بإيعاز وإشراف رئيس دير كلوني Clugny

[٨] إسماعيل اليهودي استوزره باديس بن حيوس ملك غرناطة بعد أن كان كاتباً له. ينظر سير أعلام النبلاء ١٨ / ١٩٦.

[٩] أحمد بن يحيى بن إسحاق ابن الراوندي أبو الحسين من أهل مرو الرّوذ. سكن بغداد وكان من متكلمي المعتزلة ثم فارقهم وصار ملحداً زنديقا وقد حكي عن جماعة أنّه تاب عند موته مما كان منه وأظهر الندم واعترف بأنه إنما صار إليه حميّة وأنفة من جفاء أصحابه وتنحيتهم إيّاه من مجالسهم ينظر الوافي بالوفيات ٣/ ١٠٠.

[١٠] إعجاز القرآن للباقلاني، وينظر الانتصار للقرآن ص٦٢٨.

[١١] ينظر الوافي بالوفيات ٣/١٠٠.

بجنوب فرنسا الراهب (بطرس المحترم Pierre le vénérble)، وكان ذلك سنة ١١٤٣م وعلى يد راهب إنجليزي يدعى: (روبرت الرتيني Robert de Retina) وراهب ألماني يدعى: (هرمان Hermann)[١٢].

وكذلك طلب (بطرس المحترم) من (روبرت أوف ريتنس) الإنجليزي الأصل أن يترك دراسة علم الهندسة والفلك ويتحول إلى ترجمة القرآن، حتى يستطيع أن يدحض أغاليط الإسلام –كما يزعم– لأن بطرس المحترم – كما يقول إديسون المبشر– سافر إلى إسبانيا لزيارة بعض فروع دير كلوني سنة ١١٤١م، فاكتشف وجود حاجة مُلِحَّة للكتابات الجدلية[١٣].

ومن الذين انبروا لترجمة القرآن الكريم جورج سيل سنة ١١٤٩هـ/١٧٣٤م، الذي أثنى على القرآن الكريم، وترجم معانيه إلى اللغة الإنجليزية، لكنه نفى أن يكون وحيًا من عند الله؛ بل أكَّد أنه من صنع محمَّد بن عبد الله ﷺ، إذ يقول: (أمَا إن محمَّدًا كان في الحقيقة مؤلِّف القرآن والمخترع الرئيسي له، فأمرٌ لا يقبل الجدل...''، وهذه فرية استشراقية قديمة في إطلاقها، ولكنها أثَّرت كثيرًا دون شكٍّ في قرَّاء ترجمة المعاني باللغة الإنجليزية، بل إن التأثير قد امتدَّ إلى قرَّاء ترجمة المعاني باللغة الفرنسية، عندما تبنَّى المستشرق البولوني (ألبر كازميرسكي) نقل ترجمة المعاني من اللغة الإنجليزية إلى اللغة الفرنسية (سنة ١٢٥٦هـ/١٨٤٠ –١٨٤١م)، بالأسلوب الذي ترجمها فيه (جورج سيل)[١٤].

قال الدكتور محمد صالح البُنداق عن ترجمة الأجانب للقرآن: انطلقوا في ترجماتهم استناداً من مبدأ يظهر القرآن الكريم للعالم – من خلال الترجمات – أنه من وَضْع محمد ﷺ، وأنه كتاب متناقض، وليس بكتاب موحى به من الله تعالى إلى النبي ﷺ، وزادوا على فكرة عدم كون القرآن من عند الله فقالوا إنه مأخوذ باللفظ أو بالمعنى من كتب اليهود، كما فعل المستشرق اليهودي (أبراهام جيجر Abraham Geager) محاولة منه في إثبات نظريته الشريرة بأن النبي ﷺ اطلع على كتب اليهود بلغاتها المختلفة: العبرية والآرامية، وبأنواعها المختلفة: التوراة والمكتوبات والأنبياء والمشنا والجمارا (التلمود) والمدراش والترجوم وغير ذلك... [١٥].

---

[١٢] المستشرقون وترجمة القرآن ص٩٥.

[١٣] الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية ص٧٨.

[١٤] جهود علماء المسلمين في دراسة الكتابات الاستشراقية حول القرآن الكريم ص٦–٧.

[١٥] المستشرقون وترجمة القرآن الكريم، ص١٠٧–١٠٨.

المرحلة الخامسة: التأليف باسم مسلم قد تنصر –كما يزعمون– للطعن في القرآن الكريم والنبي الحكيم ﷺ:

ومن الكتب التي ظهرت في القرن العاشر الهجري والتي تناولت هذه الإشاعة الخطيرة كتاب (Contrarieties Elfolica) ومعناه: نقض الفقهاء، لمصنف قال عن نفسه إنه كان مسلماً فتنصر، كتبه باللغة العربية، وترجمه (مارك الطليطلي) إلى اللاتينية إلا أن نصه العربي لم يصل إلينا بعد، وقد فنّد المؤرخ نورمان دانيال ادعاء مؤلفه، وأثبت أن الدلائل تظهر بلا شك أن كاتبه كان من المضربين (النصارى الأسبان) وأنه أراد أن يضفي على كتابه أهمية بالغة بادعائه، وأهمية هذا الكتاب تكمن في تأثيره البالغ في (ريكولدو دي مونت كروس) الذي كان يمقت الإسلام بضراوة وشدة، وكان لكتاباته تأثير بالغ العمق في كُتّاب القرون الوسطى حتى إن لوثر شعر بالغبطة الدافقة حين وقع كتابه (Confutation Alcorani) بيده في سنة ١٥٣٠م، وسارع إلى ترجمته إلى اللغة الألمانية، في سنة ١٥٤٢م وذلك لإعجابه به، والغرض من الكتاب تفنيد القرآن الكريم والطعن فيه.

ومن أقوال (ريكولدو دي مونت كروس) مخاطباً الرسول الكريم ﷺ: (يا محمد أنا لا أصدق أنك قد تسلمت هذه الآراء؛ من الله لأنك عجيب غريب في رسالتك، لأنك لا تتفق مع أي كتاب مقدس آخر.. يجب أن ننبذ ما ادّعى محمد أنه تسلمه من الله، لأنه مناقض تماماً للأحكام التي كتبها موسى والأنبياء والرسل بعده، بوحي وأمر من الله)[١٦]!. هكذا بلغت الجرأة !

ثم قاموا بإعادة نشر ترجمات كما فعل (ماراكسي marracci) الذي جمع ترجمات من هذا النوع أصدرها أشخاص لا يفقهون العربية بالتعاون مع من لا يعرف اللاتينية، ونشرها عام ١٦٩٨م، وكان لها ردود فعل إيجابية فقد وجدت محبذين كُثُراً.

ولقد تصدى لهذه الطبعة النبيل الفرنسي المؤرخ والفيلسوف (الكونت هنري دو بولنفيأتيه Le Comte Henri de Boulainvilliers)، وكان يتزعم حركة شريفة موالية للنبي الكريم في باريس فلقي معارضة قوية، وفي أيامنا هذه هاجمه (ريجس بلاشير Régis Blachère) واتهمه بأنه (نصّب نفسه مدافعاً عن الإسلام من أجل تحطيم خير الكاثوليكية)، وبعد ذلك أخذت الترجمات تتوالى بالعديد من اللغات، ومنها العبرية التي وضعها حاخام جزيرة (زانتي Zante يعقوب بن إسرائيل) عام ١٦٣٤م نقلاً عن الترجمة اللاتينية[١٧].

---

[١٦] ينظر: الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية ص٦١-٦٢.

[١٧] المستشرقون وترجمة القرآن الكريم، ص٩٥و٩٦و١٠٦.

المرحلة السادسة: كثرة التأليف في السيرة النبوية التي تتضمن إنكار الوحي

ولم يقف الأمر عند هذا الحدّ من هذه الشبهة؛ بل انتشرت في المعاجم والموسوعات ودوائر المعارف، وفي مؤلفات مفردة عن سيرة نبي الرحمة ﷺ، فقد زخرت المكتبات بالمؤلفات الغربية الكثيرة عن النبي ﷺ وسيرته بمختلف اللغات الأوروبية منذ أربعة قرون إلى زماننا هذا، وقد بلغ عددها إلى سنة١٣٠٤هـ (١٣٠٠) كتاباً حسب إحصاء مجلة المقتبس الدمشقية[١٨]. ويتبين من هذه الكثرة الواضحة الاهتمام الكبير عند العلماء الغربيين بهذا الموضوع العظيم، ولا شك أن له دوافع مريبة، ومآرب بعيدة.

ويقدر الدكتور إدوارد سعيد حجم التراث الذي أفرزته الحركة الاستشراقية ما بين عامي ١٨٠٠م و١٩٥٠م بستين ألف كتاب، أي ما يعادل مكتبة كاملة[١٩].

ولو أضفنا الإنتاج الجديد الذي استغرق أكثر من نصف قرن لزاد العدد بل تضاعف.

وقد شغلت سيرة الرسول الكريم ﷺ حيزاً هائلاً من كتاباتهم، فلم يتركوا صغيرة ولم يغادروا كبيرة إلا وأوجدت لهم ميولهم المقصودة تفسيراً وتعليلاً يحطُّ من نبي الرحمة ﷺ، وكم بذلوا من جهود كبيرة لإقناع قرائهم من النصارى – بالطبع – بأن أيَّ رجل يتصف بمثل هذه الصفات والادعاءات لا يمكن أن يكون نبياً مرسلاً، ومرادهم أن الإسلام ليس ديناً إلهياً، وأن القرآن من صنع محمد لَفَّقَه وزَوَّره، حتى يسوغ أعماله الدنيوية أمام العرب الأجلاف الجهّال، أما نحن – أصحاب الدين الصحيح – فلا ينطلي علينا دجل هذا الدجَّال!

وقد ذهب بهم الخيال المشوب بالكذب حتى إنهم قالوا: إن محمداً كان كاردينالاً كاثوليكياً، وكان يطمح أن يفوز بمقعد البابا فلما لم ينتخبه الكرادلة لكرسي البابا غضب وذهب إلى مكة، وأعلن ديناً جديداً مضاداً لروما، ولما كان العرب كلُّهم نصارى فلذلك نجح في إغوائهم!

غير أن اليهودي المتنصر (بيدور أو بطرس الفونسي) زودهم برأي آخر فقال: ''إن معلم محمد كان يهودياً مرتداً''.

وهذان الرأيان هما أساس الاستشراق اليوم وأساس التبشير، والسبب أن كثيراً من

---

[١٨] نقلاً عن الرسالة المحمدية للسيد سليمان الندوي ص ٦٥-٦٦.

[١٩] ينظر: Edward said, Islam, Orientalism and the west: P. 54. نقلاً عن: الإسلام في المناهج الغربية المعاصرة ص٤٣.

المستشرقين اليوم ما يزالون يردِّدون أن الإسلام بقرآنه وحديثه بل وبحضارته مستمد من اليهودية والنصرانية، فإن اختلفوا في كليات هذا الدين وأصوله ومصادره فإنهم لا يختلفون في أن القرآن من صنع محمد ﷺ، فكانت النتيجة التي خرجوا بها: أن الإسلام ليس ديناً إلهياً.

ولما أيقنوا أنه ليس ديناً إلهياً فإنهم قد اتفقوا مع المبشرين سراً وعلانية – عدا نفر يسير منهم – وأمدُّوهم بمعارفهم وخبراتهم الطويلة، وهذا أمر لا يُستغرب منهم ولاسيما إذا علمنا أن الكثرة الغالبة من المستشرقين هم من رجال الكنيسة والتنصير معاً، أو من اليهود الذين اتفقت غاياتهم وغايات المنصّرين واختلفت أهدافهم والأمر لا يُستغرب من معدنه[٢٠]. ومن المستشرقين الذين نشروا هذه الشبهة:

١. المستشرق البريطاني (ميوير)[٢١] في كتابه (حياة محمد ﷺ) قال عن الوحي: "إنه من نتائج تأمل محمد وتدبره في غار حراء، فقد تبادر إلى ذهنه في خلوات تأمله بعض التصورات عن الله وعن البعث بعد الموت، فأشاعها في قطع صغيرة من الشعر". وقد كرر (ميوير) ما قاله (مارتن لوثر) و(بريدو) من أن النبي ﷺ كان مُدَّعياً وتابعاً للشيطان[٢٢]!

٢. المستشرق الإنجليزي (مرجليوث) في كتابه: (محمد وطلوع الإسلام) سنة ١٩٠٥م/١٣٢٣هـ يقول: إن محمداً كان يزور سوق عكاظ للتعرف على فن الشعر من الشعراء المنافسين هناك، فاستخدم هذه الخبرة فيما بعد لإملاء القرآن[٢٣].

٣. المستشرق الإنجليزي (ريتشارد بِل)، زعم أن القرآن من تأليف محمد ﷺ، في كتابه: (مقدمة القرآن الكريم).

٤. المستشرق الفرنسي (ريجس بلاشير): زعم ذلك كسابقه في كتابه: "القرآن ".

٥. المستشرق الألماني (كلير تسدال) زعم ذلك كسابقه في كتابه: (مصادر الإسلام).

---

[٢٠] الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية ص٥٥-٥٦.

[٢١] أحد كبار موظفي الحكومة البريطانية في الهند وكانت له صلة وطيدة مع الجمعيات الإرسالية العاملة في الهند، وقد كان حكماً في بعض المناظرات في أكرا بالهند سنة ١٨٥٣م/١٢٦٩هـ. ينظر الاهتمام بالسيرة النبوية باللغة الإنجليزية ص٢٤-.

[٢٢] ينظر: المصدر السابق ص٢٨.

[٢٣] ينظر: الاهتمام بالسيرة النبوية باللغة الإنجليزية ص٣٤.

٦. المستشرق الفرنسي (جوستاف لوبون) زعم أن محمداً ﷺ أخذ القرآن من الأديان الأخرى[٢٤].

٧. المستشرق الإسباني (فرينت Vernet) زعم أن محمداً ﷺ مؤلف القرآن الكريم، وذلك في كتابه: (مقدمة ترجمة القرآن)[٢٥].

المرحلة السابعة: التكذيب في الموسوعات ودوائر المعارف والمعاجم

وقد صنف المستشرقون حول القرآن الكريم مصنفات غزيرة بشتى اللغات المنتشرة، وهذا الإنتاج الاستشراقي الضخم قد انبرى له كثير من المسلمين المختصين في مختلف التخصصات، فغربلوا ذلك الإنتاج ونقدوه ودرسوه، وفصَّلوا في بيان الاعتداء من الاعتدال، وقد وضع معالي الأستاذ الدكتور علي بن إبراهيم النملة قائمة تحتوي على عناوين (٥٤٨) بحثاً، وذلك ضمن بحثه القيم بعنوان: "جهود علماء المسلمين في دراسة الكتابات الاستشراقية حول القرآن الكريم"[٢٦].

وسأكتفي بذكر بعض الجهود من هذه الدراسات القيمة، فقد ذكروا لنا دوائر المعارف الإنجليزية التي نشرت هذه الشبهة ومنها:

١. دائرة المعارف الدولية: Encyclopedia International ظهرت الطبعة الأولى لهذه الموسوعة عام ١٩٦٨م في كندا، وفيها ما كتبه المستشرق الأمريكي: (مارشال هدجسون) من جامعة شيكاغو بأن القرآن من كلام محمد ﷺ وليس وحياً من الله تعالى.

٢. دائرة معارف هارفر العالمية: Encyclopedia Harver World انتشرت في الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا عام ١٩٧٣م في نيويورك ولندن وفيها ما يأتي نصه: «القرآن هو الكتاب المقدس في دين الإسلام، وهو بالنسبة للمسلمين ليس كتاب وحي مقدساً فحسب؛ بل إنه كلام الله الحقيقي، ولم ينكروا ذلك».

٣. دائرة المعارف البريطانية لليافعين (للبنين والبنات): Britannica Juniour Encyclopedia ظهرت أول طبعة لها عام ١٩٣٤م عن هيئة الموسوعة البريطانية

[٢٤] ينظر: آراء المستشرقين حول القرآن والتفسير ١/٦٤، ٧٣، ٨٢، ١٥٤.

[٢٥] ينظر: دراسات إسبانية للسيرة النبوية ص٤٦.

[٢٦] طبع ضمن ندوة القرآن الكريم في الدراسات الاستشراقية في مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.

وقام بنشرها وليم بنتون في كل من لندن وشيكاغو وتورنتو وجنيف وسيدني وطوكيو ومانيلا وجوهانسبيرج، وفيها تشكيك بأن محمداً ﷺ هو الذي يقول إن جبريل عليه السلام أوحي إليه بكلام الله.

٤. دائرة المعارف البريطانية: Britannia Encyclopedia في المجلد (١٤) ص(٣٤٢) ما يأتي نصه: القول بإعجاز لغة القرآن جمالاً وصفاءً مما يعجز عن محاكاته الإنس والجن حتى فصحاء العرب وبلغاؤهم أمر غير مقبول[٢٧].

كما ذكروا بعض المعاجم والموسوعات الفرنسية ومنها:

١. المكتبة الشرقية: Bibliotheque Orientale وهي دائرة معارف في بضعة مجلدات تبحث في علوم وثقافات الشرقيين وأديانهم وعاداتهم مرتبة على حروف المعجم من تأليف (بارتلمي ديربيلو Bartelemy d'Herbelot) مستشرق فرنسي عاش في القرن السابع عشر). جاءت صورة النبي ﷺ في هذا المعجم مشوهة إلى أقصى درجة، ففي الباب الذي تحدث فيه عن (محمد) نجد ما يبعث على الأسى، مثل قوله: هذا هو المنتحل المشهور (ماهومت Mahomet) المؤلف والمؤسس لهرطقة اتخذت لها اسم الدين!

٢. معجم الأديان Dictionnaire des religions ويقع في مجلد واحد متوسط الحجم، تضمن استعراض مادة (محمد) في عمودين فقط، وهو استعراض خاطف لمعطيات السيرة النبوية مع بث بعض الشكوك والطعون (مثل دعوى تلقيه ﷺ الثقافة الدينية عن بَحيرى أثناء سفره إلى الشام)[٢٨].

المرحلة الثامنة: الترجمة بالحذف والتصرف المخل

ثم دخلت الترجمة طوراً آخر في حذف ثلث القرآن الكريم والتصرف في ترتيبه الحكيم، وقد قام بهذه الترجمة إلى اللغة الإنجليزية المستشرق الدكتور كينيث كريج، أستاذ الدراسات الدينية بجامعة لندن في كتابه (قراءات في القرآن) نشر عام ١٩٩٣م، ولم يكتف بالحذف وإنما قام بتغيير شكل القرآن الكريم، وقد قام الكاتب بإعادة ترجمة أجزاء واسعة من القرآن إلى اللغة الإنجليزية بعد أن اختصر القرآن – كما قال – إلى الثلثين؛ لأن الثلث الأخير عبارة عن تكرار يمكن تجاوزه كما زعم، ثم قسمه إلى خمسة موضوعات.

[٢٧] ينظر: موقف المستشرقين من القرآن الكريم ص١٥– ٢٣.

[٢٨] ينظر: الاهتمام بالسيرة النبوية باللغة الفرنسية ص٤١.

لقد توخى المؤلف تحقيق عدة أهداف بكتابه هذا، منها تغيير شكل القرآن الكريم، وهذا هدف قديم للمستشرقين، حاولوا إنجازه عبر سنين طويلة، وكادوا يفرغون من إنجاز مصحف جديد صاغوه من مخطوطات قديمة حصلوا عليها – على حد زعمهم –، ولكن اندثر ذلك المشروع خلال الحرب العالمية الثانية، عندما سقطت قنبلة على المعهد الذي تولى ذلك المشروع فدمرته.

وقد قسم المؤلف القرآن إلى عدة أقسام أساسية حسب موضوعاته الكبرى كما قال؛ فقد ادَّعى هذا الكاتب أن موضوعات القرآن غير منظمة، وأنها تتناثر على نسق غير واضح، فلا هي تأتي على شكل قصص مكتمل، ولا على شكل ترتيب تاريخي متصل، ولا على شكل بابين كبيرين على أساس فترتي القرآن المكي والمدني، ولذلك ينصح الكاتب قُرَّاءه أن يبدأوا قراءة القرآن من النهاية إلى البداية، أي من السورة رقم ١١٤– سورة الناس– إلى السورة رقم ٢– سورة البقرة–، أما السورة الأولى (سورة الفاتحة) فهي لا تصلح في نظر الكاتب فاتحة لقراءة القرآن... ويرى أن القرآن وصل إلى المسلمين عن طريق بشري وهو الرسول، هذا هو المؤكد أما وصوله إلى الرسول فقد جاء عن طريق غامض Mysterious ولا أحد يجزم بصحته غير المسلمين، وهو جزم لا يقوم على أساس مقنع[٢٩].

المرحلة التاسعة: تدريس هذه الشبهة في أوروبا وأمريكا

والمصيبة العظيمة أن هذا الهراء والافتراء يُدرّس في أرقى الجامعات الأوروبية ألا وهي جامعة لندن، ونرى جامعة برنستون التي نشأت في عام ١٧٤٦م بمدينة أليزابيث بنيوجرسي تسند تدريس القرآن الكريم لمستشرق من أشد المستشرقين عداءً للإسلام وهو (الدكتور مايكل كوك) الذي تهجم على القرآن وسعى سعياً حثيثاً لإثبات بشريته[٣٠]. ويدرس أيضاً مثل هذا الافتراء في مدارس إيطاليا وإسبانيا إذ تزعم تلك المقررات أن القرآن الكريم كتبه محمد ﷺ[٣١].

وهنا نقف على مرحلة جديدة من مراحل بث هذه الشبهة، فإن ما سبق ذكره في القرون السابقة من النشاط الاستشراقي وما سبقه من أعمال في مجال الدراسات المتعلقة

---

[٢٩] ينظر: الإسلام في المناهج الغربية المعاصرة ص٣١٤–٣١٩.

[٣٠] ينظر: المصدر السابق ص٢٢٣ و٢٢٧.

[٣١] ينظر: دراسات إسبانية للسيرة النبوية ص٣٤–٣٥، وبحث تجدد الإساءات المسيحية وتصريحات البابا.. أهدافها وآثارها، بقلم الأستاذ الدكتور جعفر عبد السلام ص٥، بحث مقدم لمؤتمر مكة المكرمة السابع نصرة نبي الأُمَّة i– والذي أقامته رابطة العالم الإسلامي في المدة ٥–١٢/٧/ ١٤٢٧هـ.

بتشويه الإسلام والتطاول على القرآن الكريم وعلى نبيه العظيم كل ذلك دخل في نطاق المقررات الدراسية في أوروبا وأمريكا، فأثَّر تأثيراً بالغاً في الفكر الغربي المعاصر، إذ أفرزت هذه المقررات جيلاً مظلوماً تشبع بهذه الأفكار الظالمة، التي شوهت سمعة دين الإسلام وأهله، وبسبب ذلك خرجت من هذا الجيل فئة تستنكر تدريس القرآن الكريم بتاتاً – مع أن التدريس فيه ما فيه كما تقدم – ولكن هؤلاء الحاقدين تراكمت عندهم ردة فعل تلك الافتراءات المتقدمة المذكورة في المقررات الدراسية في المراحل الابتدائية والمتوسطة والثانوية والجامعية وحتى الدراسات العليا.

يقول أحدهم وهو (سام إيأتيز) عضو مجلس النواب عن دائرة كارولينا الشمالية قائلاً: إن مواطني الولاية لا يريدون لأبنائهم الطلاب الجامعيين أن يقرأوا هذا الشر الذي قررته عليهم الجامعة كمادة إجبارية، وتحدث عضو مجلس النواب (وين سيسكتون) قائلاً: لننظر كم كلفنا الحادي عشر من سبتمبر، وكم يكلفنا العمل لحماية بلادنا من التعرض لهذا الخطر مرة أخرى، ولننظر كيف تعمل جامعة كارولينا الشمالية لتشجيع الإرهاب بنشرها لهذا الكتاب؟.

ويقول (بيل أوريأتي): إن القرآن كتاب أعدائنا الدينيين، وهو شبيه بكتاب (كفاحي) لـ(أدولف هتلر) فكيف نسمح بتدريسه لطلابنا الجامعيين؟.

ويقول صاحب كتاب (تاريخ العالم: الارتباط بالحاضر) وفي فصل (نهضة الإسلام) قال الناقد: إن الكتاب أخذ ينحو منحىً تبشيرياً غير مناسب؛ لأنه ذكر أن أسطورة المسلمين عن تلقّي محمد للوحي كانت حقيقة فعلية، فقال: إن محمداً تلقى نداءً ليكون رسولاً لله، وإن جبريل قال له: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]. وهذا خطأ كبير، فإن تقرير المسائل التاريخية على هذا النمط لا يختلف عن تبشير المسلمين بدينهم ومحاولاتهم الدائبة لنشره في الآفاق، ولا يجوز لكاتب أكاديمي أن يذكر ما ذكره هذا الكتاب عن تلقي محمد لوحي سماوي، أو أن يقول: إن رمضان شهر مقدس لدى المسلمين؛ لأن جبريل جاء فيه بالوحي، أو ما أشبه ذلك من أقوال التبشير الصريح بالدين.

ويذكر البروفيسور (جون وانسبورا) أحد أساتذة جامعة لندن في كتابه (دراسات قرآنية): أن القرآن إما مقتبس من الكتب اليهودية والنصرانية، أو من وحي الجدل مع يهود، أو من تأليف محمد وصحابته والتابعين وتابعيهم على امتداد قرنين من تاريخ الإسلام.

وقد أعرض أكثر علماء الدراسات الإسلامية في الغرب عن أطروحة (وانسبورا) ووصفوها بالراديكالية والتطرف، ولكن مجموعة من تلاميذ المؤلف ببعض الجامعات

الغربية الكبرى كـ(هارفارد) و(برينستون) و(لندن) ما زالوا يفرضون دراسة هذا الكتاب على طلاب الدراسات الإسلامية؛ لأجل تشكيكهم منذ البدء في أصالة المصادر الإسلامية وعلى رأسها القرآن الكريم[٣٢].

وهذه المرحلة تأثرت بالمرحلة السابقة، فإن المراجع التي يستند إليها مؤلفو الكتب الدراسية متأثرة بأقلام المستشرقين وترجماتهم المشوهة للقرآن الكريم[٣٣].

المرحلة العاشرة: نشر الإشاعات والشبهات في كتب باللغة العربية وتوزيعها من خلال المنظمات التنصيرية

ومن هذه الكتب الخطيرة كتاب (الباكورة الشهية في الروايات الدينية) نشرته منظمة مركز الشبيبة، وهي منظمة سرية نصرانية برئاسة المستشرق (فالترفا سرمان) الألماني ومركزها في مدينة شوون ولها فرع في مدينة بازل بسويسرا[٣٤]، وقد ورد في هذا الكتاب ما يأتي: أن محمداً ﷺ ليس رسولاً وإنما هو مدعي رسالة، وساعده على هذا ذكاؤه!!! وأن القرآن ليس وحياً من عند الله، بل هو من تأليف محمد ﷺ !! وأن محمداً قد اقتبس القرآن من التوراة والأناجيل وأخبار الماضين (أساطير الأولين)!! وأن القرآن ليس معجزاً، ويمكن أن يحاكى، ويؤتى بمثله؛ لأنه كلام بشر صيغ في أرفع الأساليب العربية بلاغة وفصاحة[٣٥]!!.

المرحلة الحادية عشرة: تأليف كتاب (الفرقان الحق)[٣٦] من افتراء القس د.أنيس شورُّوش

وقد أنكر نزول القرآن على نبي الرحمة ﷺ، وادعى أنه كذب، وأنه هو الذي نزل عليه هذا الفرقان، وقد جعله في سبعين سورة، وفيه اقتباسات كثيرة من القرآن الكريم، فهو ينكره

---

[٣٢] انظر: المصدر قبل السابق ص٣٢٠-٣٢٦.

[٣٣] ينظر: تدريس العلوم الإسلامية بالجامعات الأمريكية، ص٢٦، نقلاً عن الإسلام في المناهج الغربية المعاصرة ص٢٥٨.

[٣٤] أفاد هذه المعلومات معالي الشيخ محمد علي الحركان -رحمه الله- أمين عام رابطة العالم الإسلامي سابقاً، وذلك في عام ١٤٠٠هـ في خطابه الذي ذكره الأستاذ الدكتور عبد العظيم المطعني الذي انبرى للرد على ذلك الكتاب الخطير في كتابه القيم الإسلام في مواجهة الاستشراق العالمي ص١٢-.

[٣٥] ينظر: المصدر السابق ص١٠.

[٣٦] طبع ثلاث طبعات، وصدر في ولاية تكساس باللغة العربية والإنجليزية. ينظر الانتصار للقرآن ص١٠، للدكتور صلاح الخالدي-.

ويسرق منه في آن واحد! وهذه أخطر مرحلة وأسوأ جريمة أثيمة.

هذه إحدى عشرة مرحلة توضح جذور الافتراء والتكرار، وتقليد المفترين للمشركين في العصر الجاهلي، وتبين تطور الافتراء.

الرد على الافتراءات

أولاً: صفة رسول الله في الكتب المقدسة

لقد تبوأ الرسول ﷺ عند الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم مكانة مرموقة، إذ ثبتت البشارة بمبعثه في الإنجيل والتوراة وصحة رسالته وبيان صفته، وهو ما جاء به عيسى وموسى عليهما الصلاة والسلام بالتصريح بحقيقة رسالة نبي الرحمة ﷺ، وذلك من خلال بشارتهم في كتبهم السماوية، فقد عقد البخاري باباً بعنوان: خاتم النبوة، ثم ساق حديثاً عن السائب بن يزيد رضي الله عنه أنه رأى خاتم النبوة بين كتفيه[٣٧].

قال الحافظ ابن حجر: قوله: (باب خاتم النبوة) أي صفته، ''وهو الذي كان بين كتفي النبي ﷺ، وكان من علاماته التي كان أهل الكتاب يعرفونه بها"[٣٨]. من أين هذه المعرفة لأهل الكتاب؟ إنها من كتبهم السماوية التي بشرت بهذه البشارة، وهي كما يأتي:

صفة رسول الله ﷺ في الإنجيل: نقل المؤرخ ابن هشام عن ابن إسحاق بشرى عيسى الحواري برسول الله ﷺ فقال: وقد كان فيما بلغني عما كان وضع عيسى بن مريم فيما جاءه من الله في الإنجيل لأهل الإنجيل من صفة رسول الله ﷺ، مما أثبت يُوحَنَّا الحواري لهم، حين نسخ لهم الإنجيل عن عهد عيسى بن مريم عليه السلام في رسول الله ﷺ إليهم أنه قال: ''فلو قد جاء المُنحمنَّا هذا الذي يرسله الله إليكم من عند الربِّ، وروح القدس، هذا الذي من عند الرب خرج، فهو شهيد عليَّ وأنتم أيضاً؛ لأنكم قديماً كنتم معي في هذا، قلت لكم: لكي لا تشكوا''.

والمنحمنا (بالسريانية) محمد، وهو بالرومية: البرقليطس ﷺ[٣٩]، وهو كما قال؛ إذ يؤيد ذلك ما ورد في إنجيل يوحنا الذي كتب باليونانية استعمل الاسم: باراكليتوس، وهي توافق وتطابق تماماً اسم أحمد في معناه ومغزاه، هكذا قال خبير الإنجيل البروفيسور عبد

[٣٧] صحيح البخاري –كتاب المناقب– باب خاتم النبوة ح ٣٥٤١.

[٣٨] فتح الباري ٥٦١/٦.

[٣٩] السيرة النبوية تحقيق الأبياري والسقا والشلبي ٢٣٢/١-٢٣٣.

الأحد داود[٤٠].

وقد نقل لنا نصاً آخر من الإنجيل في الإصحاح الثاني من سفر حجي فيه البشرى بمبعث محمد ﷺ وهذا نصه: "ولسوف أزلزل كل الأمم، وسوف يأتي (حمدَا himada) لكل الأُمم، وسوف أملأ هذا البيت بالمجد، كذلك قال ربُّ الجنود، ولِيَّ الفضة، وليَّ الذهب، هكذا يقول ربُّ الجنود، وإن مجد ذلك البيت الأخير يكون أعظم من مجد الأول، هكذا يقول ربُّ الجنود، وفي هذا المكان أعطي السلام، هكذا يقول ربُّ الجنود''.

ويقول عبد الأحد: ولقد قمت بترجمة هذه الفقرة المذكورة من النسخة الوحيدة من الإنجيل التي كانت بحوزتي، والتي أعارتني إياها سيدة آشورية كانت ابنة عمٍّ لي، والنسخة هذه باللغة الوطنية الدارجة آنذاك، ولكن دعنا نرجع إلى الترجمة الإنجليزية للكتاب المقدس، والتي نجد أنها ترجمت عن الأصل العبري كلمة (حمدا) إلى (الأمنية) وكلمة (شالوم) إلى (الإسلام).

وقد عقد فصلاً بعنوان: يوحنا المعمدان تنبأ بمحمد، ونقل عن إنجيل برنابا أن عيسى بن مريم يتكلم على روح محمد، وبرهن أن كلمة البرقليط تعني اسم أحمد أو محمد، فقال: إن التنزيل القرآني القائل بأن عيسى بن مريم عليه السلام أعلن لبني إسرائيل أنه قال: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الصف: ٦]. هو من أقوى البراهين على أن محمداً كان حقيقة نبياً وأن القرآن تنزيل إلهي فعلاً، إذ لم يكن في وسعه أبداً أن يعرف أن كلمة البرقليط كانت تعني: أحمد إلا من خلال الوحي والتنزيل الإلهي، وحجة القرآن قاطعة ونهائية؛ لأن الدلالة الحرفية للاسم اليوناني تعادل بالدقة ودون شك كلمتي (أحمد ومحمد)[٤١].

ويذكر الشيخ النجار حواراً دار بينه وبين المستشرق الإيطالي (كارلونلينو) – وكان بينهما صداقة – حول معنى (البارقليط) قال: قلت له: ما معنى (بيركلوتس)؟ فأجابني بقوله: إن القسس يقولون إن هذه الكلمة معناها (المُعزَّى) فقلت: إني أسأل الدكتور (كارلونلينو) الحاصل على الدكتوراه في آداب اللغة اليونانية القديمة ولست أسأل قسيساً! فقال: إن معناها: الذي له حمد كثير، فقلت: هل ذلك يوافق أفعل التفضيل من حمد؟ فقال: نعم، فقلت: إن رسول الله ﷺ من أسمائه أحمد، فقال: ''يا أخي إنك تحفظ

[٤٠] محمد في الكتاب المقدس ص٥١، والمؤلف كان على المذهب الكاثوليكي قبل الإسلام.

[٤١] المصدر السابق ص١٧٩و١٨١و٢٢٣.

كثيراً''، ثم افترقنا، وقد ازددت تثبتاً في معنى قوله تعالى حكاية عن المسيح عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الصف: ٦][٤٢].

وقد صحَّ عن جُبير بن مُطعم رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: ''لي خمسة أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر يُحشَرُ الناس على قدمي وأنا العاقب''[٤٣]، وله أسماء أخرى، قال الحافظ ابن حجر: وقيل الحكمة في الاقتصار على الخمسة المذكورة في هذا الحديث أنها أشهر من غيرها موجودة في الكتب القديمة وبين الأمم السالفة[٤٤].

وقد سرد العلامة القرافي عشرات البشارات ومنها قوله: البشارة الثلاثون: قال أشعياء عليه السلام في نبوءته منبهاً على محمد ﷺ: عبدي الذي يرضي نفسي، أعطيه كلامي، فيظهر في الأمم عدلي، ويوصيهم بالوصايا، لا يضحك ولا يصخب، يفتح العيون العور، ويسمع الآذان الصم، ويحيي القلوب الميتة، وما أعطيه لا أعطيه غيره أحداً يحمد الله حمداً جديداً، يأتي من أفضل الأرض فتفرح به البرية وسكانها، ويوحدون الله تعالى على كل شرف، ويعظمونه على كل رابية، لا يضعف ولا يغلب ولا يميل إلى الهوى، ولا يذل الصالحين الذين هم كالقصب الضعيف؛ بل يقوي الصدِّيقين المتواضعين، وهو نور الله تعالى الذي لا يطفأ، أثر سلطانه على كتفه[٤٥].

البشارة الثانية والثلاثون: قال أشعياء عليه السلام في نبوءته: ''يا آل إبراهيم خليأتي الذي قويته ودعوته من أقاصي الأرض، لا تخف ولا ترهب فأنا معك، ويدي العزيزة مهدت لك، جعلتك مثل الجرجر الحديد يدق ما يأتي عليه دقاً، ويسحقه سحقاً حتى يجعله هشيماً يلوى به هوج الرياح، وأنت تبتهج وترتاح ويكون محمداً''.

---

[٤٢] قصص الأنبياء للنجار ص٣٩٨.

[٤٣] صحيح البخاري –كتاب المناقب – باب ما جاء في أسماء رسول الله ﷺ ح ٣٥٣٢.

[٤٤] فتح الباري ٥٥٨/٦.

[٤٥] ينظر: الأجوبة الفاخرة ص٧٤١-٧٤٣، وهذه البشارة موافقة لما أخرجه البخاري بسنده عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة، قال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: "يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح بها أعيناً عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً».البخاري – البيوع- باب كراهية السخب في الأسواق ح٢١٢٥-.

البشارة الثالثة والثلاثون: قال أشعياء عليه السلام في نبوءته معلناً باسمه ﷺ: ''إني جعلت اسمك محمداً يا محمد، يا قدوس الربّ اسمك موجود من الأبد''.

البشارة السابعة والثلاثون: قال أشعياء عليه السلام في نبوءته: ''إنا سمعنا في أطراف الجبال صوت محمد''.

البشارة الثانية والأربعون: قال النبي حبقوق عليه السلام في نبوءته: إن الله تعالى جاء من التيمن، والقدوس من جبال فاران، لقد أضاءت السماء من بهاء محمد، وامتلأت الأرض من حمده، وشاع منظره مثل النور، يحوط بلاده بعزة.

البشارة الخامسة والأربعون: قال دانيال عليه السلام في نبوءته مخاطباً محمداً ﷺ: ستنزع من قسيك إغراقاً، ترتوي السهام بأمرك يا محمد ارتواء[٤٦]، من أجل ذلك أعلن النجاشي إسلامه. وقال: أشهد أنه رسول الله، فإنه الذي نجد في الإنجيل، وإنه الرسول الذي بشر به عيسى بن مريم[٤٧].

صفة رسول الله ﷺ في التوراة: قال شيخ الإسلام ابن تيمية: والأخبار بمعرفة أهل الكتاب بصفة محمد ﷺ عندهم في الكتب المتقدمة متواترة عنهم[٤٨].

أخرج الإمام الذهبي بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سأل كعب الأحبار: ''كيف تجد نعت رسول الله ﷺ في التوراة؟'' قال: ''نجده محمد بن عبد الله يولد بمكة، ويهاجر إلى طابة، ويكون ملكه بالشام، وليس بفحَّاش ولا سخَّاب في الأسواق ولا يكافئ بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر''[٤٩].

ويشهد له ما أخرجه البخاري بسنده من حديث عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة، قال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه

[٤٦] ينظر: الأجوبة الفاخرة ص ٧٤٧و٧٥١و٧٥٥-٧٥٦و٧٦١-٧٦٢، وانظر هذه البشارة في الجواب الصحيح ٣٣٠/٣، وهداية الحيارى ١٤١، ونقل ابن القيم عن ابن قتيبة قوله: وزاد فيه بعض أهل الكتاب وستنزع في قسيك إغراقاً، وترتوي السهام بأمرك يا محمد ارتواء، وذلك بعد ذكره البشارة: جاء الله من التيمن... هداية الحيارى ١٤١.

[٤٧] حديث ثابت أخرجه الإمام أحمد في المسند ٤٠٩/٧ ح ٤٤٠- وحسنه الحافظ ابن حجر فتح الباري ١٨٩/٧- وجوده سنده الحافظ ابن كثير البداية والنهاية ٦٩/٣.

[٤٨] الجواب الصحيح ٣٤٠/١.

[٤٩] السيرة النبوية للذهبي ٥٠/١.

الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله ويفتح بها أعيناً عمياً وآذانا صماً وقلوباً غلفاً[٥٠].

وأخرج الإمام أحمد بسند حسن عن ابن مسعود ﷺ قال: إن الله ابتعث نبيه ﷺ لإدخال رجل إلى الجنة، فدخل الكنيسة، فإذا هو بيهود، وإذا يهودي يقرأ عليهم التوراة، فلما أتوا علىٰ صفة النبي ﷺ، أمسكوا، وفي ناحيتها رجل مريض، فقال النبي ﷺ: ''ما لكم أمسكتم؟'' قال المريض: إنهم أتوا على صفة نبي، فأمسكوا، ثم جاء المريض يحبو حتى أخذ التوراة فقرأ حتى أتى على صفة النبي ﷺ وأُمته، فقال: هذه صفتك وصفة أمتك، أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، ثم مات، فقال النبي ﷺ لأصحابه: ''لُوا أخاكم''[٥١].

نقل الحافظ الذهبي بُشرى ورقة بن نوفل بمبعثه ﷺ فقال: قال ابن إسحاق: وكانت خديجة قد ذكرت لعمها ورقة بن نوفل – وكان قد قرأ الكتب وتنصَّر – ما حدثها ميسرة من قول الراهب وإظلال الملكين، فقال: لئن كان هذا حقاً يا خديجة إن محمداً لنبي هذه الأُمَّة، وقد عرف أن لهذه الأُمَّة نبياً ينتظر زمانه، قال وجعل ورقة يستبطئ الأمر ويقول: حتى متى، وقال قصيدة[٥٢].

ومن الذين علموا بمبعث النبي ﷺ وصفته عبد الله بن سلام، قال الواحدي في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦]. نزلت في مؤمني أهل الكتاب: عبد الله بن سَلام وأصحابه، كانوا يعرفون رسول الله ﷺ بنعته وصفته ومبعثه في كتبهم، كما يعرف أحدهم ولده إذا رآه مع الغلمان.

قال عبد الله بن سلام ﷺ: لأنا كنت أشدَّ معرفة برسول الله ﷺ مني بابني، فقال له عمر بن الخطاب: وكيف ذاك يا ابن سلام؟ قال: لأني أشهد أن محمداً رسول الله حقاً يقيناً، وأنا لا أشهد بذلك على ابني، لأني لا أدري ما أحدث النساء، فقال عمر: وفقك الله يا ابن سلام[٥٣]. وعبد الله بن سلام خبير بالتوراة، فهو الذي فضح الذين كتموا

---

٥٠ صحيح البخاري – البيوع – باب كراهية السخب في الأسواق ح٢١٢٥.

٥١ المسند ٦٤/٧ ح ٣٩٥١، قال الهيثمي: وفيه عطاء بن السائب وقد اختلط مجمع الزوائد ٢٣١/١– ولكن الإمام أحمد أخرجه من طريق حماد بن سلمة عن عطاء، ورواية حماد بن سلمة قبل الاختلاط فالإسناد حسن.

٥٢ ينظر: السيرة النبوية ص٦٨–٦٩.

٥٣ أسباب النزول للواحدي ص٤٠.

حكم الرجم[٥٤].

ونقل الحافظ ابن حجر عن البغوي وابن سعد وابن شاهين وابن السكن من طريق خليفة بن عبدة المنقري قال: سألت محمد بن عدي بن ربيعة كيف سمَّاك أبوك في الجاهلية محمداً؟ قال: سألت أبي عمَّا سألتني فقال: خرجت رابع أربعة من بني تميم أنا أحدهم وسفيان بن مجاشع ويزيد بن عمرو بن ربيعة وأُسامة بن مالك بن حبيب بن العنبر نريد ابن جفنة الغساني بالشام، فنزلنا على غدير عند دير، فأشرف علينا الديراني فقال لنا: إنه يبعث منكم وشيكاً نبي فسارعوا إليه، فقلنا ما اسمه؟ قال: محمد، فلما انصرفنا وُلد لكل منا ولد فسماه محمداً لذلك[٥٥].

من أين أتى ورقة بن نوفل وعبد الله بن سلام وعدي بن ربيعة بهذا النبأ ؟ إنه من كتب أهل الكتاب السماوية.

يقول برنابا: سيأتي مسيا (أي الرسول) المرسل من الله لكل العالم، وحينئذ يسجد لله في كل العالم وتنال الرحمة[٥٦].

وذكر نبي الرحمة ﷺ في مزامير وزبور داود: قال القرافي: البشارة الحادية والعشرون: قال داود عليه السلام في مزاميره: سيكون من يحوز من البحر إلى البحر، ومن لدن الأنهار إلى منقطع الأرض (بحر أهل الجزائر بين يديه)، ويلحس أعداؤه التراب، وتسجد له ملوك الفرس، وتدين له الأمم بالطاعة والانقياد، ويخلص (المضطهد البائس) ممن هو أقوى منه، وينقذ الضعيف الذي لا ناصر له، ويرأف بالمساكين والضعفاء، ويُصَلَّى عليه ويبارك في كل حين[٥٧].

ونقل شيخ الإسلام ابن تيمية من مزامير داود: ومحمد قد عمَّ الأرض كلها فرحاً[٥٨]. وقال أيضاً: قد رأيت أنا من نسخ الزبور ما فيه تصريح بنبوة محمد ﷺ باسمه[٥٩].

---

٥٤ ينظر صحيح البخاري – كتاب المناقب – باب قول الله تعالى ﴿يعرفونه كما يعرفون أبناءهم﴾ ح ٣٦٣٥.

٥٥ فتح الباري ٥٥٦/٦.

٥٦ إنجيل برنابا ٨٢:١٦-١٨.

٥٧ انظر: معنى هذه البشارة في المزمور ٧٢- وانظر الجواب الصحيح ٣٢٢/٣، هداية الحيارى ١٤٦، الأجوبة الفاخرة ص٧٢٧.

٥٨ الجواب الصحيح ٣١٩/٣، وهداية الحيارى ١٤٧، وهذا يتوافق مع الحديث الصحيح: «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها صحيح مسلم – الفتن – باب هلاك الأُمَّة بعضهم بعضاً ٢٢١٥/٤-.

٥٩ الجواب الصحيح ٢٧/٢.

واستناداً إلى هذه النصوص الصريحة والأدلة الصحيحة فإن نسبة الكذب إلى محمد ﷺ جحود لما جاء به عيسى وموسى في التوراة والإنجيل، ولو لم يكن نبي الرحمة ﷺ صادقاً لكان عيسى وموسى عليهما الصلاة والسلام كاذبين؛ لأن تكذيب نبي الرحمة ﷺ يؤدي إلى تكذيب عيسى وموسى صلى الله عليهما وسلم في بشارتهما به في التوراة والإنجيل.

ثانياً: **الإعجاز**

لو كان القرآن من إنشاء النبي ﷺ لما عجز العرب عن معارضته، وفيهم الفصحاء والبلغاء وقد تحداهم أن يأتوا بمثله، أو بسورة من مثله، فعجزوا رغم حرصهم على معارضته وتكذيبه.

ولو كان القرآن من كلام محمد ﷺ للزم أن يكون قبل البعثة قارئاً كاتباً، ليس ذلك فحسب، ولكن عالماً بكل قضايا المنهج القرآني في: الاعتقاد، والتشريع، والأخلاق، والمعاملات، وأن يكون على معرفة بقصص السابقين بالدقة المتناهية التي لم يستطع الأعداء إيجاد ثغرة فيها، والله تعالى يقول:﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِه مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]. كما أن أحكام القرآن العظيمة التي ارتقت بالمسلمين الذين أخذوه بقوة لا يمكن أن تكون من قول البشر لما فيها من النفع والسعادة والنظام والإتقان الذي لا تستقيم الحياة إلا به.

ولو كان القرآن الكريم من قول البشر لما بقي إلى يومنا هذا محفوظاً في السطور والصدور، ولطرأ عليه التغيير والتبديل، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[الحجر: ٩].

ثالثاً: **الأمور المستقبلية من الأخبار والاكتشافات**

لقد تلا نبي الرحمة ﷺ القرآن الحكيم الذي أخبر عن أمور مستقبلية أنها ستقع ووقعت كما أخبر، ومن ذلك ما يخص الافتراءات والإشاعات كما في قوله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنْ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

فهذه الافتراءات نراها تترى، وهي مظالم يتأذى منها المسلمون، أخبر عن ذلك الله تعالى، فلو كان من عند غير الله لما تحقق هذا الخبر؛ لأنه غيب لا يعلمه إلا الله

تعالى؛ ويساهم في الردِّ الطبيب الفرنسي (موريس بوكاي) من الاكتشافات العلمية الطبية والفلكية إذ يقول: إن المعلومات المفيدة لأولي العلم موضحة لكل الأجيال؛ لأن القرآن الكريم يشتمل على بيانات حول بعض ظواهر الطبيعة لا يمكن إدراك معناها إلا في العصر الحديث بفضل النهضة العلمية في هذا العصر، وقد أتيت بأمثلة كثيرة منها في كتابي (القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم) أذكر منها فقط التأملات المتعددة حول التناسل الإنساني، وبعض البيانات الفسيولوجية التي قدمتها سنة ١٩٧٦م، بأكاديمية الطب بباريس، وقد أكدت هذه المؤسسة بصراحة تطابق هذه المعلومات تماماً مع الاكتشافات العصرية، وواضح أن هذه المعلومات كانت مجهولة في عهد النبي ﷺ، فوجود هذه المعلومات في نصٍّ من نصوص القرن السابع الميلادي أمر لا يمكن تفسيره بشرياً، إن تاريخ العلوم يثبت ذلك[٦٠].

رابعاً: نفي التناقض في آيات القرآن الكريم

لقد جاءت آيات القرآن متناسقة متناسبة في اللفظ والمعنى خالية من النقص والخلل يبين بعضها بعضاً، ومن زعم وجود التناقض في آياته فزعمه باطل لا دليل عليه، وقد رد على مثل هذا الزعم قديماً الإمام أحمد في كتابه "الرد على الزنادقة و الجهمية"، وفي عصرنا الحاضر حرر فضيلة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه كتاباً بعنوان: " دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب"، ويكفي قول الله عز وجل في نفي وجود التناقض والاختلاف في القرآن قال تعالى: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً﴾ [النساء: ٨٢]. أولم يكفهم تلك الفصاحة ووضوح المعاني وقوة المباني؟!

خامساً: آيات العتاب وقصة الإفك

فآيات العتاب التي خاطبت نبي الرحمة دليل على مصدرية القرآن من الله، ومنها قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (٣)﴾ [عبس: ١- ٣]. وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[التحريم:١]، وقوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٣]، وقوله تعالى:﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ

[٦٠] القرآن الكريم والعلم العصري ص٩٧-٩٨.

حَكِيمٌ﴾[الأنفال: ٦٧]. فلو كان من قول النبي ﷺ لما ذكر ذلك العتاب الذي كان موجهاً إليه خاصة.

ولو كان نبي الرحمة ﷺ مدعياً للوحي لاستخدم ذلك في قصة الإفك فقد كان بأشد الحاجة إلى بيان الحق، إذ انتظر شهراً كاملاً حتى نزل الوحي ببراءة أُم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، فلو كان الأمر كما يزعمون لما صبر تلك الأيام العصيبة التي هزَّت بيت النبوة.

سادساً: **ردود علماء الغرب من النساء والرجال على هذه الشبهات، ومنها ما يأتي:**

١. تقول المستشرقة الإيطالية لورافيشيا فاغليري L.Vaccia Vaglieri: "حاول أقوى أعداء الإسلام أن يرموا نبي الله ﷺ ببعض التهم المفتراة، لقد نسوا أن محمداً كان قبل أن يستهل رسالته موضع الإجلال العظيم من مواطنيه بسبب أمانته وطهارة حياته، ومن عجب أن هؤلاء الناس لا يجشمون أنفسهم عناء التساؤل كيف جاز أن يقوى محمد ﷺ على تهديد الكاذبين والمرائين في بعض آيات القرآن اللاَّسعة بنار الجحيم الأبدية، لو كان هو قبل ذلك [وحاشاه] رجلاً كاذباً؟ كيف جرؤ على التبشير على الرغم من إهانات مواطنيه إذا لم يكن ثمة قوى داخلية تحثه – وهو الرجل ذو الفطرة السليمة – حثاً موصولاً ؟ كيف استطاع أن يستهل صراعاً كان يبدو يائساً؟ كيف وفق إلى أن يواصل هذا الصراع أكثر من عشر سنوات، في مكة، في نجاح قليل جداً، وفي أحزان لا تحصى، إذا لم يكن مؤمناً إيماناً عميقاً بصدق رسالته؟ كيف جاز أن يؤمن به هذا العدد الكبير من المسلمين النبلاء والأذكياء، وأن يؤازروه، ويدخلوا في الدين الجديد.. إذا لم يلمسوا في كلمته حرارة الصدق؟ ولسنا في حاجة إلى أن نقول أكثر من ذلك، فحتى بين الغربيين يكاد ينعقد الإجماع على أن صدق محمد ﷺ كان عميقاً وأكيداً"[٦١].

٢. يقول المؤرخ د. نظمي لوقا (Dr. N Luka) المسيحي المصري: "ماذا بقي من مزاعم لزاعم؟ إيمان امتحنه البلاء طويلاً قبل أن يفاء عليه بالنصر، وما كان النصر متوقعاً أو شبه متوقع لذلك الداعي إلى الله في عاصمة الأوثان والأزلام... ونزاهة ترتفع فوق المنافع، وسمو يتعفف عن بهارج الحياة، وسماحة لا يداخلها زهو أو استطالة بسلطان مطاع... وألغى ما كان لقبيلته من تقدم على الناس في

[٦١] دفاع عن الإسلام ص٣٧-٣٨.

الجاهلية حتى جعل العبدان والأحابيش وملوك قريش سواسية، لم يمكن لنفسه ولا لذويه، وكانت لذويه بحكم الجاهلية صدارة غير مدفوعة، فسوى ذلك كله بالأرض، أي قالة بعد هذا تنهض على قدمين لتطاول هذا المجد الشاهق أو تدافع هذا الصدق الصادق؟ لا خيرة في الأمر، ما نطق هذا الرسول عن الهوى.. وما ضلَّ وما غوى.. وما صدق بشر إن لم يكن هذا الرسول بالصادق الأمين..."[٦٢].

٣. يقول الكاتب الإنجليزي توماس كارلايل: "ومما يبطل دعوى القائلين إن محمداً ﷺ لم يكن صادقاً في رسالته.. أنه قضى عنفوان شبابه وحرارة صباه في تلك العيشة الهادئة المطمئنة مع خديجة رضي الله عنها لم يحاول أثناءها إحداث ضجة ولا دويّ، مما يكون وراءه ذكر وشهرة وجاه وسلطة"[٦٣]؛ ويقول أيضاً: "هل رأيتم رجلاً كاذباً يستطيع أن يبني بيتاً من الطوب، لجهله بخصائص مواد البناء، وإذا بناه فما ذاك الذي يبنيه إلا كومة من أخلاط هذه المواد، فما بالك بالذي يبني بيتاً دعائمه هذه القرون العديدة، وتسنُّه هذه الملايين الكثيرة من الناس؟ وعلى ذلك فمن الخطأ أن نعد محمداً رجلاً كاذباً متصنعاً، متذرعاً بالحيل والوسائل لغاية أو مطمع، وما الرسالة التي أداها إلا الصدق والحق، وما كلمته إلا صوت حق صادر من العالم المجهول... وما هو إلا شهاب أضاء العالم أجمع، ذلك أمر الله، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء"[٦٤].

٤. يقول الكونت الفرنسي هنري دي كاستري: لو رجعنا إلى ما وضحه الحكماء عن النبوة، ولم يقبله المتكلمون من المسيحيين، لأمكننا الوقوف على حالة مشيد دعائم الإسلام وجزمنا بأنه لم يكن من المبتدعين.. ومن الصعب أن تقف على حقيقة سماعه لصوت جبريل عليه السلام.. إلا أن معرفة هذه الحقيقة لا تغير موضوع المسألة؛ لأن الصدق حاصل في كل حال[٦٥].

٥. ويردُ البروفيسور (جير هاردت إندريس) أستاذ الدراسات الإسلامية في جامعة روهر Ruhr في كتابه (مقدمة عن الإسلام) نشر سنة ١٩٨٨م في جامعة كولومبيا، وفي الفصل الذي جاء بعنوان: (الإسلام دين وشريعة) حمل الكاتب على أكاديميي الدراسات الإسلامية المتطرفين أمثال (مايك كوك، وباتريشيا

---

٦٢ محمد الرسالة والرسول ص١٨٣-١٨٦.

٦٣ الأبطال ص٥١.

٦٤ أوروبا والإسلام ص٤٦-٤٧.

٦٥ الإسلام خواطر وسوانح ص٢١.

كرون، وجون وانسبورا) وغيرهم ممن شككوا في أصالة القرآن وصحة أصوله واعتباره مصدراً تشريعياً للمسلمين قائلاً عنهم: (إنهم لم يقدموا أي دليل مقنع يدعم افتراضاتهم وادعاءاتهم تلك)[٦٦].

٦. يقول الطبيب الفرنسي موريس بوكاي: كيف يمكن لإنسان -كان في بداية أمره أُمياً- أن يصرح بحقائق ذات طابع علمي لم يكن في مقدور أي إنسان في ذلك العصر أن يدركها، وذلك دون أن يُكشف عن أقل خطأ من هذه الوجهة[٦٧].

٧. يقول المستشرق الفرنسي ريجس بلاشير: ''إن معجزة النبي ﷺ الحقيقية والوحيدة هي إبلاغ الناس رسالة ذات روعة أدبية لا مثيل لها... وعندما قال عنه المكيُّون المشركون إنه شاعر، أو حين عرضوا بأن مصدر الوحي جني معروف أزال الله عنه هذه التهمة: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠)﴾ [يس: ٦٩ - ٧٠]. وهكذا يطرح هذا الوحي البالغ جماله حد الإعجاز، الواثق بحمل الناس بقوة بيانه على الهداية''[٦٨].

٨. يقول المستشرق الروسي (بلاتونوف) في كتابه (تاريخ العالم): ''وغاية ما نقدر أن نجزم به هو تبرئة محمد [ﷺ] من الكذب والمرض"[٦٩].

٩. يقول المستشرق الهولندي (دوزي): ''لو صحَّ ما قاله القساوسة من أن محمداً نبي منافق كذَّاب فكيف نعلل انتصاره؟ وما بال فتوحات أتباعه تترى، وتتلو إحداها الأخرى، وما بال انتصارهم على الشعوب الأخرى لا يقف عند حد؟ وكيف لا يدل ذلك على معجزة الرسول..؟''.

١٠. أما المستشرق الفرنسي (أرنست رينان) فقد هاجم في كتاباته الأخيرة موقف (فولتير الفرنسي) من الرسول بقوله: ''دلتني تجربتي العلمية والتاريخية أنه لا صحة لما أريد إلصاقه بالنبي محمد من كذب وافتراء، مصدره بعض العادات القومية التي أراد بعض المتحاملين كفولتير أن يتوجهوا بها إلى ناحية تشفي سقام ذهنيتهم الوقحة، وتعصبهم الذميم، كقوله: إنه يميل إلى التسيد والسيطرة،

---

[٦٦] ينظر: الإسلام في المناهج الغربية المعاصرة ص٢٦١.
[٦٧] القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم، ص١٥٠.
[٦٨] تاريخ الأدب العربي ٢/١٤-١٥.
[٦٩] ينظر: القرآن والمستشرقون ص٢٧.

مع أن محمداً -كما أثبتت الوقائع التاريخية وشهادات أكابر علماء التاريخ - كان على العكس من ذلك، بريئاً من روح الكبرياء متواضعاً صادقاً أميناً، لا يحمل المقت لأحد، وكانت طباعه نبيلة وقلبه طاهراً ورقيق الشعور"[٧٠].

سابعاً: **شهادات علماء الغرب**

شهد على مصداقية نبي الرحمة ﷺ عدد كبير من مفكري الغرب انتقي من شهاداتهم ما يأتي:

١. يقول (مونتكمري وات) عميد قسم الدراسات العربية في جامعة أدنبرا سابقاً: هناك أسباب قوية تؤكد صدق محمد ﷺ ونستطيع في مثل هذه الحالة الخاصة أن نبلغ درجة عالية من اليقين؛ لأن النقاش حول هذه المسألة يعتمد على وقائع، ولا يمكن أن يتضمن خلافاً في التقدير حول الأخلاقية[٧١].

٢. يقول المؤرخ المسيحي اللبناني (جورج حنا): كان محمد [ﷺ] يخرج من سويعات لقائه مع جبريل عليه السلام بآيات تنطق بالحكمة، داعياً قومه إلى الرجوع عن غيهم، والإيمان بالإله الواحد الكلِّي القدرة، صابّاً النقمة على الآلهة الصنمية التي كان القوم يعبدونها، فكان طبيعياً أن يحقد عليه أشراف العرب ويضمروا له الشر، لما كان في دعوته من خطر على زعامتهم[٧٢].

٣. يقول المفكر النمساوي (ليوبولد فايس- محمد أسد): إن السُّنة هي المثال الذي أقامه لنا الرسول [ﷺ] من أعماله وأقواله، إن حياته العجيبة كانت تمثيلاً حيّاً وتفسيراً لما جاء في القرآن الكريم، ولا يمكننا أن ننصف القرآن الكريم بأكثر من أن نتبع الذي قد بلغ الوحي[٧٣].

٤. يقول (فرانز روزنثال) أستاذ جامعة ييل في فرنسا: إن أفكار الرسول [ﷺ] التي تلقاها وحياً، أو التي أدى إليها اجتهاده، نشطت دراسة التاريخ نشاطاً لا مزيد عليه، فقد أصبحت أعمال الأفراد وأحداث الماضي وحوادث كافة شعوب الأرض أموراً ذات أهمية دينية، كما أن شخصية الرسول [ﷺ] كانت خطاً فاصلاً واضحاً في كل مجرى التاريخ، ولم يتخط علم التاريخ الإسلامي هذا

---

٧٠ ينظر: الرسول ﷺ في كتابات المستشرقين ص٤٨.

٧١ محمد في مكة ص٤٩٧-٤٩٨.

٧٢ قصة الإنسان ص٧٦.

٧٣ الإسلام على مفترق الطرق ص٨٧.

الخط قط..[٧٤].

٥. يقول العالم الإنجليزي (لايتنر): بقدر ما أعرف من ديني اليهود والنصارى أقول بأن ما علمه محمد [ﷺ] ليس اقتباساً بل قد أوحي إليه به ولا ريب بذلك، طالما نؤمن بأنه قد جاءنا وحي من لدن عزيز عليم، وإني بكل احترام وخشوع أقول: إذا كان تضحية الصالح الذاتي، وأمانة المقصد، والإيمان القوي الثابت، والنظر الصادق الثاقب بدقائق وخفايا الخطيئة والضلال، واستعمال أحسن الوسائط لإزالتها، فذلك من العلامات الظاهرة الدالة على نبوة محمد [ﷺ] وأنه قد أُوحى إليه، ويقول أيضاً: إنّي لأجهر برجائي بمجيء اليوم الذي به يحترم النصارى المسيح عليه السلام احتراماً عظيماً وذلك باحترامهم محمد [ﷺ]، ولا ريب في أن المسيحي المعترف برسالة محمد [ﷺ] وبالحق الذي جاء به هو المسيحي الصادق[٧٥].

٦. يقول المؤرخ والناقد الإنجليزي (روم لاندو): لم ينسب محمد [ﷺ] في أي يوم من الأيام إلى نفسه صفة ألوهية أو قوى أعجوبية؛ بل على العكس، لقد كان حريصاً على النص على أنه مجرد رسول اصطنعه الله لإبلاغ الوحي للناس[٧٦].

٧. يقول المستشرق والمؤرخ الفرنسي (أميل درمنغم): ولد لمحمد [ﷺ] من مارية القبطية ابنه إبراهيم فمات طفلاً، فحزن عليه كثيراً ولحده بيده وبكاه، ووافق موته كسوف الشمس فقال المسلمون: إنها انكسفت لموته، ولكن محمداً [ﷺ] كان من سموِّ نفسه ما رأى به أن يرد ذلك فقال: "إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفان لموت أحد..." فقول مثل هذا مما لا يصدر عن كاذب دجال..[٧٧].

٨. يقول الدكتور الإنجليزي م.ج.دوراني: إن هذا الإيمان وهذا السعي الحثيث وهذا التصميم والعزم الذي قاد به محمد [ﷺ]حركته حتى النصر النهائي إنما هو برهان بليغ على صدقه المطلق في دعوته؛ إذ لو كانت في نفسه أدنى لمسة من شك أو اضطراب لما استطاع أبداً أن يصمد أمام العاصفة التي استمر أوارها أكثر من عشرين عاماً كاملة، هل بعد هذا من برهان على صدق كامل في

---

٧٤ علم التاريخ عند المسلمين ص٤٠.

٧٥ دين الإسلام ص٤-٦.

٧٦ الإسلام والعرب ص٣٢.

٧٧ حياة محمد ص٣١٨.

الهدف واستقامة في الخلق وسمو في النفس، كل هذه العوامل تؤدى لا محالة إلى الاستنتاج الذي لا مفر منه، وهو أن هذا الرجل هو رسول الله حقاً.

٩. يقول الكونت الفرنسي (هنري دي كاستري): إن أشد ما نتطلع إليه بالنظر إلى الديانة الإسلامية ما اختصَّ منها بشخص النبي [ﷺ]، ولذلك قصدت أن يكون بحثي أولاً في تحقيق شخصيته وتقرير حقيقته الأدبية علني أجد في هذا البحث دليلاً جديداً على صدقه وأمانته المتفق تقريباً عليها بين جميع مؤرخي الديانات وأكبر المتشيّعين للدين المسيحي[٧٨].

هذا هو نبينا محمد ﷺ إذ كان آية في صفاته النادرة، ونموذجاً كاملاً للفضيلة والخير، ورمزاً للصدق والإخلاص.. إن حياته وأفكاره وصدقه واستقامته وتقواه وجوده وعقيدته ومنجزاته، كل أولئك براهين مفيدة على نبوته؛ فأي إنسان يدرس دون تحيز حياته ورسالته سوف يشهد أنه حقاً رسول من عند الله، وأن القرآن الذي جاء به للناس هو كتاب الله حقاً، وكل مفكر منصف جاد يبحث عن الحقيقة لا بد أن يصل إلى هذا الحكم.

ثامناً: **الرد على افتراء د.شورُّوش**

أما افتراء د.شورُّوش فهو محاولة يائسة منه لطمس نور البشرية، ذلك المصدر الأصيل الثابت الذي لا تزعزعه الشدائد ولا تغيره المكائد، وقد انبرى له بالردِّ والاستنكار المجمع الفقهي الإسلامي في الدورة رقم (١٨) بمكة المكرمة في ١٤٢٧/٣/١٠هـ، كما أفرد د.صلاح الخالدي في كتابه (الانتصار للقرآن) رداً شاملاً على ذلك الكتاب المفترى، وقد ذكر جملة من الصحف والمجلات التي ردَّت على هذه الجريمة الآثمة؛ هذا الافتراء يأباه كل من له مسكة عقل أو إيمان ممن درسوا هذا القرآن وعرفوا عظمته وأهميته، فمنهم من آمن به ودخل الإسلام ومنهم من أُعجب به وشهد بذلك.

إن هذه الجريمة الكبرى من أكبر الجرائم التي عرفتها البشرية قديماً وحديثاً لما فيها من الاعتداء على كلام الرب سبحانه وتعالى، ونسف لتلك الجهود التي رسمت ورسخت الحوار بين الأديان، فقد حثَّ الفاتيكان على احترام الأديان عامة والقرآن خاصة كما في قرارات مجمع الفاتيكان الثاني سنة ١٩٦٥م إذ اعترفوا بأن القرآن مصدر ديني صحيح، بل هو المصدر الأساسي في الإسلام، كما اعترفوا أن محمداً ﷺ سلك طريق الأنبياء، وأوضحوا القضايا الكبرى المتفق عليها بين المسلمين والمسيحيين، فقد صدر

[٧٨] الإسلام خواطر وسوانح ص٦.

عن (مجلس البحث في القيم والفلسفة) التابع للجامعة الكاثوليكية في واشنطن سنة ٢٠٠٢م كتاب بعنوان: الحوار المسيحي الإسلامي قراءة في كتاب: التصورات اللاهوتية المسيحية عن المسلمين منذ مجلس الفاتيكان الثاني (١٩٢٦م – ١٩٦٤م) تأليف محمود إيدن[٧٩]، وجاء فيه ما يأتي:

يبدو الاهتمام بهذه الحقبة جلياً إذا عرفنا أن هذه المرحلة الزمنية في تاريخ الكنيسة الكاثوليكية هي لحظة البداية لمحاولة الاقتراب من الآخر، فقد أصدر مكتب التعاليم في الكنيسة الكاثوليكية (the magisteriun) وثيقة رسمية تسدل فيها الكنيسة على الأديان الأخرى صفة اعتبارية، فقد صرحت: (أن هذه الأديان معتبرة وينبغي على الكنيسة احترامها، كما ينبغي على المسيحيين التحاور معها).

وفي تلك الجريمة إلغاء لهذه الثوابت المتفق عليها بين الأديان، وكل ما تقدم من الفقرات السابقة مناسبة للردِّ عليه.

وأخيراً؛ فإني لأعجب من قوم بلغت بهم الحضارة المادية ذروة سنامها أن يقلدوا مشركي العرب، ويتقهقروا إلى ذلك العصر الجاهلي البائد! قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ (٤٤) لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧) وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (٤٨) وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ (٤٩) وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (٥١) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٥٢)﴾ [الحاقة: ٤٤ – ٥٢].

فهرس بأهم المصادر والمراجع

الأبطال، توماس كارلايل، ترجمة محمد السباعي، سلسة من الشرق والغرب، عدد١١، الدار القومية، القاهرة.

الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة، للإمام شهاب الدين أحمد ابن إدريس القرافي، تحقيق د.ناجي محمد داود، رسالة دكتوراه من جامعة أُم القرى بمكة المكرمة ١٤٠٥هـ، مطبوعة بالآلة الكاتبة.

آراء المستشرقين حول القرآن والتفسير، د.عمر إبراهيم رضوان، رسالة دكتوراه من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض ١٤١٠هـ، مطبوعة بالحاسوب.

[٧٩] Aydin Mahmut. Modern Christian Theological Understandings of Muslims Sincse the Second Vatican Councilm, Washington, DC: The Council for Research in Values and Philosophy, 2002

الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية، د.قاسم السامرائي، دار الرفاعي للنشر والطباعة، الرياض، ط١، ١٤٠٣هـ.

الإسلام خواطر وسوانح، هنري دي كاستري، ترجمة أحمد فتحي زغلول باشا، مطبعة الشعب، القاهرة ١٩١١م.

الإسلام على مفترق الطرق، ليوبولد فايس (محمد أسد) ، ترجمة د.عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٦، ١٩٦٥م.

الإسلام في المناهج الغربية المعاصرة، د.محمد وقيع الله أحمد، طبعة جائزة الأمير نايف بن عبد العزيز العالمية، ط١، ١٤٢٧هـ.

الإسلام في مواجهة الاستشراق العالمي، عبد العظيم المطعني، دار الوفاء للطباعة والنشر، المنصورة مصر، ط١، ١٤٠٧هـ.

الإسلام والعرب، روم لاندو، ترجمة منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط٢، ١٩٧٧م.

إعجاز القرآن للباقلاني، تحقيق السيد أحمد صقر، ط٣، دار المعارف مصر.

إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت ط٩، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.

الانتصار للقرآن، د.صلاح الخالدي، مؤسسة الفرسان للنشر، عمّان، الأردن.

الاهتمام بالسيرة النبوية باللغة الإنجليزية، أ.د.محمد مهر علي،ط١، ١٤٢٥هـ، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.

الاهتمام بالسيرة النبوية باللغة الفرنسية، د.حسن إدريس عزوزي، بحث مقدم لندوة عناية المملكة العربية السعودية بالسنة النبوية، والتي أقيمت في مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف في المدة ٥١-١٤٢٥/٣/٧١هـ.

البداية والنهاية، لابن كثير، مكتبة دار المعارف، بيروت، ط٣، ١٩٧٨م.

تاريخ الأدب العربي، ريجس بلاشير، ترجمة د.إبراهيم الكيلاني، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٧٤م.

جهود علماء المسلمين في دراسة الكتابات الاستشراقية حول القرآن الكريم، أ.د.علي بن إبراهيم النملة، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة.

حياة محمد، إميل درمنغم، ترجمة عادل زعيتر، دار أحياء الكتب العربية، القاهرة، ط٢، ١٩٤٩م.

دار المعارف بمصر – ٩١١١ كورنيش النيل – القاهرة ج. م. ع

دراسات إسبانية للسيرة النبوية، د.عبد القادر براده، ط١، ٥٢٤١هـ مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة.

دفاع عن الإسلام، لورافيشيا فاغليري، ترجمة منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط٣، ٦٧٩١م.

دين الإسلام، لايتنر، ترجمة عبد الوهاب سليم التنّير، المكتبة السلفية، دمشق، ط٢، ٢٤٣١هـ.

الرسالة المحمدية للسيد سليمان الندوي، ترجمة محمد الندوي، المطبعة السلفية بالقاهرة ٢٧٣١هـ.

الرسول ﷺ في كتابات المستشرقين، نذير حمدان، دار المنارة، جدة، ط ٢، ٦٠٤١هـ.

سير أعلام النبلاء، تأليف الإمام الذهبي، مؤسسة الرسالة، بيروت ط٤، ٦٠٤١هـ.

السيرة النبوية، لابن هشام، طبعة الحلبي بتحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الأشبيأتي، دار الفكر، بيروت.

السيرة النبوية، للذهبي، تحقيق حسام الدين القدسي، دار الكتب العلمية، بيروت ط١، ١٠٤١هـ.

شرح ديوان المتنبي لعبد الرحمن البرقوقي، ط٧٠٤١هـ، دار الكتاب العربي، بيروت.

صحيح مسلم، للإمام مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، تحقيق الدكتور محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

علم التاريخ عند المسلمين، فرانز روز نثال، ترجمة د.صالح أحمد العلي، مراجعة محمد توفيق حسين، مكتبة المثنى (بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين)، بغداد ٣٦٩١م.

فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، طبعة دار الفكر، بيروت، نسخة مصورة عن الطبعة السلفية المصرية.

القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم، موريس بوكاي، (دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة) دار المعارف، القاهرة ٨٧٩١م.

القرآن الكريم والعلم العصري، موريس بوكاي، ترجمة فودي سوريبا كمارا، دار المآثر، المدينة النبوية، ط١، ٠٢٤١هـ.

القرآن والمستشرقون المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية – القاهرة ٣٩٣١هـ.

قصة الإنسان، جورج حنّا، الطبعة الخامسة، دار العلم للملايين، بيروت، ٣٧٩١م.

محمد الرسالة والرسول، نظمي لوقا، الطبعة الثانية، دار الكتب الحديثة، القاهرة ٩٥٩١م.

محمد في الكتاب المقدس، أ.د.عبد الأحد داود، ترجمة فهمي شمّا، طبعة رئاسة المحاكم والشؤون الدينية بدولة قطر، ط١، ١٤٠٥هـ.

محمد في مكة، مونتكمري وات، تعريب شعبان بركات، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.

المستشرقون وترجمة القرآن، د.محمد صالح البنداق، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ.

مسند الإمام أحمد بن حنبل، بتحقيق شعيب الأرناؤوط ومجموعة من العلماء، إشراف الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ.

موقف المستشرقين من القرآن الكريم، أ.د.عدنان محمد الوزان، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة.

الوافي بالوفيات للصفدي، بتحقيق واعتناء أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، ط١، ١٤٢٠هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان.

المملكة العربية السعودية
جامعة الملك عبد العزيز
معهد البحوث والاستشارات
كرسي المعلم محمد عوض بن لادن للدراسات القرآنية

مكتبة المسجد النبوي الشريف
رقم الكتاب ١٤٢٩٨٩
تاريخ التسجيل ١٤٢٩/١/٢٠هـ

سلسلة الرد على الشبهات

(٢)

الرد على شبهة العنف المنسوبة للنبي صلى الله عليه وسلم

إشراف

أ. د. حكمت بن بشير بن ياسين

أستاذ كرسي المعلم محمد عوض بن لادن للدراسات القرآنية

مراجعة

د. محمد بن عبدالله الحلواني

المشرف على الكرسي ورئيس قسم الدراسات الإسلامية سابقاً

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

كرسي المعلم محمد عوض بن لادن للدراسات القرآنية

هاتف: ٦٩٥٢٠٠٠ تحويلة: ٦٧٢٤٦ / فاكس: ٦٩٥٢٠٠٠ تحويلة: ٦٨٨٥٧

ص.ب٨٠٢٠٢ جدة ٢١٥٨٩ جوال: ٠٥٠٣٤٠٩٢٨٩

الموقع الإلكتروني : http://binladenchair-qs.kau.edu.sa

بريد إلكتروني : quran.s.c@hotmail.com

مقدمـــة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله ومن والاه ، أما بعد :

فهذا البحث يتضمن الردَّ على شبهة نشر دعوة الإســـلام بـــالعنف والسيف المنسوبة إلى النبي ﷺ وذلك من خلال سلســـلة الـــرد علـــى الشبهات، ضمن أعمال " كرسي المعلم محمد عوض بن لادن للدراسات القرآنية "، ويبدأ هذا البحث بعرضٍ للشبهة، ثم الـــرد بالأدلـــة النقليـــة الصحيحة والعقلية الصريحة حسب الأقسام التالية:

القسم الأول : شهادات كبار قومهم من العلماء والساسة والفلاسفة.

القسم الثاني: الأحاديث النبوية الشريفة الصحيحة.

القسم الثالث : أقوال العلماء والحكّام والشعوب.

وفي ختام هذه المقدمة أتقدم بالشكر الجزيل لرعاة الكرسي، ســـعادة المهندس بكر بن محمد بن عوض بن لادن مدير عام ورئيس مجلس إدارة مجموعة ابن لادن السعودية، وسعادة المهندس يحيى بن محمد عوض بـــن لادن، رئيس مجلس الإدارة والمدير العام بالنيابة، ويرحم الله تعالى والـــد القائمين على الكرسي: المعلم محمد عوض بن لادن، ذلك الرجل الـــذي سُمي الكرسي باسمه، والشكر موصول لسعادة الأستاذ الـــدكتور عبـــد اللطيف خماخم مستشار مجموعة ابن لادن السعودية، ونائـــب الـــرئيس للتطوير الإداري على جهوده المباركة في عنايته وتقديره لهذا الكرســـي، كما أتقدم بالشكر الجزيل لمعالي مدير الجامعة الأستاذ الدكتور/ أسامة بن

صادق طيب، ولسعادة الدكتور/ أحمد بن حامد نقادي وكيل الجامعة للأعمال والإبداع المعرفي، ولسعادة الأستاذ الدكتور/ عبدالملك بن علي الجنيدي عميد معهد البحوث والاستشارات ووكيليه: سعادة الدكتور/ عبدالله بن أحمد الغامدي، وسعادة الدكتور/ هيثم بن حسن لنجاوي، وإلى أصحاب السعادة أعضاء لجنة أبحاث الكراسي العلمية بالجامعة، والشكر الجزيل إلى سعادة الدكتور/ محمد بن عبدالله الحلواني المشرف على الكرسي الذي بذل جهداً مشكوراً في مراجعة هذا البحث، وللشيخ الفاضل/ إبراهيم بن محمد أول الباحث المساعد الذي قام بالتنسيق الطباعي.

والله تعالى ولي التوفيق، ، ،

أ.د. حكمت بن بشير بن ياسين

أستاذ كرسي المعلم محمد عوض بن لادن

للدراسات القرآنية

عرض الشبهة

لقد كان انتشار الإسلام في غاية الرفق والرحمة؛ إذ اشتمل على كل معاني الرحمة و الهداية لهذه البشرية، كما كان انتشاره في غاية الحكمة؛ لأن هذه الصفات السامية من الرحمة والرفق والحكمة هو من معالم هذا الدين. قال الله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥]، وكان النبي ﷺ ينشد العدل وسعادة الدارين، وقد يضطر إلى استخدام القوة، ولكن يتلوه ذلك الصلح والسلم وإبرام المعاهدات، من أجل نشر السلام بشتى الأساليب ومن هنا ظن البعض أن الإسلام انتشر بالعنف والسيف.

وهذه شبهة من الشبهات الخطيرة والإشاعات المثيرة التي انتشرت سابقاً ولاحقاً إلى عصرنا الحاضر، وانتشرت فى شتى وسائل الإعلام في أنحاء العالم، وهذا الافتراء من ثمرات الركام الذي خلفه بعض المستشرقين والمتعصبين من طراز (كيمون، وكولي، وجوليان، وغلوور، وبروكلمان، وفلهاوزن، وموير، ومرجوليوث)، وهذه بعض إشاعاتهم:

١- يقول المونيسنيور كولي في كتابه " البحث عن الدين الحق ": برز في الشرق عدو جديد هو الإسلام الذي أُسس على القوة، وقام على أشد أنواع التعصب، ولقد وضع محمد السيف في أيدي الذين اتبعوه، وتساهل في أقدس قوانين الأخلاق، ثم سمح لأتباعه بالفجور والسلب، ووعد الذين يهلكون في القتال بالاستمتاع الدائم بالملذات في الجنة!!

٢- ويقول المسيوكيمون في كتابه "ميثولوجيا الإسلام": إن الديانة المحمدية جذام فشا بين الناس، وأخذ يفتك بهم فتكاً ذريعاً، بل هو مرض مروع وشلل عام وجنون ذهني يبعث الإنسان على الخمول والكسل، ولا يوقظه منهما إلا ليسفك الدماء!!.

٣- ويقول جوليان في كتابه "تاريخ فرنسا": إن محمداً مؤسس دين المسلمين قد أمر أتباعه أن يُخضعوا العالم، وأن يبدلوا جميع الأديان بدينه هو، ما أعظم الفرق بين هؤلاء الوثنيين والنصارى!! إن هؤلاء العرب قد فرضوا دينهم بالقوة، وقالوا للناس: أَسْلِموا أو موتوا، بينما أتباع المسيح أراحوا النفوس ببرهم وإحسانهم، ماذا كانت حال العالم لو أن العرب انتصروا علينا؟ إذن لكنا مسلمين كالجزائريين والمراكشيين[١]!!.

٤- ويتهم المستشرق البريطاني ميوير[٢] في كتابه "حياة محمد" النبيّ ﷺ بأنه كان يعامل اليهود بقسوة ويظلمهم[٣].

٥- قال المستشرق البريطاني مرجليوث في كتابه "محمد [ﷺ] وطلوع الإسلام": إن محمداً [ﷺ] فرض الإسلام على الجزيرة بالسيف والقوة[٤].

---

(١) مناهج المستشرقين ص(١٢٧-١٢٨).

(٢) أحد كبار موظفي الحكومة البريطانية في الهند وكانت له صلة وطيدة مع الجمعيات الإرسالية العاملة في الهند، وقد كان حكماً في بعض المناظرات في اكبر بالهند سنة ١٨٥٣م/١٢٦٩هـ. (ينظر الاهتمام بالسيرة النبوية باللغة الإنكليزية ص٢٤).

(٣) ينظر المصدر السابق ص(٢٨-٣٠).

(٤) ينظر: الاهتمام بالسيرة النبوية باللغة الإنكليزية ص (٤٦، ٣٩، ٣٤).

وقد تأثر بهذا القول المؤرخ الفرنسي كوستاف لوبون في كتابه "حضارة العرب"[٥].

٦- وورد في معجم لاروس الفرنسي Larousse: الزعم بأن الرسول عليه الصلاة والسلام أمر أصحابه بنشر الإسلام بالعنف والقوة والسلاح والزعم أيضاً بأنه ﷺ قد طرد يهود بني قينقاع بسبب رفضهم اعتناق الإسلام، والزعم أيضاً بأن أهل المدينة إنما استجابوا لدعوة الإسلام بسبب كُرْههم وعداوتهم لأهل مكة[٦]!.

٧- وجاء في كتاب "تقدم التبشير العالمي" الذي ألّفه الدكتور غلوور ونشره في نيويورك سنة ١٩٦٠م، في نهاية الباب الرابع: إن سيف محمد والقرآن أشدُّ عدو، وأكبر معاند للحضارة والحرية والحق، ومن بين العوامل الهدَّامة التي اطلع عليها العالم إلى الآن! ثم ينتقد غلوور شخصية الرسول ﷺ فيقول: كان محمد حاكماً مطلقاً، وكان يعتقد أن من حق الملك على الشعب أن يتبع هواه ويعمل ما يشاء، وكان مجبولاً على هذه الفكرة، فقد كان عازماً على أن يقطع عنق كل من لا يوافقه في هواه. أما جيشه فكان يتعطش للتهديد والتغلب، وقد أرشدهم رسولهم أن يقتلوا كل من يرفض اتباعهم ويبعد عن طريقهم[٧]!.

٨- ويكتب المستشرق الألماني بروكلمان: قوّى فوزُ بدر من نفوذ النبي، فلم ينقضِ شهر على بدر حتى وجّه النبيّ رجاله إلى بني قينقاع

---

(٥) ينظر : آراء المستشرقين حول القرآن (١/١٥٤).

(٦) ينظر: الاهتمام بالسيرة النبوية باللغة الفرنسية، ص(٤٤).

(٧) مناهج المستشرقين، ص(١٢٨).

لِقَتْلِهم في الظاهر رجلاً مسلماً كان قد قتل رجلاً يهودياً إثـــر خـــلاف جرى بينهما، فاضطرهم إلى الإسلام والخروج من المدينة.

٩- ويقول عميد قسم الدراسات الإسلامية بجامعة أدنـــبرا ســـابقاً مونتكمري وات: وقد انتهز محمد فورة الحماس للتخلص مـــن بعـــض جوانب الضعف، فهاجم قبيلة بني قينقاع اليهودية بعد أن أدَّت خصومة تافهة لموت مسلم[٨].

١٠- ويقول المستشرق الألماني فلهاوزن: لم يَبْقَ الإسلامُ على تسامحه بعد بدر؛ بل شرع في الأخذ بسياسة إرهاب في داخل المدينة، وكانـــت إثارة مشكلة المنافقين علامة على ذلك التحول.. أما اليهود فقد حـــاول أن يظهرهم بمظهر المعتدين الناكثين للعهد، وفي غضون ســـنوات قليلـــة أخرج كل الجماعات أو قضى عليها في الواحات المحيطة بالمدينة، حيث كانوا جماعات متماسكة كالقبائل العربية، وقد التمس لـــذلك أســـباباً واهية[٩].

١١- ويرى إدوارد جيبون ت ١٧٩٤ edward gibbon أن النبي ﷺ استغل الاضطراب العارض في المدينة، ليجتمع ببني قينقاع ويخيرهم بـــين اعتناق دينه أو الحرب[١٠].

---

(٨) History of the Islamic Peoples, p.24.، نقلاً عن الاستشراق في السيرة النبوية، عبد الله محمد الأمين النعيم، ص(١٩٦).

(٩) انظر مناهج المستشرقين ص (١٣٧).

(١٠) The Saracens : Their hisrory and The Rise and Fall Of Their Empir. P.35 نقلا عن كتاب النبي ﷺ ويهود المدينة ص ١٤.

١٢- وألف كريك ونن كتاباً بعنوان "نبي الخـــراب " Prophet Of Doom وصف فيه الرسول ﷺ بأنه قاطع طريق.

١٣- وترتب على هذه الأفكار القيام بإنتاج بعض الأفلام المسمومة كفلم " فتنة " الذي يظهر النبي ﷺ مظهراً سيئاً يشوه شخصيته العظيمة ويطعن في رسالته ﷺ [١١].

(١١) ينظر نصرة الله نبيه محمداً ﷺ في القرآن الكريم ص ٣٠٩- ٣١١.

الرد على الشبهة

إن هذا التصور يكاد يأخذ برقاب الكثير من المستشرقين، ويترك بصماته الواضحة على مناهجهم في التعامل مع سيرة نبي الرحمة ﷺ، وهذا التصور أخذه السابق عن اللاحق.

وذلك لأنهم ردّدوا ما ورد من افتراءات في دائرة المعارف الإسلامية التي نشرت باللغة الإنكليزية على يد المستشرقين القدامى، ثُم تُرجمت باللغات الأخرى على يد المستشرقين القدامى ومَنْ بعدهم، فتأثروا بتلك الافتراءات التي تعود إلى الترجمات المشوهة للقرآن الكريم والتي عكف عليها المستشرقون والمنصّرون.

ومن الذين شاركوا في وضع دائرة المعارف الإسلامية باللغة الإنكليزية سادة الاستشراق من طراز جولد سيهر وجب (H.AR.gibb) وكريمر وليفي بروفنسال (E.Levy-Provinsal)[١٢].

وكان الكاتب الرئيس لمادة "محمد" هو وليم مونتكمري وات أستاذ الدراسات العربية والإسلامية، بجامعة أدنبره بين عامي ١٩٦٤-١٩٧٩م[١٣].

وقد انطلقت فكرة هذه الموسوعة من المؤتمر التاسع العالمي للمستشرقين باقتراح من رئيس لجنة الدراسات السامية العامة المستشرق روبار تسون سميث[١٤].

---

(١٢) مؤتمرات المستشرقين العالمية ص(٥٧٧-٥٨٢).

(١٣) السيرة النبوية في دائرة المعارف البريطانية ص(١١).

إضافة إلى ما تقدم فإن المؤتمرات الاستشراقية العالمية كان لها الأثر الكبير في تنظير الأفكار، وتنظيم الأحبار، وجمع الأخبار والافتراء على النبي المختارﷺ؛ لخدمة أهدافها الاستعمارية والتبشيرية، ولقد شغل الدين الإسلامي حيزاً هاماً في مؤتمرات المستشرقين العالمية، إذ طُرِقَتْ دراستُه في واحد وعشرين مؤتمراً [١٥]، وبلغت المساهمات الإسلامية (٦٥١) موضوعاً[١٦].

وقبل هذه الترجمات ما كتبه فولتير الفرنسي من رواية مسرحية عن نبي الرحمة ﷺ وما كتبه يولوجيوس في القرن الثالث الهجري إذ صنف السيرة النبوية محرفة[١٧].

ونستنتج مما تقدم أن هذه الإشاعة التي ينقلها بعض المعاصرين هي تكرار جيل عن جيل.

وهذه الأفكار تَفشَّت في أذهان طلاب المدارس والجامعات في أوروبا وأمريكا وأستراليا من خلال المقررات الدراسية، ولم يقف زحفها عند المدارس والجامعات، بل اقتحمت أروقة السياسة، وأثّرت في أرباب القرار في بعض تلك البلدان، فقد خلطوا جميعاً بين الجهاد والعنف والسيف، ونسوا عشرات الألوف من الذين دخلوا في دين الله تعالى أفواجاً من هذه البلدان! هل اعتنقوا الإسلام بالقوة أو بالقناعة التامة؟

---

(١٤) مؤتمرات المستشرقين العالمية ص(٥٧٧).

(١٥) ينظر المصدر السابق ص(٢٣٥).

(١٦) المصدر السابق ص(٢٦٥).

(١٧) مناهج المستشرقين ص (١٣٧).

يقول الأستاذ عباس محمود العقاد: لا يكاد يخلو مقرر دراسي غربي عن الإسلام من تناول موضوع الجهاد، لأن مفاهيم الحرب المقدسة والجهاد؛ بل وربما الإرهاب قد ارتبط ارتباطاً قوياً في الذاكرة الغربية بالإسلام، حتى عَدُّوها جزءاً لا يتجزأ عنه، وفهموا أن شريعة السيف وشريعة الإسلام شيء واحد[١٨]!.

وقد قام بعض العلماء الأفاضل بنقد المقررات الدراسية، ومنها نقد الدكتورعبد اللطيف محمود محمد، فقد قام بتحليل علمي لمضمون كتاب "من أجل معرفة العبادة" وهو مقرر على طلاب الصف العاشر في المدارس الأسترالية ضمن التربية الدينية، وفيه اتهام المسلمين بممارسة العنف في نشر الإسلام من خلال حديثه عن فتح مكة ونصه: وفي سنة ٦٣٠م قام محمد وأتباعه بالهجوم والاستيلاء على مكة[١٩].

وهذا خبر عجيب، فإن فتح مكة المكرمة كان غاية في التسامح والعفو كما قال النبي ﷺ: " اذهبوا فأنتم الطلقاء "[٢٠].

وهكذا الأمر في مقررات الدراسة في أمريكا ففي الصف السادس الابتدائي يدرس كتاب " قصة عالمنا " Our World's Story وفيه أن

---

(١٨) ينظر ما يقال عن الإسلام ص(١٠٩)، نقلاً عن الإسلام في المناهج الغربية المعاصرة ص٣٨١.

(١٩) تحليل مضمون لكتاب (من أجل معرفة العبادة والحب) ص١٣، بحث مقدم لندوة بناء المناهج: الأسس والمنطلقات بكلية التربية- جامعة الملك سعود- الرياض سنة ١٤٢٤هـ.

(٢٠) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (١١١/٩).

انتشار الإسلام في آفاق العالم القديم نتاج للعنف واستخدام السيف، وأن نبي الإسلام قد أجبر الناس على اعتناق الإسلام[٢١].

كما قامت الأستاذة مارلين نصر الباحثة بمركز دراسات الوحدة العربية ببيروت، بتحليل عينات من الكتب الدراسية الفرنسية في المرحلتين الابتدائية والثانوية، لاحظت فيه استشراء النظرة الدونية والعدائية إلى الإسلام والعرب والمسلمين في المقررات الدراسية القديمة التي تزدري أتباع هذا الدين، وتَصِفُهم بالبداوة والسذاجة والميل إلى القسوة والشر.

وقد شارك الدكتور مصطفى الحلوجي مع آخرين في عام ٢٠٠٢م في إقامة ندوة بعنوان: "صورة الإسلام الملطخة في كتب مادة التاريخ بالمدارس الفرنسية"، تمخض عن اعتراف وزارة التعليم الفرنسية بوجود أخطاء في عرض هذه الكتب لتاريخ الإسلام، غير أنها برأت نفسها من المسؤولية قائلة إن حدود عملها ينتهي عند تخطيط المناهج، أما تفاصيل المادة فهي مهمة المؤلفين ودور النشر والمدارس التي تقبل بتدريس تلك الكتب[٢٢].

إنه عذر خطير لا يبرئ ساحة أهل القرار والمسؤولين الكبار.

وهذا الافتراء والتضليل قد اقتحم أروقة الحكومة الأمريكية وأثّر فيها وفي قرارتها، وقد تولّى كبر ذلك بعض المقربين إليها من طراز برنارد

---

(٢١) ينظر الإسلام في المناهج الغربية المعاصرة ص(١٠١).

(٢٢) ينظر المصدر السابق ص(١٥٣و١٥٧).

لويس[٢٣]، مؤلف كتاب "تمرد الإسلام"! ود.دانيال بايبس[٢٤]، مؤلف كتاب "وجهة النظر الغربية إزاء الإسلام والتطرف" وهما من أخطر الخبراء – المقربين من الساسة الأمريكان أرباب القرار – الذين انبروا لإشعال الفتن بين الحكومة الأمريكية والمسلمين، وأكبر دليل على ذلك إنتاجهم العلمي المذكور ضمن ترجمتيهما كما في الحاشية.

وبما أن هذه الشبهة انتشرت على ألسنة المذكورين وغيرهم، فإن الأمر يحتاج إلى اهتمام عظيم وتحكيم حكيم، وقد جعلت الرد من ثلاثة أقسام.

---

(٢٣) حاصل على شهادة الدكتوراه من جامعة لندن عام ١٩٣٩م، والتحق بجامعة برنستون منذ عام ١٩٧٤م، وهو الآن الأستاذ الفخري للدراسات الشرقية في جامعة برنستون، والأستاذ الزائر في جامعة تل أبيب، وأحد المستشارين الكبار في البيت الأبيض في ميدان صياغة سياستها تجاه العالم الإسلامي.

(٢٤) حاصل على شهادة الدكتوراه عام ١٩٧٨م، من جامعة هارفارد في التاريخ، رحل بعدها للدراسة خارج الولايات المتحدة مدة ست سنوات، أمضى منها ثلاث سنوات في القاهرة. وقد مارس مهمة التدريس في جامعات مختلفة منها: جامعة شيكاغو وجامعة هارفارد وجامعة القاهرة وكلية الحرب الأمريكية. وقد تبوأ أكثر من منصب رفيع في مقر الرئاسة الأمريكية، وعمل مديراً لمركز البحوث السياسية الخارجية في المدة من عام ١٩٨٦م ولغاية عام ١٩٩٣م. ويعمل الآن رئيساً لتحرير مجلة منبر الشرق الأوسط Middle East Forum.

القسم الأول : شهادات كبار قومهم من العلماء والساسة والفلاسفة

أولاً: إن هذه المقالة رفضها المسيحيون المعتدلون حتى من الكاثوليك، وقد تبرأ منها جمع غفير من النصارى ومن المذهب الكاثوليكي، إذ أخبرني المستشرق الألماني أ.د شتيفان فيلد - وهو كاثوليكي المذهب - أن الكاثوليك الألمان استاؤوا من هذه الإشاعة..وذكر اعتراضهم على تلك المقالة عن بعض العلماء وطلاب العلم، واستشهد بقول عالم اللاهوت Kung: السلام في العالم مستحيل بدون السلام بين الأديان[٢٥].

وقال الرئيس الأمريكي السابق "بيل كلينتون" في تصريحه للبرنامج الحواري الشهير "لاري كينج لايف" على الشبكة الأمريكية: إن كل شخص منا يدلي بهذه التصريحات يزيد من صعوبة مهمة المعتدلين في العالم الإسلامي.

وكذلك استنكر الرئيس الزيمبابوي وهو كاثوليكي حسب ما أخبرني مفتي زيمبابوي.

وقد سمعت استنكار بعض القسيسين من الكنيسة الشرقية من سوريا ولبنان، وذلك في برنامج استغرق (٥٥) دقيقة في إذاعة BBC يوم الجمعة مساء بتاريخ ٢٩ من شعبان ١٤٢٧هـ الموافق ٢٠٠٦/١١/٢٢م. كما استنكر أيضاً البابا شنودة في مصر.

---

(٢٥) كان هذا اللقاء في المدينة المنورة صباح يوم الخميس (١٤٢٧/١٠/١٨هـ) في فندق الميرديان عندما شارك في ندوة القرآن الكريم في الدراسات الاستشراقية.

ثانياً: إن هذه الإشاعات تخالف قرارات مجمع الفاتيكان الثاني سنة ١٩٦٥م، التي تصحح تلك الأفكار عن طريق أرباب الحوار، الذين اعترفوا بأن القرآن مصدرٌ دينيٌ صحيح؛ بل هو المصدر الأساس في الإسلام، كما اعترفوا أن محمداً سلك طريق الأنبياء، وأوضحوا القضايا الكبرى المتفق عليها بين المسلمين والمسيحيين، فقد صدر عن مجلس البحث في القيم والفلسفة التابع للجامعة الكاثوليكية في واشنطن سنة ٢٠٠٢م كتاب بعنوان: "الحوار المسيحي الإسلامي قراءة في كتاب: التصورات اللاهوتية المسيحية عن المسلمين منذ مجلس الفاتيكان الثاني" (١٩٦٢-١٩٦٤م) تأليف محمود إيدن[٢٦]، وجاء فيه ما يلي:

ويبدو الاهتمام بهذه الحقبة جلياً إذا عرفنا أن هذه المرحلة الزمنية في تاريخ الكنيسة الكاثوليكية هي لحظة البداية لمحاولة الاقتراب من الآخر. فقد أصدر مكتب التعاليم في الكنيسة الكاثوليكية (the magisteriun) وثيقة رسمية تسبل فيها الكنيسة على الأديان الأخرى صفة اعتبارية، فقد صرَّحت (أن هذه الأديان معتبرة وينبغي للكنيسة احترامها، كما ينبغي للمسيحيين التحاور معها).

وفي القرن العشرين قام مفكرون مسيحيون بارزون بالبحث عن تفسير إيجابي أرحب للقاعدة الكاثوليكية: (لا خلاص خارج الكنيسة)

---

(٢٦) Aydin Mahmut. Modern Western Christian Theological Understandings of Muslims Since the Second Vatican Council, Washington, DC: The Council for Research in Values and Philosophy, 2002.

لتطوير رؤية كاثوليكية أكثر إيجابية للأديان الأخرى... وبدوا وكأن لهم تأثيراً غير مباشر في تغيير الرؤية الكنسية للآخر.

من هؤلاء لويس ماسينيون وكارل راهنر، فالأول كان عالماً فرنسياً متخصصاً بالدين الإسلامي والتصوف، أما الثاني فكان متخصصاً بالعقائد الدينية عموماً، وكلاهما قد أسهم برفع الرصيد المعرفي للفهم المسيحي للإسلام، وكلاهما أثّر بوضوح في مجلس تعاليم الكنيسة الرومانية الكاثوليكية.

ويؤلف المجلس الفاتيكاني الثاني (١٩٦٢م) الذي افتتحه البابا جون الثالث والعشرون (John XXIII) رسمياً لحظة تاريخية في علاقة المسيحية بالأديان الأخرى، فالمجلس قد أصدر وثيقتين مهمتين في هذا السياق، الأولى هي: (الإعلان عن علاقة الكنيسة بالأديان غير المسيحية Nostra Aetate) ، والثانية: (الدستور العقدي للكنيسة (Lumen Gentium)... فالوثيقتان مثلاً تعلنان أن المسلمين يؤمنون بخالق السموات والأرض الذي كلّم الإنسان، إنهم يؤمنون معنا بالخالق الرحيم وباليوم الآخر، الذي سيقضي فيه الإله الحي القيوم الرحيم بين بني الإنسان...

وفي المرحلة التالية (١٩٧٣-١٩٨٠م) في عهد الكاردينال بيجنيدولي انتقل المجلس الكاثوليكي من مرحلة الإعداد والدراسة إلى المباشرة والممارسة... وكأن الكنيسة الكاثوليكية خرجت عن صمتها السلبي فيما يتعلق بمحمد عليه السلام، فمثلاً الأب لانجفراي طلب مغفرة المسلمين لما صدر عن المسيحيين من الإساءات الجارحة لشخص محمد ﷺ. يضاف إلى هذه النقطة الإيجابية نبذ الكنيسة للتنصير الإجباري الذي مورس على

المسلمين في الماضي، والدعوة إلى احترام الحرية الدينية لجميع الأفـــراد... وقد أعلن البطريرك تيموثي في بغداد: (إن محمداً سلك طريق الأنبيـــاء، وذلك لأنه تناغم بالتأكيد مع أنموذجهم، إلا أنه لم يتطابق تطابقاً كاملاً معهم في الإله الذي نُبِّئوا عنه)[٢٧].

وقد أشار المفكر الروسي د.أليسكي جورافيسكيس اعتراف المجمـــع المسكوني الكاثوليكي وأضاف قوله: لهذا شُبِّهت المطبوعات الكاثوليكية التغيير الحاصل في موقف الكنيسة تجـــاه الإســـلام بـــــ (الانقـــلاب الكوبرنيكي)[٢٨].

وكذلك نرى رئيس وزراء إسبانيا خوسي لويس سوباطير يـــدعو إلى تحالف الحضارات[٢٩].

ويقول الطبيب الفرنسي موريس بوكاي: ونعيد إلى الأذهان أنه بعد المؤتمر المسكوني الثاني للفاتيكان أجرى البابا بولس الســـادس انفتاحـــاً مدهشاً على سائر الأديان، وكان ذلك في الوقت الذي كانت (أمانـــة

---

(٢٧) نقلاً عن بحث (الحوار المسيحي الإسلامي استناداً إلى تصورات المسيحية عن المسلمين) للباحثة دعاء محمود فينو، والمنشور في مجلة إسلامية المعرفة، العدد (٤٤)، ربيع (١٤٢٧هـــ/٢٠٠٦م ص١٥٣-١٧٦). وما قاله البطريرك حق سوى الجملة الأخيرة فإن الأنبياء متفقون على إله واحد.

(٢٨) الإسلام والمسيحية د.إليسكي جورافيسكي، كتاب رقم (٢١٥) من سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، (نوفمبر١٩٩٦م، ص١١٧).

(٢٩) الأبعاد السياسية للحملات العدائية أ.د.أحمد الريسوني ص(٨)، بحث مقدم لمؤتمر مكة المكرمة السابع لنصرة نبي الأُمَّة ﷺ الذي أقامته رابطة العالم الإسلامي.

الفاتيكان لغير النصارى) قد نشرت فيه (توجيهاته للنصارى والمسلمين) وقالت: (إنه يجب القيام تدريجياً بتغيير وجهة نظر إخواننا النصارى)، و(اعترف الغرب النصراني بما اقترفه من مظالم تجاه المسلمين). ومن هذه المظالم التي يعقبها مظالم أخرى جهلهم بالقواعد الموضحة في القرآن الكريم الذي كان وما زال يطيب لهم منذ قرون اعتباره — في سخرية- كإعادة نشر لكتبهم المقدسة، وكان البابا بولس السادس أول من قام بتنفيذ هذه التوصيات حينما أصرَّ في خطاب موجه للملك فيصل ملك المملكة العربية السعودية —رحمه الله- بأن لديه (إيماناً عميقاً في توحيد العالمين اللَّذين يعبدان إلهاً واحداً).

كذلك نشرت جريدة "ليموند" في عددها الصادر ٢٥إبريل١٩٧٤م، هذه الفقرة الخاصة من الخطاب الذي نقله الكردينال بنييدولي (pignedoli) إلى الملك فيصل - رحمه الله- [٣٠].

ولو نظر أرباب هذه الإشاعة في كتب أهل ملتهم وأهل بلدهم التي سطرت فيها قبسات من حضارة الإسلام لرأوا رحمة هذا النبي ﷺ الذي وضع نواة تلك الحضارة التي كانت مثار إعجاب الشرق والغرب، ومن هؤلاء الكتَّاب:

١- المستشرق الألماني آدم متز في كتابه "الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام" وقد كتب باللغة الألمانية ثم ترجم إلى الإنكليزية ثم العربية.

---

(٣٠) القرآن الكريم والعلم العصري ص(١٨-١٩).

٢- كتاب "فون كريمر" بعنوان (Gulturge schiche des Orients unter den Chalfen).

٣- كتاب "تاريخ الحضارة الإسلامية" لبارتولد.

٤- كتاب "حضارة العرب في الأندلس" للمستشرق ليفي بروفنسال.

٥- كتاب "حضارة العرب" لجوستاف لوبون[٣١].

٦- المستشرق الألماني جريف إيرون(Erwin Graf) ورسالته في الدكتوراه بعنوان: "تطور الفقه الإسلامي"[٣٢].

٧- المستشرق الألماني د.ج كامبفاير (G.Kampffimeyer) رئيس تحرير مجلة "عالم الإسلام"[٣٣].

٨- مراد هوفمان مؤلف "رحلة إلى مكة" مترجم إلى اللغة العربية.

٩- رودي بارت(Rudi Part) وهو ألماني معاصر له كتاب عن النبي محمد ﷺ وله أيضاً: الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية[٣٤].

ومن ردود علماء الغرب والشرق على شبهة العنف وشهادتهم على رحمة النبي ﷺ مايلي:

---

(٣١) نقلاً عن كتاب آدم متز (الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري) ص(١٥).

(٣٢) ينظر موسوعة المستشرقين ص(١١٣).

(٣٣) ينظر المستشرقون (٤١٣/٢).

(٣٤) ينظر الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية ص(١٥).

١- استنكر الدكتور الياباني أوتسوكا Otsuka رئيس معهد طوكيو للدراسات الآسيوية والإفريقية وذكر أن هذا افتراء وجهل بالإسلام ونبي الإسلام محمد ﷺ[٣٥].

٢- ويشير درمنغم إلى هذه المسألة فيقول: من المؤسف حقاً أن غالى بعض هؤلاء المتخصصين من أمثال: موير، ومرغوليوث، ونلدكه، وشبرنجر، ودوزي، وكيتاني، ومارسين، وغريم، وغولدزيهر، وغودفروا وغيرهم في النقد أحياناً، فلم تزل كتبهم عامل هدم على الخصوص، ولا تزال النتائج التي انتهى إليها المستشرقون سلبية ناقصة، ولن تقوم سيرة على نفي، وليس من مقاصد كتابي أن يقوم على سلسلة من المجادلات المتناقضة.. ومن دواعي الأسف أن كان الأب لامانس -الذي هو أفضل المستشرقين المعاصرين- من أشدهم تعصباً، وأنه شوه كتبه القيمة الدقيقة وأفسدها بكرهه للإسلام ونبي الإسلام[٣٦].

٣- وقالت كارين آرمسترونج k.Armstrong : وماتزال آثار الوهم القديم قائمة حتى يومنا هذا، إذ لايزال من الشائع عند أبناء الغرب أن يسلموا دون نقاش بأن محمداً ليس سوى رجل استغل الدين في تحقيق الفتوحات وسيادة العالم، وأن الإسلام دين عنف يعتمد على السيف[٣٧].

---

(٣٥) نشر المقال في الصحيفة المشهورة ماينتشي Mainchi اليابانية بتاريخ (١٦/١٠/٢٠٠٦م ص٩)، وقد أتحفني بترجمته الأستاذ قتيبة بن صالح السامرائي إمام مسجد التوحيد في طوكيو.

(٣٦) المستشرقون والسيرة النبوية، ص(١٣٠-١٣١).

(٣٧) سيرة النبي ﷺ ص ٣٧، نقلا عن كتاب النبي ﷺ ويهود المدينة ص٢٠.

٤- ويرفض المستشرق البريطاني أرنولد الخطأ الآخر الذي يرى أن محمداً قد تحول إلى القوة بمجرد أن واتته الظروف، وهو رأي قد صرح به نقلاً عن فلهاوزن بعض الباحثين ولا سيما ميور لدى حديثه عن غزوة بني قريظة[٣٨].

٥- يقول مونتكمري وات عميد قسم الدراسات الإسلامية بجامعة أدنبرا سابقاً في كتابه "محمد بمكة": منذ محاضرة كارلايل عن محمد في كتابه "الأبطال وعبادة الأبطال" أدرك الغرب أن الاعتقاد في إخلاص محمد تسنده حجة قوية، فاستعداده لأن يتحمل الأذى في سبيل معتقداته، والمستوى الأخلاقي الرفيع الذي اتصف به الرجال الذين آمنوا به واتخذوه إماماً، وعظمة المنجزات التي انتهى إليها... إن الكُتَّاب الغربيين يجنحون في معظم الأحيان إلى تصديق أسوأ ما يقال عن محمد، وحيثما كان التفسير السيئ لعمل من أعماله تفسيراً مقبولاً في الظاهر عدُّوه كذلك في الواقع، ولذلك يجب علينا ألاَّ نكتفي بسُنَّة محمد إلى الأمانة واستقامة الغاية إذا كنا نريد ولو قليلاً من فهمه.

وإذا كنا نريد تصحيح الأخطاء التي ورثناها من الماضي فينبغي أن نستمسك عند كل قضية بالاعتقاد بإخلاصه حتى يتبين لنا العكس بحجة قاطعة، ينبغي أن نتذكر أن الحجة القاطعة مطلب أشدّ من الحجة التي تبدو في الظاهر معقولة، وأنها لا تنال في مثل هذه الأحوال إلا بعسر[٣٩].

---

(٣٨) الدعوة إلى الإسلام لأرنولد ص (٥٤).

(٣٩) محمد في مكة ص(٥٢).

وقال أيضاً: وإن كانت بعض أراء العلماء الغربيين غير معقولة عند المسلمين، فذلك لأن العلماء الغربيين لم يكونوا دائما مخلصين لمبادئهم العلمية وأن آراءَ هم يجب إعادة النظر فيها من وجهة النظر التاريخية الدقيقة[٤٠].

٦- ويقول المؤرخ الفرنسي كوستاف لوبون: والإسلام من أكثر الديانات ملاءمة لمناخ العالم واكتشافاته، ومن أعظمها تهذيباً للنفوس ودعوة إلى العدل والإحسان والتسامح. وتأثير دين محمد [ﷺ] في النفوس أعظم تأثيراً من أي دين آخر، ولقد دخلت دولة العرب في التاريخ، ولكن الدين الذي كان سبباً في قيامها لا يزال ينتشر، والسهولة التي انتشرت بها شريعة الإسلام في العالم شاملة للنظر.. وقد بلغ عدد أتباع النبي الملايين الكثيرة في البلاد التي دخلها تجار العرب بقصد التجارة لا بقصد الفتح، كبعض أجزاء الصين وأفريقيا وآسيا الوسطى وروسيا، وقد اعتنقت هذه الملايين الإسلام طوعاً لا كرهاً، ولم نسمع أنه أرسل جيشاً من أولئك التجار المبشرين لمساعدتهم.

وتحدث المؤرخ الفرنسي كوستاف لوبون – عن عدل الفتح الإسلامي، فقال: إن العرب وهم أعقل من الكثيرين من أقطاب السياسة في الزمن الحديث، كانوا يعلمون جيداً أن النظم الواحدة لا تلائم شعوب الأرض قاطبة، وكان من سياستهم أن يتركوا الأُمم حُرَّة في المحافظة على قوانينها وعاداتها ومعتقداتها[٤١].

---

(٤٠) المصدر السابق ص(٦).

(٤١) حضارة العرب لكوستاف لوبون ص(١٢٥-١٢٩).

٧- يقول المستشرق البريطاني سير توماس أرنولد عن الإسلام:

إنه الدين الذي يسمو فيه نشر الحق وهداية الكفار إلى واجب مقدس على يد مؤسس الدين أو خلفائه من بعده... إنها روح الحق في قلوب المؤمنين التي تستقر حتى تتجلى في التفكر والقول والعمل، ولا تقنع حتى تؤدي رسالتها إلى كل نفس إنسانية، وتعترف أفراد الجماعة الإنسانية بما تعتقد أنه الحق.

وإن الذي دفع المسلمين إلى أن يحملوا رسالة الإسلام معهم إلى شعوب البلاد التي دخلوها وجعلهم ينشدون لدينهم بحق مكاناً بين الأديان، لهي سماحة من ذلك النوع، من أجل صدق عقيدتهم[٤٢].

٨- يقول الدكتور الياباني أوتشي ياما Uchiyama أستاذ قسم دراسة المناطق الإسلامية في جامعة طوكيو ما خلاصته: يجب على حرية التعبير والنقد أن لا تمسّ أو تعتدي على المعتقدات الدينية والإيمانية للآخرين، ومن واجب الجميع الفصل بين الإرهاب وحقيقة الإسلام. إن تمثيل محمد نبي الإسلام على أنه زعيم إرهابي من خلال رسوم كاريكاتورية لهو تجاوز كبير بكل المقاييس. إن هناك الكثير من الدول الإسلامية التي يستحيل فيها فصل الدين عن السياسة أو التعليم. إن على الدول الغربية التي باشرت في فصل الدين عن السياسة منذ بدايات القرن التاسع عشر

(٤٢) الدعوة إلى الإسلام، ص (١٧).

والتي تتغنى بشعارات (التعايش مع الثقافات الأخرى) أن تراجع نفسها وتندم على أعمالها هذه[٤٣]...

٩- يقول الأستاذ الفرنسي مكسيم رودنسن: بظهور عدد من المؤرخين الأوروبيين المستنيرين في القرن الثامن عشر بدأت تتكامل معالم صورة هي صورة محمد [ﷺ] الحاكم المتسامح والحكيم والمشرع[٤٤].

وأستطيع أن أقول بكل قوة أنه لا يوجد مسلم جديد واحد لا يحمل في نفسه العرفان بالجميل لسيدنا محمد [ﷺ]، لما غمره به من حب وعون وهداية وإلهام فهو القدوة الطيبة التي أرسلها الله رحمة لنا وحباً بنا حتى نقتفي أثره[٤٥].

١٠- يقول المستشرق الأمريكي واشنجتون إيرفنج: كانت تصرفات الرسول [ﷺ] في أعقاب فتح مكة تدل على أنه نبي مرسل لا على أنه قائد مظفر، فقد أبدى رحمة وشفقة على مواطنيه برغم أنه أصبح في مركز قوي، ولكنه توج نجاحه وانتصاره بالرحمة والعفو[٤٦].

١١- تقول المستشرقة الإيطالية لورافيشيا فاغليري: كان محمد [ﷺ] المتمسك دائماً بالمبادئ الإلهية، شديد التسامح، وبخاصة نحو أتباع الأديان الموحدة. لقد عرف كيف يتذرع بالصبر مع الوثنيين، مصطنعاً الأناة

---

(٤٣) نُشر المقال في جريدة ماينتشي Mainchi اليابانية بتاريخ (٢٠٠٦/٢/٤م ص٩)، وترجمه الأستاذ قتيبة بن صالح السامرائي، إمام مسجد التوحيد في طوكيو.

(٤٤) تراث الإسلام (تصنيف شاخت وبوزث) (١/٦٧-٦٨).

(٤٥) رجال ونساء أسلموا (٤/٢٧-٢٨).

(٤٦) حياة محمد، ص(٢٣٣).

دائماً اعتقاداً منه بأن الزمن سوف يتم عمله الهادف إلى هدايتهم وإخراجهم من الظلام إلى النور[٤٧].

١٢- يقول اللورد هيدلي: محمد المثل الكامل، إننا في احتياج إلى نموذج كامل يفي بحاجاتنا في خطوات الحياة، حياة محمد كمرآة أمامنا تعكس علينا التعقل الراقي والسخاء والكرم والشجاعة والإقدام والصبر والحلم والوداعة والعفو، وباقي الأخلاق الجوهرية التي تكون الإنسانية[٤٨].

١٣- قد ردَّ المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي على افتراء جويليان الوارد برقم (٣) بقوله: لم يكن الاختيار بين الإسلام أو القتل، ولكن بين الإسلام والحرية، وتلك سياسة مستنيرة أجمعت الآراء على امتداحها[٤٩].

١٤- قال مهاتما غاندي : أردت أن أعرف صفات الرجل الذي يملك بدون نزاع قلوب ملايين البشر.. لقد أصبحت مقتنعاً كل الاقتناع أن السيف لم يكن الوسيلة التي من خلالها اكتسب الإسلام مكانته؛ بل كان ذلك من خلال بساطة الرسول مع دقته وصدقه في الوعود، وتفانيه وإخلاصه لأصدقائه وأتباعه، وشجاعته مع ثقته المطلقة في ربه وفي

---

(٤٧) دفاع عن الإسلام، ص(٧٣).

(٤٨) أوروبا والإسلام ص(٥٣).

(٤٩) مختصر دراسة التاريخ (٢/٣٥٥)، نقلاً عن قالوا عن الإسلام ص(٢٧٨).

رسالته، هذه الصفات هي التي مهدت الطريق، وتخطت المصاعب وليس السيف [٥٠].

١٥- قال إدوارد مونته : عرف محمد بخلوص النية والملاطفة وإنصافه في الحكم، ونزاهة التعبير عن الفكر والتحقق، وبالجملة كان محمد أزكى وأدين وأرحم عرب عصره، وأشدهم حفاظاً على الزمام فقد وجههم إلى حياة لم يحلموا بها من قبل، وأسس لهم دولة زمنية ودينية لاتزال إلى اليوم [٥١].

إن هذه الشهادات العلمية والاعترافات الصريحة لم تأت جزافاً وإنما اعتمدت على الأحاديث النبوية الشريفة الصحيحة والسيرة النبوية المطهرة الحافلة بالتسامح والرفق، تناقلها أهل الأديان والملل عن آبائهم وأجدادهم من كتبهم وأخبارهم، ومن تلك الأحاديث المجيدة والأخلاق العالية الحميدة مايأتي في القسم الثاني.

---

(٥٠) ينظر : مهاتما غاندي في حديث لجريدة " ينج إنديا " وتكلم فيه عن صفات سيدنا محمد ﷺ، موقع /k ٢٩، www.unem net/Arabic/index.php ٢٠٠٧/٣/٣٠م نقلا عن كتاب نصرة الله نبيه محمد ﷺ في القرآن الكريم ص ٣٢٥.

(٥١) ينظر موقع www.sohbanet.com ٤/ ٥-٢-٢٠٠٩ م الساعة : ٠٦:٤٠ – k١١١ –: إسلاميات.

القسم الثاني : الأحاديث النبوية الشريفة الصحيحة

ماذكره المستشرقون من أن النبي ﷺ ظلم اليهود، وقسا عليهم بخروجهم من المدينة بسبب قتل رجل من المسلمين – على زعمهم –.

والحق أن سبب إخراجهم ليس قتل رجل من المسلمين؛ بل السبب في ذلك هو مؤامراتهم لقتل نبي الرحمة ﷺ، ونقض عهودهم، فتارة يعقدون حلفاً مع الأحزاب، وتارة يتآمرون مع المنافقين لقتل النبي ﷺ كما في قصة مسجد الضرار، وكما في قصة الشاة المسمومة(٥٢)، ومع هذا فإن النبي ﷺ لم يبادر بإخراجهم حتى أمره الله تعالى، وذلك حينما انتهى من معركة الخندق جاءه جبريل فقال له: "أقد وضعت السلاح؟ والله ما وضعت الملائكة بعدُ السلاح، اخرُجْ إلى بني قريظة، فقاتلهم"(٥٣).

إذن ما فعله النبي ﷺ هو طاعة لله عز وجل، وطاعة الله تعالى واجبة في كل الأديان، ويثني الله تعالى على المطيعين، وكذلك عند أهل الأديان فإن المطيع عندهم له قدره ومقامه.

أما الرد من الأحاديث الشريفة الصحيحة في معاملة النبي ﷺ للآخر بأخلاقه السمحة، فقدكانت في غاية السلامة وقمة الحكمة في الرفق والإحسان، ومن ذلك التعامل ما يأتي:

---

(٥٢) تقدم ذكرها في الباب الأول: مبحث عفوه ﷺ.

(٥٣) أخرجه الإمام أحمد من حديث عائشة رضي الله عنها، وصححه محققوه بالشواهد (المسند٤٢/٢٨-٢٩، ح ٢٥٠٩٧)، وقد سردوا شواهده، وتقدم تتمة الحديث في العهد المدني.

أولاً: النهي عن تمني لقاء العدو وعن الإضرار وعن العنف

لقد كان نبي الرحمة ﷺ حريصاً على السلام مرغباً فيه، محذّراً من الحرب ناهياً عنها، فقد صحّ عنه ﷺ أنه قال: "لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف، ثم قال ﷺ: اللّهمَّ منزل الكتاب، ومجري السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم"(٥٤).

قال المناوي: ولأنهم قد ينصرون استدراجاً؛ لأن لقاء العدو أشد الأشياء على النفس، والأمور الغائبة ليست كالمحققة، فلا يؤمن أن يكون عند الوقوع خلاف المطلوب، وتمنّي الشهادة لا تستلزم تمني اللقاء، وأُخذ منه النهي عن طلب المبارزة، ومن ثم قال علي ﷺ لابنه: لا تدع أحداً إلى المبارزة، ومن دعاك لها أخرج إليه لأنه باغ، وقد ضمن الله نصر من بُغي عليه، ولطلب المبارزة شروط مبينة في الفروع إذا اجتمعت أمن معها المحذور في لقاء العدو، "وإذا لقيتموهم" أي العدو، ويستوي فيهم الواحد والجمع، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي﴾ [الشعراء/٧٧] فاصبروا: اثبتوا ولا تظهروا التألم إن مسكم قرح، فالصبر في القتال: كظم ما يؤلم من غير إظهار شكوى ولا جزع، وهو الصبر الجميل: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال/٤٦]، قال الحرالي: فيه إشعار لهذه الأُمة بأن لا تطلب الحرب ابتداءً، وإنما تدافع من منعها من إقامة دينها، كما قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ

---

(٥٤) صحيح البخاري-كتاب الجهاد والسير- باب كان النبي ﷺ إذا لم يقاتل أول النهار أخّر القتال ٦/١٢٠رقم الحديث٢٩٦٦.

ظُلِمُوا﴾ [الحج/٣٩]، فحق المؤمن أن يأتي الحرب ولا يطلبه، فإنه إن طلبه فأُوتيه عجز كما عجز من طلبه من الأُمم السابقة[٥٥].

وهذا النهي قد رتله النبي ﷺ كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر/٧][٥٦]، وهذا يدل على اهتمامه بالسلام وتجنب الحروب، وقد كان الصحابة ﷺ يستجيبون له، فكانوا دعاة سلام؛ لأنهم كانوا يدركون ويلات الحروب وما فيها من الأضرار، ولهذا كان يؤكد ذلك في النهي عن الإضرار بالآخرين، كما ثبت عنه ﷺ: "لا ضرر ولا ضرار"[٥٧]: هذه القاعدة النبوية من أهم القواعد في السلم والحرب.

وكذلك فقد اعتنى بالأمر بالرفق والنهي عن العنف فكان ﷺ يحث ويحض على الرفق في كل شيء، ولقد جاء التأكيد على أهمية التسامح بين أفراد المجتمع من تحذيره ﷺ من العنف، حتى في الرد على الاعتداء بالأقوال، فما بالك بالأفعال، فقد روى البخاري بسنده الصحيح عن

---

(٥٥) فيض القدير (٦/٣٨٨-٣٨٩).

(٥٦) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾، (٤/١٨٥٣).

(٥٧) حديث ثابت أخرجه الإمام أحمد في المسند (٣٧/٤٣٧) ح (٢٢٧٧٨)، وأخرجه ابن ماجة في سننه - كتاب الأحكام - باب من بنى في حقه ما يضر بجاره (٢/٧٨٤) ح (٢٣٤٠)، وحسنه الحافظ ابن رجب (الأرناؤوط في تحقيقه لكتاب جامع العلوم والحكم (٢/٢٠٧)، وقال العلائي: للحديث شواهد ينتهي مجموعها إلى درجة الصحة أو الحسن المحتمع به، وحسنّه السيوطي. انظر فيض القدير شرح الجامع الصغير (٦/٤٣١-٤٣٢)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة ح (١٨٩٥).

عائشة رضي الله عنها أن يهوداً أتوا النبي ﷺ فقالوا: السام عليكم، فقالت عائشة: وعليكم، ولعنكم الله وغضب الله عليكم. قال: "مهلاً يا عائشة، عليكِ بالرفق، وإياك والعنف والفحش" قالت: أو لم تسمع ما قالوا؟ قال: "أو لم تسمعي ما قلتُ؟ رددتُ عليهم، فيُستجاب لي فيهم، ولا يُستجاب لهم فيَّ"[٥٨].

وأكد على ذلك بأسلوب آخر حينما رغّب وحضّ وحثّ على الرفق في الأمور كلها، فقد ثبت عنه أنه ﷺ قال: "إن الله يحب الرفق في الأمر كله"[٥٩].

وقد بوَّب البخاري بهذا الحديث أيضاً، قال الحافظ ابن حجر: الرِفْق بكسر الراء وسكون الفاء بعدها قاف: هو لين الجانب بالقول والفعل، والأخذ بالأسهل، وهو ضد العنف، وذكر فيه حديثين: أحدهما حديث عائشة في قصة اليهود لما قالوا السام عليكم.

وقوله: " إن الله يحب الرفق في الأمر كله " وفي حديث عمرة عن عائشة عند مسلم: " إن الله يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف "[٦٠]، والمعنى أنه يتأتى معه من الأمور ما لا يتأتى مع ضده، وقيل: المراد يثيب عليه ما لا يثيب على غيره، والأول أوجه. وله في

---

(٥٨) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب لم يكن النبي ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً، ح(٦٠٣٠).

(٥٩) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب الرفق في الأمر كله ح (٣٠٢٤).

(٦٠) صحيح مسلم (٤/٢٠٠٣)، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق، ح (٢٥٩٣).

حديث شريح بن هانىء: "أن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه "[٦١]، وفي حديث أبي الدرداء: " من أعطي حظه من الرفق أعطي حظه من الخير" الحديث[٦٢]، وفي حديث جرير عند مسلم "من يحرم الرفق يحرم الخير كله"[٦٣]، [٦٤].

ومن منهاجه ﷺ في اجتناب العنف حسن كلامه ولطف عباراته؛ لأنه هو القدوة المثلى في اختيار القول الحسن، والكلام الطيب، كما أمر الله تعالى في قوله: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ [الإسراء/٥٣]، وهذه الأقوال والحكم التي تنشد السلام ترجمها ﷺ إلى أفعال حققت السلام، كما سيأتي في الحديث عن الصلح ورسائله ورسله وحواره.

وهذا المنهاج النبوي قد ترك آثاراً حميدة في أخلاقيات الأُمة الإسلامية التي تنبذ العنف، وتنشد السلام كما نراه في شتى العصور.

وأختم هذا الموضوع بقول الأستاذ الفرنسي جاك س.ريسلر:

---

(٦١) المصدر السابق، ح (٢٥٩٤).

(٦٢) قال أبو عيسى: حديث حسن صحيح، سنن الترمذي (٣٦٧/٤)، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الرفق، ح (٢٠١٣).

(٦٣) صحيح مسلم (٢٠٠٣/٤)، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق، ح (٢٥٩٢).

(٦٤) فتح الباري (١٠ / ٤٤٩).

إذا ما عرفنا أن هذا العمل العظيم أدرك وحقق في أقصر أجلٍ، أعظم أمل لحياة الإنسانية؛ فإنه يجب أن نعترف أن محمداً [ﷺ] يظل في عداد أعظم الرجال الذين شرف بهم تاريخ الشعوب والأديان(٦٥).

ثانياً: تعامله ﷺ في تقديم الحوار من أجل الصلح

إن النبي ﷺ كان يستخدم شتى الأساليب من أجل الحوار ثم الصلح؛ لأن من أهم أسباب النجاح والفلاح في معالجة الخلاف هو السماع من الطرف الآخر وفهم مراده وأهدافه، وذلك بالحوار الذي يرضي الله تعالى القائل: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل/١٢٥]، أي بأفضل الأساليب، وبالكلمة الطيبة التي استخدمها مع المشركين وأهل الكتاب وغيرهم مباشرة، أو بإرسال الرسل والرسائل كما يلي:

١- حواره ﷺ مع المشركين في صلح الحديبية

من أهم المعاهدات مع المشركين هو: صلح الحديبية الذي تعجب منه بعض الصحابة ﷺ؛ لأنهم لم يدركوا — في بداية الأمر- الحكمة النبوية من هذا الصلح الذي تبين فيما بعد آثاره وفوائده.

فقد أخرج مسلم بسنده عن البراء بن عازب ﷺ يقول: كتب علي ابن أبي طالب ﷺ الصلح بين النبي ﷺ وبين المشركين يوم الحديبية فكتب: هذا ما كاتب عليه محمد رسول الله، فقالوا: لا تكتب رسول الله فلو نعلم أنك رسول الله لم نقاتلك، فقال النبي ﷺ لعلي: "امحه"، فقال: ما أنا بالذي أمحوه، فمحاه النبي ﷺ بيده، قال: وكان فيما اشترطوا أن

(٦٥) الحضارة العربية ص٣٧.

يدخلوا مكة فيقيموا بها ثلاثاً، ولا يدخلها بسلاح إلا جلبان السلاح، قلت لأبي إسحاق: وما جلبان السلاح؟ قال: القراب وما فيه[٦٦].

قال النووي: وفيه أن للإمام أن يعقد الصلح على ما رآه مصلحة للمسلمين، وإن كان لا يظهر ذلك لبعض الناس في بادئ الرأي[٦٧].

وفي هذا الحديث بيان وجوب الصبر على المشركين، وتحقيق رغباتهم التي لا تضر بالمصلحة العامة للمسلمين، وفيه البيان الفعلي لطريقة الكتابة للمعاهدات، وجواز مثل هذه الكتابة من أجل الصلح وتجنب الحروب.

وصلح الحديبية هو الصلح الذي عقده رسول الله ﷺ مع كفار قريش[٦٨]، الذي سماه الله تعالى: الفتح المبين، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ [الفتح/١]، وفي مرجعه ﷺ أنزل الله تعالى سورة الفتح:﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۞ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح/١-٢]، فقال عمر: أو فتح هو يا رسول الله؟ قال: "نعم". قال الصحابة: هذا لك يارسول الله، فما لنا؟ فأنزل الله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۞ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ

---

(٦٦) صحيح مسلم - كتاب الجهاد والسير - باب صلح الحديبية، (١٤٠٩/٣) ح (١٧٨٣).

(٦٧) شرح النووي على صحيح مسلم (١٣٥/١٢).

(٦٨) ينظر تلقيح فهوم أهل الأثر ص(٤٥)، والبداية والنهاية (١٥٠/٤-١٦٤).

عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح/٤-٥]، وعدة الصحابة إذ ذاك ألف وأربعمائة، وهم أهل الشجرة وأهل بيعة الرضوان (٦٩).

وهذه الخطوة المباركة حوَّلت الشقاق إلى اتفاق، وحفظت دماء الطرفين، وأدرك اليهود قوة المؤمنين؛ بأنهم قادرون على إدارة الوضع في المدينة، وكذلك عرف بقية المشركين أن المؤمنين أرباب شوكة، هابها مشركو مكة المكرمة، وكذلك تشجعت بعض القبائل للتحالف مع الدولة المسلمة الجديدة، وسطع وميض الاعتراف بهذه الدولة، مما أدى نسبياً إلى إزالة خطر بعض المتحالفين مع مشركي قريش، فقد عرفوا أن تلك المعاهدات مع قريش لم تنفعهم مع التطور الجديد في ظهور قوة المسلمين.

ومن النتائج الباهرة لصلح الحديبية ما يلي:

أ- كسب الاعتراف من قريش بقوة المسلمين.

ب- اكتسب المسلمون حرية الدعوة في الجزيرة العربية.

ج- أعطت الناس خياراً سليماً بعيداً عن الحرب وويلاتها.

د- التربية على طاعة الإمام في أمره حتى ولو لم تظهر مصلحته عاجلاً.

٢- حواره ﷺ مع أهل الكتاب

من الأخلاق العظيمة للنبي ﷺ أنه لم يتسرع في عقوبة المجرم حتى يسمع منه سبب عملية إجرامه، وذلك بالحوار الهادئ الهادف، على

(٦٩) ينظر مختصر سيرة الرسول ﷺ، ص (١٢٧-١٣٢).

الرغم من خطورة الجريمة؛ فإن بعض الجرائم كادت أن تقتل النبي ﷺ، فقد ثبت عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما فتحت خيبر أهديت للنبي ﷺ شاة فيها سم، فقال النبي ﷺ: "اجمعوا إلي من كان هاهنا من يهود". فجمعوا له فقال: "إني سائلكم عن شيء فهل أنتم صادقي عنه؟" فقالوا: نعم. قال لهم النبي ﷺ: "من أبوكم؟" قالوا: فلان. فقال: "كذبتم بل أبوكم فلان". قالوا: صدقت. قال: "فهل أنتم صادقي عن شيء إن سألت عنه؟" فقالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبنا عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا. فقال لهم: من أهل النار؟ قالوا: نكون فيها يسيراً ثم تخلفونا فيها. فقال النبي ﷺ: "اخسؤوا فيها، والله لا نخلفكم فيها أبداً". ثم قال: "هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه؟" فقالوا: نعم يا أبا القاسم. قال: "هل جعلتم في هذه الشاة سُمّاً؟" قالوا: نعم. قال: "ما حملكم على ذلك؟" قالوا: أردنا إن كنت كاذباً نستريح، وإن كنت نبياً لم يضرك[٧٠].

إنه حوار عجيب تتجلى من خلاله عظمة خلق النبي ﷺ في العفو عند المقدرة، ويتبيّن صبره على مكائد اليهود.

ومن حواره مع النصارى حينما جاء العاقب والسيد صاحبا نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه، قال: فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل، فو الله لئن كان نبياً فلاعننا لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا. قالا: إنا نعطيك ما سألتنا، وابعث معنا رجلاً أميناً، ولا تبعث معنا إلا أميناً. فقال: لأبعثن معكم رجلاً أميناً حق أمين، فاستشرف له أصحاب رسول

---

(٧٠) صحيح البخاري ، كتاب الجهاد، باب إذا غدر المشركون بالمسلمين هل يعفى عنهم، (١١٥٦/٣)، ح(٢٩٩٨).

الله ﷺ، فقال: قم يا أبا عبيدة بن الجراح، فلما قام قال رسول الله ﷺ : "هذا أمين هذه الأُمة"[٧١].

قال ابن حجر: وفي قصة أهل نجران من الفوائد جواز مجادلة أهل الكتاب، وقد تجب إذا تعينت مصلحته، وفيها مشروعية مباهلة المخالف إذا أصر بعد ظهور الحجة... وفيها مصالحة أهل الذمة على ما يراه الإمام من أصناف المال.. وفيها بعث الإمام الرجل العالم الأمين إلى أهل الهدنة في مصلحة الإسلام[٧٢].

هكذا كان يُدار الحوار الهادي الهادف لتجنب الصدام ونشر السلام، ولقد ترك هذا الخلق العظيم آثاراً عظيمة، وأخلاقاً كريمة في نفوس المسلمين، إذ لا يزالون يعقدون الحوار مع اليهود والنصارى منذ موته ﷺ إلى زماننا هذا من أجل نشر السلام والإسلام وتجنب القتال، وما فيه من الوبال والنكال.

٣- إرسال الرسل والرسائل

من الأخلاق العظيمة التي كان النبي ﷺ يتحلى بها اهتمامه بهداية الناس أجمعين، من أجل ذلك كتب إلى كسرى وإلى قيصر وإلى النجاشي وإلى ملوك الكفار يدعوهم إلى الله تعالى[٧٣]، ومن هذه الكتب: كتابه ﷺ إلى هرقل، فقد صحَّ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: حدثني أبو

---

(٧١) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب قصة أهل نجران، (١٥٩٢/٤).

(٧٢) فتح الباري (٩٥/٨).

(٧٣) صحيح البخاري - كتاب الجهاد- باب كتاب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر (١٦١٠/٤).

سفيان ﷺ من فيه إلى في[٧٤] قال: انطلقت في المدّة التي كانت بيني وبين رسول الله ﷺ، قال: فبينا أنا بالشام إذ جيء بكتاب من النبي ﷺ إلى هرقل... فإذا فيه: "بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلَم، وأسلمْ يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين[٧٥]، ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران/٦٤][٧٦].

وهذه الرسالة تقطر أدباً وبلاغة وموعظة ونصيحة، لقد أدرك نبي الرحمة أن في الروم من يوحِّد الله تعالى، لكنهم كانوا مضطهدين، من أجل ذلك ذكَّر هرقل بذلك واعظاً له رغبة بالسلم، وحذره من الظلم، إذ بيَّن لهرقل أنه إذا رفض السلم فإنه سيتحمَّل وزر الموحدين المضطهدين.

---

(٧٤) هذه صيغة من صيغ التحديث، ومعناها سمعت من فم أبي سفيان، وأديته كما سمعته منه.

(٧٥) نسبة إلى آريوس أحد كبار النصارى الموحدين لله تعالى (لمعرفة آريوس ينظر محاضرات في النصرانية ص١٥١) للشيخ محمد أبو زهرة.

(٧٦) صحيح البخاري، كتاب التفسير، آل عمران، باب قوله: ﴿تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ﴾ ح(٤٥٥٣).

ثالثاً: تعامله ﷺ في الهدنة والأمان

بما أن دين الإسلام ينشد السلام كما أمر الله تعالى رسوله ﷺ: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنفال/٦١]، فقد استجاب رسول الله ﷺ لهذا الأمر قولاً وعملاً ومنهاجاً.

قال العلامة بدر الدين بن جماعة: والهدنة: مشتقة من الهدون، وهو السكون، لأن الهدنة تسكن ثائرة الحرب والفتن.

ويجوز للإمام ونائبه عقد الهدنة لإقليم معين أو ناحية معينة إذا اقتضت مصلحة المسلمين ذلك، إما لإراحة جيش الإسلام، أو لترتيب أمورهم، أو لزيادة استعدادهم، ولتوقع إسلام الكفار أو قبولهم الجزية بغير قتال(٧٧).

ومن نماذج الهدنة والأمان:

١- إعلان المدينة:

ومن أهم الكتب التي حبرها النبي ﷺ للهدنة مع اليهود إعلان المدينة، فقد وضع فيه الأسس المثالية للتعامل مع الآخر، واستطاع أن يقضي على مشكلة التخوف والتحسس من الآخر، بالعدل وإعطاء كل ذي حق حقه، كما في تعامله مع اليهود في المدينة، فقد وضع معاهدة سياسية اجتماعية عامة للمدينة، وفيها اتفاقيات مع اليهود ضمنت مصالح الطرفين. لقد سطر رسول الله ﷺ وثائق سياسية داخلية تسمى (إعلان

(٧٧) تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام، ص٢٣١-٢٣٢.

المدينة) وفيها التعامل الحكيم الذي ضمن حقوق كل فئة تسكن المدينة ومنهم اليهود.

إن وضع معاهدة لكل سكان المدينة بمختلف مللهم تضمن حقوق الجميع، وتمنع الاعتداء بين هذه الملل؛ بل وتمنع الظلم فيما بين الملة الواحدة، فقد فصلت حقوقهم تفصيلاً كما يلي:

- هذا كتاب من محمد النبي (رسول الله) بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم.
- إنهم أُمَّة واحدة من دون الناس.
- وإنه من اتبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم[٧٨].

٢- الوفاء بالعهد

إن عظمة أخلاق النبي ﷺ تجلت في قضايا كثيرة، منها: الوفاء بالعهد مهما كان الموقف محرجاً، ومثال ذلك: لما تم الاتفاق في صلح الحديبية على عدة قضايا، ومنها شرط المشركين: "وعلى أنه لا يأتيك منَّا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا".

ثم رجع النبي ﷺ إلى المدينة فجاءه أبو بصير رجل من قريش وهو مسلم، فأرسلوا في طلبه رجلين، فقالوا: العهد الذي جعلت لنا فدفعه إلى الرجلين، فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيداً،

(٧٨) ينظر الأموال لابن زنجويه ٤٧٢/٢وأحكام أهل الذمة ٥٦٦/٢.

فاستلَّه الآخر، فقال: أجل والله إنه لجيد، لقد جربت به ثم جربت، فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه، فأمكنه منه فضربه حتى برد، وفرَّ الآخر حتى أتى المدينة، فدخل المسجد يعدو فقال رسول الله ﷺ حين رآه: "لقد رأى هذا ذعراً". فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال: قتل والله صاحبي، وإني لمقتول. فجاء أبو بصير فقال: يا نبي الله قد والله أوفى الله ذمتك، قد رددتني إليهم ثم أنجاني الله منهم. قال النبي ﷺ: ويل أُمه مسعر حرب لو كان له أحد. فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر قال: وينفلت منهم أبو جندل بن سهيل، فلحق بأبي بصير فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة، فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها فقتلوهم وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده بالله والرحم لما أرسل فمن أتاه فهو آمن. فأرسل النبي ﷺ إليهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ حتى بلغ: ﴿ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [الفتح/٢٤-٢٦]، وكانت حميتهم أنهم لم يقروا أنه نبي الله، ولم يقروا ببسم الله الرحمن الرحيم، وحالوا بينهم وبين البيت.

قال أبو عبد الله: ﴿مَّعَرَّةٌۢ﴾ المعرة: الجرب، ﴿تَزَيَّلُوا۟﴾ تميزوا، حميت القوم: منعتهم حماية، وأحميت الحمى جعلته حمى لا يدخل[٧٩].

ويستفاد من هذه الرواية أن النبي ﷺ وفّى بهذا العهد، وردّ إليهم أبا بصير ﷺ، وردَّ إليهم أبا جندل ﷺ، بل ردَّ كلَّ من كانت حالته كهذه، حيث تكونت منهم فئة مجاهدة صابرة على تلك المحنة كما في الرواية

(٧٩) صحيح البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد.. ح(٢٥٨١).

السابقة، وقد بشرهم بالفرج في قوله ﷺ: "ومن جاءنا منهم سيجعل الله له فرجاً ومخرجاً"(٨٠).

وقد جعل الله تعالى لهم فرجاً ومخرجاً، ونصرهم على عدوهم.

إنه الوفاء بالعهد، مع أن هذا الأمر شديد على النفوس، وعلى نفوس الصحابة جميعاً ﷺ، ولكن أمر الله تعالى فوق ذلك إذ يقول سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المائدة/١]، وقد حثَّ وحض على الوفاء بالعهد، وهكذا كان خلق النبي ﷺ.

إن هذا الخلق العظيم بهر القاصي والداني، قال الأستاذ (هاك) في كتابه مساهمة الإسلام في السلام العالمي، الذي نشره باللغة الانكليزية في لاهور عام١٩٣٢: إن الأمم تبذل الكثير من الجهود، وتعقد المؤتمرات لمنع التسليح، ومنع الحرب، أو للتقليل من فرص إعلانها، ولكن جهودها باءت بالفشل، ذلك لأن الدول إذ تتعهد، لا تقيد نفسها بالمعاهدة إلا حين تنعدم عندها الوسيلة لنقضها، حتى إذا ما توفرت عندها القوة الكافية لذلك، أعلنت أن المعاهدة التي أبرمتها وارتبطت ببنودها حبر على ورق، ويقدم لنا التاريخ كثيراً من الأمثلة على ذلك، ولو طبقت أحكام الإسلام فيما يتعلق بالحروب والجهاد تطبيقاً كاملاً، لوجد العالم فيها جنته التي يبحث عنها بدلاً من الجحيم الذي هو مسوق إليه، ليطيع كل منا دعوة الله تعالى التي يقول فيها: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾[البقرة/٦٠](٨١).

---

(٨٠) صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية ح(١٧٨٤).

(٨١) ينظر: الرسول القائد ص٥٩.

فالوفاء بالعهد من الشيم التي علمها النبي ﷺ الصحابة ﷺ ورغب فيها وحذر من خرقها بأذى أهل الذمة وظلمهم.

أخرج أبو داود بسنده عن سليم بن عامر -رجل من حمير- قال: كان بين معاوية وبين الروم عهد، وكان يسير نحو بلادهم، حتى إذا انقضى العهد غزاهم، فجاء رجل على فرس أو برذون وهو يقول: الله أكبر، الله أكبر، وفاء لا غدر، فنظروا فإذا عمرو بن عبسة، فأرسل إليه معاوية، فسأله، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "من كان بينه وبين قوم عهد لا يَشُدُّ عقدة ولا يحلها حتى ينقضي أمدها، أو ينبذ إليهم على سواء" فرجع معاوية(٨٢).

قال العظيم آبادي: وفاء لا غدر: أي الواجب عليك وفاء لا غدر... وأما إن نقض أهل الهدنة بأن ظهرت منهم خيانة فله أن يسير إليهم على غفلة منهم، "لا يشد عقدة ولا يحلها" بضم الحاء من الحل، بمعنى: نقض العهد، والشد ضده، والظاهر أن المجموع كناية عن حفظ العهد وعدم التعرض له... وقال ابن الملك: أي لا يجوز نقض العهد، ولا الزيادة على تلك المدة والله أعلم(٨٣).

---

(٨٢) السنن (٣/٨٣) ح (٢٧٥٩)، كتاب الجهاد، باب في الإمام يكون بينه وبين العدو عهد فيسير إليه، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح (السنن ٤/١٤٣ ح١٥٨٠، كتاب السير، باب ما جاء في الغدر). وقال الألباني: صحيح (صحيح سنن الترمذي ح ١٢٨٥).

(٨٣) عون المعبود (٧/٣١٢).

وقد حذر النبي ﷺ من أذى وظلم أهل الذمة والمعاهدين، فقد ثبت عنه ﷺ أنه قال: "ألا من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس، فأنا خصمه يوم القيامة"(٨٤).

وهذا من الأحاديث القولية، وكذا حديث عمرو بن عبسة ﷺ؛ لبيان حق المعاهد، وقد اجتمع القول والفعل في وجوب إعطاء هذا الحق في معاهداته مع غير المسلمين.

رابعاً: تعامله الاجتماعي:

انسجم المجتمع الذي عايش الرسول ﷺ بمختلف مله وحضاراته، إذ تحلت الروابط الاجتماعية مع غير المسلمين في المصاهرة والزيارة وإعطاء حق الجيران والضيفان، والعناية بميدان الدعوة والتعليم، وعقد بين جميع أهل الملل، وإبرام المعاهدات مع بلدان الجوار بأرقى حوار، وهذا مندوب ومطلوب مع كل من يريد تعظيم شعائر الله تعالى من غير المسلمين.

يقول (آدم ميتز) واصفاً حالة التعايش السلمي بين المسلمين ومخالفيهم في العقيدة: (كان وجود النصارى بين المسلمين سبباً لظهور مبادئ التسامح التي ينادي بها المصلحون المحدثون، وكان الحاجة إلى المعيشة المشتركة، وما ينبغي أن يكون فيها من وفاق، مما أوجد من أول الأمر نوعاً من التسامح الذي لم يكن معروفاً في أوروبا في العصور الوسطى

(٨٤) أخرجه أبو داود: باب في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا في التجارات، ح٣٠٥٢، (١٧١/٣). قال السخاوي: وسنده لا بأس به (المقاصد الحسنه ص ٣٩٢).

ومظهر هذا التسامح نشوء علم مقارنة الأديان، أي: دراسة الملل والنحل على اختلا فها، والإقبال على هذا العلم بشغف عظيم...)[٨٥].

وهذا التعايش قد أمر به الله تعالى إذ قال ﷻ: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [الممتحنة: ٨].

يقول الطبري في تفسير هذه الآية: عني بذلك لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين من جميع أصناف الملل والأديان أن تبروهم وتصلوهم وتقسطوا إليهم إن الله ﷻ عمّ بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ﴾ جميع من كان ذلك صفته، فلم يخصص به بعضاً دون بعض. ولا معنى لقول من قال ذلك منسوخ؛ لأن بر المؤمن لأهل الحرب ممن بينهم وبينه قرابة نسب أو ممن لا قرابة بينهم وبينه ولا نسب غير محرم ولا منهي عنه، إذا لم يكن في ذلك دلالة له أو لأهل الحرب على عورة لأهل الإسلام أو تقوية لهم بكراع أو سلاح[٨٦].

ومن صور التعامل الاجتماعي ما يلي:

١- العلاقات الاجتماعية مع أهل الكتاب:

ومن العوامل التي ضبطت العلاقات الاجتماعية كتابة إعلان المدينة الذي أمر بكتابته الرسول ﷺ، فربط جميع سكان المدينة النبوية بروابط اجتماعية واقتصادية وسياسية، ومن الروابط الاجتماعية التي رسخت

---

(٨٥) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري (١/٢٠٠).

(٨٦) تفسير الطبري (٢٣/٣٢٣).

العلائق: جعل سكان المدينة كلهم أمةً واحدة من المسلمين واليهود والقبائل العربية التي لم تدخل الإسلام ومن تبعهم، وأنهم يدافعون جميعاً إذا داهمهم العدو، ونصرة اليهود المتبعين للمسلمين، وإن كل طرف يفدون أسراهم، والمساواة بين قبائل اليهود كلهم يدخلون في ذلك الإعلان بما فيه من الحقوق والواجبات، وأنهم يتناصحون فيما بينهم، وأنهم يتصالحون مع من أراد الصلح، كما أكد على حرمة الجار، وسيأتي ذكر هذا الإعلان مفصلاً بكامله في التعامل السياسي.

٢- إرسال اللاجئين المضطهدين إلى نصارى الحبشة:

وفي السنة الخامسة للهجرة اشتد أذى المشركين للمؤمنين، فكانت الهجرة إلى مملكة أصحَمة النجاشي (الحبشة) فآواهم وأكرمهم، فكانوا عنده آمنين[٨٧].

فلما علمت قريش بذلك بعثت في إثرهم عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو ابن العاص - قبل إسلامه - بهدايا وتحفٍ من بلادهم إلى النجاشي؛ ليردَّهم عليهم، فأبى ذلك عليهم، وتشفعوا إليه بالقواد من جنده، فلم يُجبهم إلى ما طلبوا، فَوشَوا إليه: إن هؤلاء يقولون في عيسى قولاً عظيماً، يقولون: إنه عبد، فأحضر المسلمين إلى مجلسه، وزعيمهم جعفر ابن أبي طالب ﷺ، فقال: ما يقول هؤلاء إنكم تقولون في عيسى؟! فتلا عليه جعفر سورة: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ [مريم/١]، فلما فرغ أخذ النجاشي عوداً من الأرض فقال: ما زاد هذا على ما في التوراة ولا هذا العود، ثم قال:

(٨٧) ينظر طبقات ابن سعد (١/٢٠٤)، والسيرة النبوية للذهبي ص(١١٧).

اذهبوا فأنتم شُيُّوم[٨٨] بأرضي، من سبَّكم غَرم، وقال لعمرو وعبد الله: لو أعطيتموني دَبْرَاً من ذهب -يقول: جبلاً من ذهب- ما سلَّمتهم إليكما، ثم أمر فرُدَّت عليهما هداياهما، ورجعا مقبوحين بشر خيبة وأسوئها[٨٩].

ويستفاد من هذه الرحلة وجود العلائق بين النصارى والمسلمين، وخاصة النصارى من المؤمنين بالقرآن الكريم فإنهم كانوا يتأثرون بل يبكون، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [المائدة/٨٣-٨٤].

٣- العفو:

لقد ضربت سماحة النبي ﷺ ورحمته القدح المعلى والقدوة المثلى في التعامل مع غير المسلمين، حتى فيمن آذاه بالسحر، فقد قام لبيد بن الأعصم اليهودي بسحر النبي ﷺ، وإذا برعاية الله تعالى لنبيه تكشف هذا المخطط الخبيث وتبطله وتخلصه من هذا الشر.

أخرج البخاري بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت: سَحر رسولَ اللهﷺ رجلٌ من بني زُريق يقال له لَبيد بن الأعصم، حتى كان رسول الله ﷺ يخيل إليه أنه كان يفعل الشيء وما فعله. حتى إذا كان ذات يوم -أو

---

(٨٨) أي: الآمنون بلغة الحبشة كما في حاشية الفصول لابن كثير ص(٨٧).

(٨٩) ينظر الفصول ص(٨٧-٨٩)، وصحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة الحبشة حديث (٣٨٧٢-٣٨٧٦)، وقد وردت قصة الهجرة إلى الحبشة بالتفصيل في مسند الإمام أحمد (٣/٢٦٣-٢٦٨) ح(١٧٤٠).

ذات ليلة- وهو عندي، لكنه دعا ودعا ثم قال: "يا عائشة، أشعرت أن الله أفتاني فيما استفيته فيه؟ أتاني رجلان، فقعد أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجلي، فقال أحدهما لصاحبه: ما وجع الرجل؟ فقال: مطبوب. قال: من طبَّه؟ قال: لَبيد بن الأعصم. قال: في أي شيء؟ قال: في مشط ومشاطة، وجف طلع نخلة ذكر. قال: وأين هو؟ قال: في بئر ذروان". فأتاها رسول الله ﷺ في ناس من أصحابه. فجاء فقال: "يا عائشة، كأن ماءها نقاعة الحناء، وكأن رؤوس نخلها رؤوس الشياطين". قلت: يا رسول الله أفلا استخرجته؟ قال: "قد عافاني الله، فكرهت أن أثير على الناس فيه شراً. فأمر بها فدفنت"[٩٠].

قال ابن حجر قوله: "فقال: مطبوب" أي مسحور، يقال طب الرجل بالضم إذا سحر، يقال كنوا عن السحر بالطب تفاؤلاً كما قالوا للديغ سليم.

وهذا الحديث يجسد لنا الاهتمام العملي النبوي بوجوب العمل بالعهود التي أبرمها مع اليهود، وتنفيذ هذا الحق حتى لو حصل الغدر من بعض الأفراد، فلم يعلنها ثورة انتقامية، ولكنه جعلها عملية دفن سرية هادئة هادفة، دفعاً للشر والمفاسد وجلباً للخير والمصالح، وقد روى سعيد ابن المسيب وعروة بن الزبير أنه لم يذكر أن النبي ﷺ قتل منهم أحداً[٩١].

---

(٩٠) الصحيح (١٠/٢٢١)، كتاب الطب، باب السحر، وقول الله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ ﴾ [البقرة/١٠٢] ح (٥٧٦٣).

(٩١) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح إليهما، (المصنف: ١٠/ ٣٦٩، رقم ١٩٣٩٥).

قال الحافظ ابن حجر: لأن ترك قتل لبيد بن الأعصم كان لخشية أن يثير بسبب قتله فتنة، أو لئلا ينفر الناس عن الدخول في الإسلام، وهو من جنس ما راعاه النبي ﷺ من منع قتل المنافقين حيث قال : " لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه "[٩٢] .

٤- زيارته ﷺ لأهل الكتاب:

ومن لطفه أنه كان يزور كنيسة اليهود يوم عيدهم ومعه بعض أصحابه ﷺ، فقد صحَّ عن عوف بن مالك الأشجعي ﷺ، قال: انطلق النبي ﷺ وأنا معه حتى دخلنا كنيسة اليهود بالمدينة يوم عيدهم[٩٣] .

ومن هذا الحديث استنبط العلماء جواز عيادة أهل الذمة، قال المروذي: بلغني أن أبا عبد الله سئل عن رجل له قرابة نصراني: يعوده؟ قال: نعم. قال الأثرم: وسمعت أبا عبد اللّه يُسألُ عن الرجل له قرابة نصراني يعوده. قال: نعم. قيل له: نصراني. قال: أرجو ألا تضيق العيادة[٩٤] .

---

(٩٢) الفتح (١٠/٢٣١).

(٩٣) أخرجه ابن حبان (الإحسان ١٦/١١٨-١٢٠ ح ٧١٦٢) قال محققه: إسناده صحيح، وأخرجه الحاكم في (المستدرك ٣/٤١٥-٤١٦). وقال: صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه. ووافقه الذهبي، وأخرجه أحمد في (المسند ٦/٢٥) والطبراني في (المعجم الكبير ١٨/٤٦-٤٧ ح٨٣) وقال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح (المجمع ٧/١٠٦).

(٩٤) أحكام أهل الذمة (١/١٥٠).

وفي هذا الحديث تطبيق عملي لبيان جواز مثل هذه الزيارة لأجل الدعوة إلى الله تعالى.

وعلى هذا المنهاج سار السلف الصالح، فقد أخرج عبد الرزاق الصنعاني بسند صحيح عن ابن جريج عن سليمان بن موسى أنه قال: (نعود بني النصارى وإن لم تكن بيننا وبينهم قرابة)[٩٥].

وكذلك فقد كان يزور بعض خدمه من اليهود، فقد صحَّ عن أنس ﷺ قال: كان غلام يهودي يخدم النبي ﷺ فمرض فأتاه النبي ﷺ يعوده، فقعد عند رأسه فقال له: "أسلم"، فنظر إلى أبيه وهو عنده فقال له: أطع أبا القاسم ﷺ فأسلم، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: "الحمد لله الذي أنقذه من النار"[٩٦].

قال ابن حجر: وفي الحديث جواز استخدام المشرك وعيادته إذا مرض، وفيه حسن العهد واستخدام الصغير وعرض الإسلام على الصبي، ولولا صحته منه ما عرضه عليه[٩٧].

قال العيني: وفيه جواز عيادة أهل الذمة، ولا سيما إذا كان الذمي جاراً له؛ لأن فيه إظهار محاسن الإسلام وزيادة التآلف بهم ليرغبوا في الإسلام[٩٨].

---

(٩٥) المصنف: (باب عيادة المسلم الكافر ٦/ ٣٦، رقم ٩٩٢٣).

(٩٦) صحيح البخاري (١/٤٥٥)، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه وهل يعرض على الصبي الإسلام، ح (١٢٩٠).

(٩٧) فتح الباري، (٣/٢٢١).

(٩٨) عمدة القاري، (٨/١٧٥).

٥- اعتماد شهادة أهل الكتاب:

فقد اعتمد رسول الله ﷺ شهادة أهل الكتاب في السفر على الوصية كما في تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ﴾ [المائدة: ١٠٦]، والمراد بالآخرين من غيركم: أي من أهل الكتاب، فقد صح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خرج رجل من بني سهم مع تميم الداري وعدي بن بداء، فمات السهمي بأرض ليس بها مسلم، فلما قدما بتركته فقدوا جاماً من فضة مخوصاً من ذهب، فأحلفهما رسول الله ﷺ ثم وجد الجام بمكة فقالوا: ابتعناه من تميم وعدي فقام رجلان من أوليائه فحلفا ﴿لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا﴾ [المائدة/ ١٠٧]، وإن الجام لصاحبهم، قال وفيهم نزلت هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ﴾[(٩٩)].

---

(٩٩) صحيح البخاري (٣/١٠٢٢)، كتاب الوصايا، باب قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ ح ٢٦٢٨. وقد حسنه علي بن المديني، كما نقله المزي في (تهذيب الكمال ١٨/٣١٢).

قال ابن حجر: واستدل بهذا الحديث على جواز شهادة الكفار، بناء على أن المراد بالغير الكفار، والمعنى: ﴿مِّنكُمْ﴾ أي: من أهل دينكم. ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ أي: من غير أهل دينكم. وبذلك قال أبو حنيفة ومن تبعه، وتعقب بأنه لا يقول بظاهرها فلا يجيز شهادة الكفار على المسلمين، وإنما يجيز شهادة بعض الكفار على بعض، وأجيب بأن الآية دلت بمنطوقها على قبول شهادة الكافر على المسلم، وبإيمائها على قبول شهادة الكافر على الكافر بطريق الأولى. ثم دل الدليل على أن شهادة الكافر على المسلم غير مقبولة فبقيت شهادة الكافر على الكافر على حالها، وخص جماعة القبول بأهل الكتاب وبالوصية وبفقد المسلم حينئذ، منهم ابن عباس وأبو موسى الأشعري وسعيد بن المسيب وشريح وابن سيرين والأوزاعي والثوري وأبو عبيد وأحمد، وهؤلاء أخذوا بظاهر الآية وقوى ذلك عندهم حديث الباب فإن سياقه مطابق لظاهر الآية[١٠٠].

وفي هذا الحديث العظيم يتجلى حكم شرعي يفصح عن الثقة بأهل الذمة المعاهدين، ويتجسد ضرب من ضروب حسن الظن بهم؛ وذلك من خلال التطبيق النبوي العملي الذي أجاز هذا الحق، وجعله قاعدة شرعية باقية للأمة حتى تقوم الساعة، وكذلك هذا الحديث وضَّح هذه الآية التي أشكلت على كثير من المفسرين الذين لم يقفوا على هذه الرواية[١٠١].

---

(١٠٠) فتح الباري ٥/٤١٢.

(١٠١) انظر فتح القدير للشوكاني (٢/٩٠).

٦- قبول الهدية من اليهود:

صح عن النبي ﷺ أنه قبل الهدية من المرأة اليهودية التي أهدته الشاة المسمومة [١٠٢]، وفي ذلك تأليف للقلوب وتقارب للنفوس، وفي هذا الحديث قبوله لهدية اليهودية، وهذا غاية في حسن الظن، وفيه جواز قبول الهدية من المعاهدين، وقد تقدم عن هذه السنة العملية في المطلب الأول في حق دعوة أهل الكتاب.

وقد وردت رواية عند أبي داود بأنه قتلها، ولكن الرواية ضعيفة، إذ قال المنذري هذا مرسل [١٠٣].

قال الأستاذ الفرنسي ادوار بروي Edourd Perroy من جامعة السربون: عندما قبض النبي العربي [ﷺ] عام ٦٣٢م كان قد انتهى من دعوته، كما انتهى من وضع نظام اجتماعي يسمو كثيراً فوق النظام القبلي الذي كان عليه العرب قبل الإسلام، وصهرهم في وحدة قوية، وهكذا تم للجزيرة العربية وحدة دينية متماسكة، لم تعرف مثلها من قبل [١٠٤].

---

(١٠٢) أخرجه البخاري (الصحيح - كتاب الهبة - باب قبول الهدية من المشركين ح ٢٢١٧).

(١٠٣) سنن أبي داود، كتاب الديات (١٧٤/٤)، ومختصر سنن أبي داود للمنذري (٣٠٩/٦).

(١٠٤) انظر: قالوا عن الإسلام ص ٩٧.

٧- العلاقات الاجتماعية مع مشركي قريش:

لقد كانت علاقات النبي ﷺ الاجتماعية مع مشركي قريش في غاية الكمال والجمال على الرغم من الأغلبية التي كانت له بالمرصاد بسبب نشره الإسلام ودعوتهم إليه، فكان يتعامل معهم بكل الأمور الاجتماعية فيما يخص الزواج، ومعاشرة الأصدقاء، وصلة الأقارب وزياراتهم، ويتعاون معهم، وإذا طلبوا منه أن يستسقى لهم فإنه يستجيب لذلك، وكان يشاركهم في أمور الصلح وحضور بعض مجالسهم كما يلي:

أ- تأليف القلوب بالتكريم والمساعدة المالية:

ذكر الله تعالى المؤلفة قلوبهم ضمن الثمانية المستحقين للزكاة كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة/٦٠]، ولما نتابع السنة النبوية نرى تطبيق ذلك مع المشركين، فقد كان يغدق عليهم العطاء، فيعطيهم عطاء من لا يخشى الفقر؛ تأليفاً لقلوبهم، وإحساناً لنفوسهم، فالنفوس جبلت بحب من أحسن إليها، وهكذا كان فعله ﷺ مع الذين هم حديثو عهد بالإسلام، فمن السنة الفعلية ما أخرجه مسلم عن ابن شهاب قال: غزا رسول الله ﷺ غزوة الفتح (فتح مكة)، ثم خرج رسول الله ﷺ بمن معه من المسلمين، فاقتتلوا بحنين، فنصر الله دينه والمسلمين، وأعطى رسول الله ﷺ يومئذ صفوان بن أمية مائةً من النعم، ثم مائة، ثم مائة.

قال ابن شهاب: حدثني سعيد بن المسيب؛ أن صفوان قال: والله لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني، وإنه لأبغض الناس إليّ، فما برح يعطيني حتى إنه لأحب الناس إليّ[١٠٥].

وصح عنه ﷺ أنه قال: "إني أعطي قريشاً أتألفهم؛ لأنهم حديثو عهد بالجاهلية"[١٠٦].

وهذا العطاء من الخُمُس، إذ عقد البخاري كتاباً بعنوان: (فرض الخُمُس)، ثم تحته باب: (ما كان النبي ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخُمُس ونحوه)، كما في الحديث السابق.

قال الحافظ ابن حجر: قوله: "من الخمس ونحوه" أي: من مال الخراج والجزية والفيء.

قال إسماعيل القاضي: في إعطاء النبي ﷺ للمؤلفة قلوبهم من الخُمُس دلالة على أن الخمس إلى الإمام يفعل فيه ما يرى من المصلحة... واختلف بعد ذلك من أين كان يعطي المؤلفة؟

فقال مالك وجماعة: من الخُمُس.

وقال الشافعي وجماعة: من خُمُس الخُمُس[١٠٧].

---

(١٠٥) الصحيح (٤/١٨٠٦ح٢٣١٣)، كتاب الفضائل، باب ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قط فقال: لا.

(١٠٦) صحيح البخاري، كتاب فرض الخمس، باب ما كان النبي ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه (٦/٢٥٩) ح (٣١٤٦).

(١٠٧) فتح الباري (٦/٢٥٢).

وأخرج الطبري بسند ثابت عن قتادة: وأما ﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ [التوبة/٦٠]، فأناس من الأعراب ومن غيرهم كان النبي ﷺ يتألفهم بالعطية كيما يؤمنوا(١٠٨).

قال القرطبي: قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ لا ذكر للمؤلفة قلوبهم في التنزيل في غير قسم الصدقات؛ وهم قوم كانوا في صدر الإسلام ممن يظهر الإسلام، يتألفون بدفع سهم من الصدقة إليهم لضعف يقينهم.

قال الزهري: المؤلفة من أسلم من يهودي أو نصراني وإن كان غنياً. وقال بعض المتأخرين: اختلف في صفتهم؛ فقيل: هم صنف من الكفار يعطون ليتألفوا على الإسلام، وكانوا لا يسلمون بالقهر والسيف، ولكن يسلمون بالعطاء والإحسان....

وقيل: هم قوم من عظماء المشركين لهم أتباع يعطون ليتألفوا أتباعهم على الإسلام. قال: وهذه الأقوال متقاربة، والقصد بجميعها الإعطاء لمن لا يتمكن إسلامه حقيقة إلا بالعطاء؛ فكأنه ضرب من الجهاد. والمشركون ثلاثة أصناف: صنف يرجع بإقامة البرهان، وصنف بالقهر، وصنف بالإحسان، والإمام الناظر للمسلمين يستعمل مع كل صنف ما يراه سبباً لنجاته وتخليصه من الكفر(١٠٩).

ولقد تركت هذه السنة العملية من الكرم لمسات لا تنسى، وغرست في النفوس حب الخير، فكان لها الأثر الكبير المنير حتى انقلب البغض

---

(١٠٨) تفسير الطبري (١١/٥٢٠).

(١٠٩) الجامع لأحكام القرآن (٨/١٧٨-١٧٩).

والكراهية إلى حب وتضحية، كما رأينا ذلك في صفوان بن أمية ﷺ وغيره.

ب- الزيارة:

زيارة الرسول ﷺ لعمه أبي طالب وهو مريض ودعوته له[١١٠]، وقد قال ابن حجر رحمه الله تعالى: (وفي الحديث جواز زيارة المشرك وعيادته)[١١١].

ولاشك أن جيرانه حظوا بمثل هذه الزيارات؛ لأنه كان يوصى خيراً بالجار.

عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: "ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه"[١١٢].

قال ابن حجر رحمه الله تعالى: (واسم الجار يشمل الجار المسلم والكافر والعابد والفاسق والصديق والعدو...)(١١٣).

ج- الرعاية الاجتماعية في دفن الموتى:

لقد أرشدنا النبي ﷺ إلى وجوب دفن الميت حتى لو كان غير مسلم، فقد صح عن أبي طلحة الأنصاري أن نبي الله ﷺ أمر يوم بدر بأربعة

---

(١١٠) صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب قصة أبي طالب حديث رقم (٣٨٨٤).

(١١١) المصدر السابق ح(٢٢٣٩).

(١١٢) متفق عليه، صحيح البخاري (٤٣١/١٨)، كتاب الأدب، باب الوصاة بالجار، ح (٥٥٥٦)، وصحيح مسلم (٦٥/١٣)، كتاب البر والصلة والأدب، باب الوصية بالجار، ح (٤٧٥٧).

(١١٣) ابن حجر، فتح الباري، (٥٤١/١٠) شرح حديث رقم (٦٠١٤).

وعشرين رجلاً من صناديد قريش، فقذفوا في طوى من أطواء بدر خبيث مخبث، وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال، فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلته فشد عليها رحلها ثم مشى واتبعه أصحابه، وقالوا: ما نرى ينطلق إلا لبعض حاجته حتى قام على شفة الركي، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: يا فلان بن فلان ويا فلان بن فلان أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله، فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ قال: فقال عمر: يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح لها؟ فقال رسول الله ﷺ: "والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم"[(١١٤)].

ذكره العلامة الألباني وقال: ويجب دفن الميت ولو كان كافراً[(١١٥)].

وكذلك قام النبي ﷺ بدفن رأس النفاق، فقد أخرج عبد الرزاق الصنعاني بسند صحيح عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار قال: سمعت جابر بن عبد الله يقول: أتى النبي ﷺ عبد الله بن أُبي بن سلول بعد ما أدخل حفرته، فلقيه، فأمر به فأخرج، فوضعه على ركبتيه، وألبسه قميصه، ونفث عليه من ريقه[(١١٦)].

---

(١١٤) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب قتل أبي جهل (٤/١٤٦١) ح (٣٧٥٧).

(١١٥) أحكام الجنائز ص (١٣٢).

(١١٦) المصنف، باب غسل الكافر وتكفينه (٦/٤٠) رقم (٩٩٣٨).

خامساً: إعطاؤه ﷺ الحريات: [١١٧]

من حق الإنسان أن يتمتع بالحريات التي أمر الله تعالى بها، وقد جاء الإسلام بضمان تلك الحريات، ومن أهم أسس تكريم غير المسلمين هو إعطاء الحريات، وقد أعطى النبي ﷺ لهم جميع الحريات وتشتمل على ما يلي:

١- عدم إكراه أحد على دينه.

٢- إعطاء الحرية لأصحاب الديانات أن يمارسوا شعائرهم في أماكن عبادتهم.

٣- إعطاؤهم الحرية في طعامهم وأحوالهم الشخصية في الزواج والطلاق وغيرها.

وقد تمتع المسلمون وغير المسلمين بأنواع الحريات وهي كما يلي:

١- حرية الدين:

لقد أعطى النبي ﷺ لغير المسلمين حريتهم الدينية؛ إذ عاش مع اليهود فترة من الزمن، كما كان يستقبل الوفود من النصارى كالسيد والعاقب من نصارى نجران، فقد دعاهم إلى الإسلام، وأعطاهم حرية العقيدة؛ إذ

---

(١١٧) الحرية: لغة: من حرية الأصل. مختار الصحاح ص (١٣٠). وحرَّ الرجل يحر حرية إذا صار حراً. المصباح المنير للرافعي (١/١٢٨)، واصطلاحاً: عرفت الحرية بتعريفات كثيرة، واخترت منها ما قاله العلامة ابن بيّه وهي أنها: انطلاق وامتلاك للإرادة، ولكنه بعمل صالح وخلق كريم. حوار عن بعد حول حقوق الإنسان في الإسلام ص(٥٢).

اعتمد على الثوابت القرآنية ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ [البقرة/٢٥٦]، فليس لأحد أن يجبر غيره على أن يدخله في الإسلام.

وفي الحديث الشريف قال: قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل ﷺ حين بعثه إلى اليمن: "إنك ستأتي قوماً من أهل الكتاب، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم طاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقةً تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب"[(١١٨)].فلم يجبرهم على الدخول في الإسلام.

قال النووي: وفيه أنه لا يحكم بإسلامه إلا بالنطق بالشهادتين، وفيه بيان عظم تحريم الظلم، وأن الإمام ينبغي أن يعظ ولاته، ويأمرهم بتقوى الله تعالى، ويبالغ في نهيهم عن الظلم، ويعرفهم قبح عاقبته، وفيه أنه يحرم على الساعي أخذ كرائم المال في أداء الزكاة؛ بل يأخذ الوسط، ويحرم على رب المال إخراج شر المال[(١١٩)].

يقول مارسيل بوازار عن الإسلام: أزال من العقيدة كل ما اعتبر زيفاً مخالفاً للتوحيد بالمعنى الدقيق للكلمة، وأتاح منطق تعاليمه القوي، وبساطة عقيدته، وما يرافقها من تسامح، أتاح كل هذا للشعوب التي

---

(١١٨) صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء وترد في الفقراء حيث كانوا، ح ١٤٩٦.

(١١٩) شرح النووي ١/١٩٧-١٩٨.

فتح بلادها حرية دينية تفوق بكثير تلك التي أتاحتها الدول المسيحية لنفسها[١٢٠].

ويقول الكاتب الأمريكي المعاصر أندروا باترسون: إن العنف باسم الإسلام ليس من الإسلام في شيء؛ بل إنه نقيض لهذا الدين الذي يعني السلام لا العنف[١٢١].

٢- حرية التملك:

وهذه الحرية عامة للمسلمين وغير المسلمين، فقد أطلقت السنة النبوية عنان التملك مهما بلغ المالك من الأموال والقناطير المقنطرة، بشرط أن يؤدي المالك حق الزكاة، وشجع على التملك حيث صرح بأن ذلك خير من الذي لا يملك شيئاً، وثبت عنه ﷺ: "اليد العليا خير من اليد السفلى"[١٢٢].

كما أعطى الإسلام حرية التملك لغير المسلمين، فلهم الحرية أن يتملكوا ما يشاؤون من الأموال مهما كثرت وتعددت، وقد عرف اليهود باقتنائهم الثروات الكبيرة ولا أحد يعترض على ذلك، حيث قال الأستاذ الفرنسي جاك ريسلر: كانت جميع الأديان لها حقُّ الممارسة

---

(١٢٠) قالوا عن الإسلام ص(٢٧٤).

(١٢١) انظر: بول فندلي، لا سكوت بعد اليوم، الطبعة الثانية (بيروت: شركة المطبوعات ٢٠٠١م)، ص(٩١).

(١٢٢) متفق عليه، صحيح البخاري-كتاب الزكاة-باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى (ح ١٤٢٧)، وصحيح مسلم-الزكاة-باب أفضل صدقة الشحيح (٢/٧١٧ ح ١٠٣٣).

المطلقة في عبادتها، وكان اليهود لديهم مطلق الحرية في اقتناء الثـــروات، ووصلوا أحياناً إلى مراكز سامية[١٢٣].

يقول المستشرق النمساوي بارتولد (١٨٧٩-١٩٣٠م): كانـــت في بلاد الخلافة الممتدة من رأس سان فنسنت الواقعة جنـــوبي البرتغـــال إلى سمرقند مؤسسات مسيحية غنية، قد حافظت على أملاكها غير المنقولـــة الموقوفة عليها[١٢٤].

٣- حرية الرأي:

إن حرية إبداء الرأي تطلق عقل الإنسان ليفكر في ملكوت الله تعالى، وفي مصالحه في الدنيا والآخرة، وأما إذا ألغيت هذه الحرية فإنها تـــؤثر على التفكير وتشله شلاً، وقد احترم النبي ﷺ الرأي وسمع من الصـــحابة ﷺ، وما وجد من رأي سديد أخذ به، مما شجع على إبداء الرأي بكـــل وضوح دون تردد، كما حصل في غزوة بدر عندما أدلى برأيه الصحابي الحباب بن المنذر ﷺ، وكذلك عندما أشار سلمان الفارسي ﷺ بحفـــر الخندق، فقد أخذ النبي ﷺ بتلك الآراء، وفي ذلك تربية على حرية إبداء الرأي للمصلحة العامة.

وكذلك كان يحترم الآراء الصحيحة التي تصدر عن أهـــل الكتـــاب ويأخذ بها، كما سيأتي في المبحث الرابع في موافقته لأهل الكتاب.

---

(١٢٣) انظر قالوا عن الإسلام ص (٢٩٠).

(١٢٤) تاريخ الحضارة الإسلامية ص (٥٤).

ومن مقتضيات العدل والإنصاف مع أهل الكتاب قبول النصيحة والرأي الصحيح الذي يبدونه، وقد ضرب النبي عليه الصلاة والسلام المثل الأعلى في ذلك، ومنه ما جاء عن عبد الله بن يسار عن قتيلة امرأة من جهينة، أن يهودياً أتى النبي ﷺ فقال: إنكم تنددون، وإنكم تشركون، تقولون: ما شاء الله وشئت، وتقولون: والكعبة؛ فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: ورب الكعبة، ويقولوا: ما شاء الله ثم شئت[١٢٥].

وفي هذا الحديث بيان حرية الرأي والاستفادة من ذلك الرأي؛ لأنه حق.

وينبغي أن يعلم أن حرية الرأي ليس على إطلاقها فهي مقيدة بضوابط، وقد ألمح معالي العلامة الشيخ عبد الله بن بيّه إلى ذلك فقال: ولا شك أن لحرية الرأي في الإسلام قيوداً وضوابط منهجية، مثل: التحرّي في المعطيات، وفي المسالك المبلّغة إلى الحق، والإخلاص في إرادة النفع العام، وإلا انقلبت إلى ضروب من المغالطة والتغرير والأنانية، كما أن لها قيوداً أخلاقية، مثل: الصدق في تبليغ الرأي ونقله، والحسنى بالإقناع به، وإلا انقلبت كذباً وغشاً وتجريحاً ولجاجة، فتخرج إذن عن الدائرة التي رسمت لها في الاستعمال الشائع، وما نعتمد في هذا السياق هو الحرية بتلك الضوابط والقيود[١٢٦].

---

(١٢٥) أخرجه النسائي (السنن-كتاب الأيمان والنذور -باب الحلف بالكعبة، ح ٣٧٧٣).

(١٢٦) حوار عن بعد حول حقوق الإنسان في الإسلام ص(٥٩).

من أجل ذلك نجد أن كثيراً من غير المسلمين الذين ينشدون الحرية يحبون الإسلام، قال الأستاذ علي يول الدانمركي: إن التسامح الواسع الأفق الذي يتسم به الإسلام في معاملة الأديان الأخرى يجعله محبباً لدى جميع من يحبون الحرية[١٢٧].

٤- حرية العمل والتعليم:

والفرد له حرية اختيار العمل والتعليم سواء في مجال التجارة أم الصناعة أم الزراعة أم التعليم، وفي ذلك إنماء لمواهب الإنسان ورغباته، فيكون اندفاعه وإنتاجه أكثر وأكبر، بخلاف أن يعمل بعمل ليس له فيه رغبة، فإن إنتاجه سيكون محدوداً؛ لذا نجد السنة النبوية أعطت الحرية في مزاولة أنواع الأعمال والحرف التي شرعها الله تعالى لعباده، وقد حبّر المؤرخ الخزاعي أصناف الأعمال والحرف في كتابه: (تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله ﷺ من الحرف والصنائع والعملات الشرعية)، وكذلك الكتاني في كتابه: (التراتيب الإدارية).

لقد أعطى النبي ﷺ هذه الحرية لغير المسلمين، فقد كان كثير من غير المسلمين يقومون بالمهن المختلفة كالزراعة والتجارة والصناعة؛ بل كان النبي ﷺ يقرهم على ذلك، بل ويتعامل معهم كما سيأتي في تعامله الاقتصادي، كما كان لهم حرية التعليم لأمور دينهم؛ بل كان بعضهم يعلم أبناء المسلمين الكتابة وبعض الصناعات، فهذه الحرية حق من حقوقهم.

---

(١٢٧) انظر: قالوا عن الإسلام ص(٢٦٠).

وقد فتحت السنة النبوية آفاقاً واسعةً في مجال حرية التعليم والبحث العلمي، إذ حلّقت في رحاب السموات السبع وما فوقها، فوصل ﷺ إلى مشاهدات ومعلومات ما لم يصل إليه العلم الحديث إلى يومنا هذا، ففي رحلته الفضائية في الإسراء والمعراج فتح لنا الضوء لرؤية مفاتيح الاستنباط للوصول إلى مبادئ وشذرات من علم السماء.

قال المستشرق الفرنسي كوستاف لوبون: الإسلام من أكثر الأديان ملاء مة لاكتشافات العلم[١٢٨].

وقال الضابط البريطاني ج.ف.فيلويز: التقدم العلمي المعاصر في العصر الحاضر والمنجزات العلمية تتفق تماماً مع مبادئ الإسلام[١٢٩].

سادساً: الدفاع والقتال عن أهل الذمة:

بما أن أخذ الجزية من أهل الذمة كان من أسبابه حفظهم والدفاع عنهم، فقد أوصى بذلك ﷺ ودافع عنهم في عدة مواطن، فقد صحَّ عن عمر رضي الله عنه قال: "وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله ﷺ؛ أن يوفى لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم، ولا يكلفوا إلا طاقتهم"[١٣٠].

قال ابن حجر: في الحديث الحض على الوفاء بالعهد، وحسن النظر في عواقب الأمور، والإصلاح لمعاني المال وأصول الاكتساب[١٣١].

---

(١٢٨) حضارة العرب ص (١٢٦).

(١٢٩) انظر: قالوا عن الإسلام ص (٤٦٤).

(١٣٠) صحيح البخاري (١١١١/٣)، كتاب الجهاد، باب يقاتل عن أهل الذمة ولا يسترقون، ح(٣٠٥٢).

(١٣١) فتح الباري (٢٦٧/٦).

قال العلامة العيني: قوله: "بذمة الله" أي عهد الله. قوله: "وأن يقاتل من ورائهم" أراد به دفع الكافر الحربي ونحوه عنهم. قوله: "ولا يكلفوا" على صيغة المجهول من التكليف، ومعناه أن لا يزيدوا على مقدار الجزية[١٣٢].

قال الشافعي - رحمه الله تعالى-: وينبغي للإمام أن يظهر لهم أنهم إن كانوا في بلاد الإسلام أو بين أظهر أهل الإسلام منفردين أو مجتمعين فعليه أن يمنعهم من أن يسبيهم العدو أو يقتلهم منعه ذلك من المسلمين، وإن كانت دارهم وسط دار المسلمين وذلك أن يكون من المسلمين أحد بينهم وبين العدو فلم يكن في صلحهم أن يمنعهم فعليه منعهم؛ لأن منعهم منع دار الإسلام دونهم، وكذلك إن كان لا يوصل إلى موضع هم فيه منفردون إلا بأن توطأ من بلادهم شيء كان عليه منعهم وإن لم يشترط ذلك لهم[١٣٣].

ولهم حفظ أعراضهم، فيجب كف الأذى عنهم، وتحرم غيبتهم؛ لأنهم بعقد الذمّة وجب لهم ما للمسلمين، كما قال ابن عابدين[١٣٤]، بل قال أيضاً: (إنه بعقد الذمّة وجب له - أي للذمّي- ما لنا، فإذا حرمت غيبة المسلم حرمت غيبته؛ بل قالوا: إنّ ظلم الذمّي أشدّ)[١٣٥].

---

(١٣٢) عمدة القاري (٢٩٧/١٤).

(١٣٣) الأم (٢٠٧/٤)، فصل ما يعطيهم الإمام من المنع من العدو.

(١٣٤) رد المحتار على الدر المختار (٢٤٤/٣).

(١٣٥) رد المحتار على الدر المختار (٢٥٠/٣).

وكذلك نهى عن ضرب أهل الكتاب لو صدر منهم قول خطأ، فقد صحَّ عن أبي هريرة ﷺ قال: بينما يهودي يعرض سلعته أعطي بها شيئاً كرهه، فقال: لا والذي اصطفى موسى على البشر، فسمعه رجل من الأنصار، فقام فلطم وجهه، وقال: تقول: والذي اصطفى موسى على البشر، والنبي ﷺ بين أظهرنا، فذهب إليه فقال: أبا القاسم إن لي ذمة وعهداً فما بال فلان لطم وجهي؟ فقال: لم لطمت وجهه؟ فذكره فغضب النبي ﷺ حتى رؤي في وجهه، ثم قال: "لا تفضلوا بين أنبياء الله، فإنه ينفخ في الصور فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، ثم ينفخ فيه أخرى فأكون أول من بعث، فإذا موسى آخذ بالعرش فلا أدري أحوسب بصعقته يوم الطور أم بعث قبلي، ولا أقول إن أحداً أفضل من يونس بن متّى"[(١٣٦)].

إن غضب النبي ﷺ على ذلك الصحابي الأنصاري ﷺ هو عقوبة على لطم اليهودي، وكان الصحابة ﷺ يغتمون إذا غضب النبي ﷺ؛ لأنه لا يغضب إلا من أمر خطير، ذي شر مستطير، فهو يزجر بذلك زجراً شديداً عن ذلك الاعتداء، وهذا من شدة عنايته بأهل الذمة.

سابعاً: احترامه ﷺ الموتى منهم:

مما تقدم عرفنا احترام النبي ﷺ لأهل الكتاب في حياتهم، ولم يكتف بذلك؛ بل كان احترامهم عند وفاتهم، مما يدل على أن هذا التعامل ليس من المجاملات؛ بل هو نابع من عقيدة عظيمة تراعي الإنسان في حياته

---

(١٣٦) صحيح البخاري (٣/١٢٥٤)، كتاب التفسير، باب قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ح(٣٢٣٣).

ومماته بغض النظر عن الاختلاف الثقافي والديني، كما ثبت عن عبد الرحمن بن أبي ليلى أنه قال: كان سهل بن حنيف وقيس بن سعد قاعدين، فمرُّوا عليهما بجنازة فقاما، فقيل لهما: إنهما من أهل الأرض - أي من أهل الذمة- فقالا: إن النبي ﷺ مرت به جنازة فقام. فقيل له: إنها جنازة يهودي. فقال: " أليست نفساً؟ "[١٣٧].

وصحَّ عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: مر بنا جنازة فقام لها النبي ﷺ وقمنا فقلنا: يا رسول إنها جنازة يهودي فقال: "إذا رأيتم الجنازة فقوموا"[١٣٨].

قال الحافظ ابن حجر: واستدل بحديث الباب على جواز إخراج جنائز أهل الذمة نهاراً غير متميزة عن جنائز المسلمين[١٣٩].

ولا غرابة أنه دين الإسلام الذي يحترم النفس في حياتها وموتها ولا يفرق في حق المسلمين ولا في حق أهل الكتاب.

هكذا أرسى النبي ﷺ مثل هذه الدعائم في تكريم أهل الكتاب، حتى عند الممات كي لا يظن بعضهم أن المصالح والعلاقات الشخصية تقتضي حسن التعامل مع الأحياء منهم؛ بل كان الأمر فوق ذلك إذ أحسن التعامل مع الأموات منهم أيضاً.

---

(١٣٧) متفق عليه، صحيح البخاري (٥/٧٢)، كتاب الجنائز، باب باب من قام لجنازة يهودي، ح(١٢٢٩). وصحيح مسلم (٥/٦٨)، كتاب الجنائز، باب القيام للجنازة، ح(١٥٩٦).

(١٣٨) صحيح البخاري -كتاب الجنائز- باب من قام لجنازة يهودي، ح(١٣١٢).

(١٣٩) فتح الباري (٣/ ٢١٦).

ثامناً: تعامله ﷺ مع غير المسلمين في اجتناب الحرب:

لا تخفى على البشرية مغبة الحرب وويلاتها وآثارها، فكيف بمن أُرسل رحمة للعالمين؟ لقد كان ﷺ حريصاً على درء الحروب ودفع دمارها ووبالها، وفي الوقت نفسه كان حريصاً على دخول الناس في دين الله تعالى أفواجاً، من أجل ذلك كان مبدأ السلام عنده هو الأصل، وأما الحرب فهو الاستثناء للضرورة القصوى، ثم يؤول إلى السلام، ولهذا نرى أغلب الغزوات كان يحفها السلم، إذ قاد النبي ﷺ (٢٨) غزوة، وكان القتال في (٩) غزوات، وهذه الغزوات التسع لم تكن مباشرة بدون دعوة، بل كان رسول الله ﷺ يدعوهم إلى توحيد الله تعالى والهداية والسلم، وقد ثبت عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: ما قاتل رسول الله ﷺ قوماً إلا دعاهم[١٤٠].

وهكذا كان يعلم أصحابه حين قال الرسول ﷺ لعلي رضي الله عنه في غزوة خيبر: "على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم، فوالله لأن يُهدى بك رجل واحد خير لك من حمر النعم"[١٤١].

قال الحافظ ابن حجر: يؤخذ منه أن تألف الكافر حتى يسلم أولى من المبادرة إلى قتله[١٤٢].

---

(١٤٠) أخرجه الإمام أحمد في المسند ١/١٣٦.

(١٤١) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب دعاء النبي ﷺ إلى الإسلام والنبوة ح(٢٧٨٣).

(١٤٢) فتح الباري (٧/ ٥٤٦).

وبعض الغزوات وقع فيها الصلح دون أن يستجيبوا للدخول في الإسلام، كما سيأتي في ذكر صلح الحديبية وغيرها.

من أجل ذلك فقد سلك نبي الرحمة ﷺ جميع السبل لاجتناب الحرب، فقد كان ينهى عن تمني لقاء العدو، ويأمر بالرفق في كل الأمور، ويحذر من العنف، كما تقدم في أول الأحاديث الشريفة.

تاسعاً: الإجارة والاستئجار:

وكان ﷺ يستأجر بعض الخدم من اليهود فقد صحَّ عن أنس ﷺ قال: كان غلام يهودي يخدم النبي ﷺ[١٤٣].

ومن المشهور عن تعامله مع الخدم أنه كان في غاية الإحسان.

ومن التعامل الاجتماعي جواز أن يؤجر المسلم نفسه للذمي، فقد ذكر ابن قدامة في المغني أن المسلم لو أجر نفسه للذمي في عمل معين في الذمة، كخياطة ثوب وقصارته جاز ذلك بغير خلاف نعلمه؛ لأن علياً ﷺ أجر نفسه من يهودي يستسقيه كل دلو بتمرة، وأتى به النبي ﷺ فأخبره بذلك فلم ينكره، وروي أن رجلاً من الأنصار فعل ذلك أيضاً، وأنه عقد معاوضة فأشبه البيع[١٤٤].

---

(١٤٣) صحيح البخاري (١/٤٥٥) كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه؟ وهل يعرض على الصبي الإسلام؟ ح (١٢٩٠).

(١٤٤) المغني (٨/٤٩٥).

وعن محمد بن عبد الحكم أنه سأل الإمام أحمد عن الرجل المسلم يحفر لأهل الذمة قبراً بكراء، قال: لا بأس به[١٤٥].

عاشراً: تعامله مع المشركين:

لقد سبق تعامل النبي ﷺ للمشركين تعامله مع أهل الكتاب، وما ذكر في أهل الكتاب من تعامل في البيع والشراء والرهن وغيره فقد كان قائماً مع المشركين، إضافة إلى ما يلي:

١- الاستسقاء للمشركين:

من رحمته ﷺ بالمشركين كانوا إذا طلبوا منه الاستسقاء فإنه يدعو الله تعالى لهم بذلك، ويستجاب له على الرغم من عداوتهم له، فقد أخرج البخاري بسنده عن عبد الله بن مسعود قال: إنما كان هذا لأن قريشاً لما استعصوا على النبي ﷺ دعا عليهم بسنين كسني يوسف، فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد، فأنزل الله ﷻ: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الدخان/١٠-١١]، قال: فأتى رسول الله ﷺ فقيل له: يا رسول الله استسق الله لمضر فإنها قد هلكت، قال: مضر؟ إنك لجريء، فاستسقى، فسُقوا، فنزلت: ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ [الدخان/١٥]، فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم حين أصابتهم الرفاهية،

(١٤٥) أحكام أهل الذمة (١/١٩٨).

فأنزل الله ﷻ: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ [الدخان/١٦] قال: يعني يوم بدر(١٤٦).

هكذا كانت رحمته ﷺ في الإحسان مع المشركين، ولقد آتت ثمارها بأن رأوا صدق هذا النبي ﷺ ولطفه بهم وحنانه عليهم، مما جعل الكثير منهم يعلنوا كلمة التوحيد الخالدة، وغدوا قادة الأُمم بنعمة هذا الدين، كل ذلك بفضل القيام بحق الناس من الدعوة وطلب الخير من الله تعالى حتى ولو كانوا مشركين، وقد كان دعاء النبي ﷺ تطبيقاً عملياً لهذا الحق الذي ترك أثره في النفوس، وأبرز معجزة نبوية في جلب الخير ودفع الشر، وفي هذا العمل يبرز حكم شرعي في جواز الاستسقاء للمشركين من أجل الدعوة إلى الله تعالى.

٢- عدم أخذ الخراج على مزارع مكة المكرمة:

ولا خراج على مَزارع مكة وَإن فتحت عنوةً. وقيل: يضرب عليها الخراج كسائر أرض العنوة، وهذا القول من أقبح الغلط في الإسلام، وهو مردود على قائله، ومكة أجل وأعظم من أن يضرب على أرضها الجزية، وهي حرم الله وأمنه ودار نسك الإسلام، وقد أعاذها سبحانه وتعالى مما هو دون الخراج بكثير، وهذا القول استُدرك على رسول الله ﷺ وعلى أبي بكر وعمر وعثمان والأئمة بعدهم إلى زمن هذا القائل، وكيف يسوغ ضرب الخراج الذي هو أخو الجزية وشقيقها ورضيع لبنها على

---

(١٤٦) الصحيح (٨/٤٣٤-٤٣٥ ح٤٨٢١) كتاب التفسير، سورة الدخان، باب ﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ الآية، وأخرجه مسلم في صحيحه (٤/٢١٥٦-٢١٥٧).

خير بقاع الله وأحبها إلى الله ودار النسك، ومتعبَد الأنبياء، وقرية رسل الله التي أخرجته، وحرم رب العالمين وأمنه ومحل بيته، وقبلة أهل الأرض؟! قال أبو عبيد: صحَّت الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه افتتح مكة وأنه منَّ على أهلها، فردها عليهم فلم يقسمها ولم يجعلها فيئاً، فرأى بعض الناس أن هذا الفعل جائز للأئمة بعده(١٤٧).

٣- حق غير المسلم في أخذ صداق زوجته إذا أسلمت:

فإذا أسلمت المرأة وتركت زوجها فلهذا الزوج حق ما دفعه من الصداق، وهذا حق لغير المسلمين، وكذلك إذا أسلم الزوج وبقيت زوجته مع الكفار فإن على الكفار أن يدفعوا حق الصداق للرجل المسلم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الممتحنة/١٠].

أخرج الطبري بسنده الصحيح عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ﴾ قال: ما ذهب من أزواج أصحاب محمد ﷺ إلى الكفار فليعطهم الكفار صدقاتهن وليمسكوهن، وما ذهب من أزواج الكفار إلى النبي ﷺ فمثل ذلك في صلح بين محمد ﷺ وبين قريش.

وأخرج الطبري أيضاً بسند ثابت عن قتادة نحوه(١٤٨).

---

(١٤٧) أحكام أهل الذمة (١/ ١٠٠).

(١٤٨) التفسير الصحيح (٤/٤٧٦).

٤- رد الجميل للمشركين من الأقارب:

لقد كان ﷺ في غاية الاهتمام بدعوة عمه أبي طالب الذي دافع ونافح عن ابن أخيه ضد الكفار، ولم يكتف بدعوته لأنه لم يوفق لذلك، فلجأ إلى الاستغفار لعمه، فقد أخرج البخاري بسنده عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاةُ جاءهُ رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أُمية بن المغيرة فقال: أي عمّ، قل لا إله إلا الله كلمةً أحاجّ لك بها عند الله. فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويُعيدانه بتلك المقالة، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول لا إله إلا الله. قال: قال رسول الله ﷺ: لأستغفرن لك ما لم أُنه عنك. فأنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة/١١٣]، وأنزل الله في أبي طالب فقال لرسول الله ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦] (١٤٩).

قال ابن حجر: قوله: "والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك" قال الزين ابن المنير: ليس المراد طلب المغفرة العامة، والمسامحة بذنب الشرك، وإنما المراد تخفيف العذاب عنه كما جاء مبيناً في حديث آخر. قلت: وهي غفلة شديدة منه، فإن الشفاعة لأبي طالب في تخفيف العذاب لم ترد

---

(١٤٩) صحيح البخاري (٨/٣٦٥) كتاب التفسير، سورة القصص ح(٤٧٧٢)، صحيح مسلم (١/٥٤) كتاب الإيمان، باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت ح(٢٤).

وطلبها لم ينه عنه، وإنما وقع النهي عن طلب المغفرة العامة، وإنما ساغ ذلك للنبي ﷺ اقتداء بإبراهيم في ذلك ثم ورد نسخ ذلك[١٥٠].

قال النووي: وفيه جواز الحلف من غير استحلاف، وكان الحلف هنا لتوكيد العزم على الاستغفار، وتطييباً لنفس أبي طالب، وكانت وفاة أبي طالب بمكة قبل الهجرة بقليل[١٥١].

هذا بالنسبة لعمه فقد قام بحق ردِّ الجميل عملياً، أما بالنسبة لأُمه فقد تاقت نفسه إلى زيارتها بعد مماتها، فقد أخرج مسلم بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "استأذنت ربي أن أستغفر لأُمي فلم يأذن لي، واستأذنته أن أزور قبرها فأذن لي"[١٥٢].

وزيارة النبي ﷺ لقبر أُمه واستئذانه أن يستغفر لها لهو خير دليل على اهتمام النبي ﷺ بغير المسلمين من الأقربين، وأن التطبيق النبوي برهان على ذلك، فإنه قام بحق الأُم تطبيقاً لزيارة أُمه، وهو من البر بعد الممات.

وقد استنبط العلماء من هذا الحديث جواز زيارة المشركين من الأقربين في الحياة وبعد الوفاة.

قال النووي: قوله ﷺ: "استأذنت ربي أن أستغفر لأُمي فلم يأذن لي، واستأذنته أن أزور قبرها فأذن لي"، فيه جواز زيارة المشركين في الحياة

---

(١٥٠) فتح الباري (٨/٥٠٧-٥٠٨).

(١٥١) شرح النووي على صحيح مسلم (١/٢١٥).

(١٥٢) الصحيح (٢/٦٧١ ح ٩٧٦) كتاب الجنائز، باب استئذان النبي ﷺ ربه ﷻ في زيارة قبر أمه.

وقبورهم بعد الوفاة؛ لأنه إذا جازت زيارتهم بعد الوفاة ففي الحياة أولى، وقد قال الله تعالى: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان/١٥]، وفيه النهي عن الاستغفار للكفار.

قال القاضي عياض رحمه الله: سبب زيارته ﷺ قبرها أنه قصد قوة الموعظة والذكرى بمشاهدة قبرها، ويؤيده قوله ﷺ في آخر الحديث: " فزوروا القبور فإنها تذكركم الموت "[١٥٣].

٥- صلة الأم المشركة وغيرها:

كما كان يسمح بالصلة وإكرام الأم المشركة، وذلك للاعتراف بمكانة الأم حتى ولو كانت مشركة، وألا ينكر فضلها، ولعلها أيضاً تدخل في الإسلام.

أخرج البخاري بسنده عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: أتتني أمي راغبة في عهد النبي ﷺ، فسألت النبي ﷺ: آصلها؟ قال: "نعم"[١٥٤].

قال السيوطي: واختلف في إسلامها، والأكثر أنها ماتت مشركة[١٥٥].

قال الخطابي: في الحديث أن الرحم الكافرة توصل من المال ونحوه كما توصل المسلمة، ويستنبط منه وجوب نفقة الأب الكافر والأُم الكافرة وإن كان الولد مسلماً.

---

(١٥٣) شرح النووي على صحيح مسلم (٤٥/٧).

(١٥٤) الصحيح، كتاب الأدب، باب صلة الوالد المشرك، رقم (٥٩٧٨).

(١٥٥) الديباج على مسلم (٧٦/٣).

وقال الحافظ ابن حجر: وفيه موادعة أهل الحرب ومعاملتهم في زمن الهدنة والسفر في زيارة القريب، وتحري أسماء رضي الله عنها في أمر دينها[١٥٦].

وهذا الرفق النبوي يتجلى فيه حكم شرعي وهو: وجوب صلة الأُم المشركة والنفقة عليها فما بالك لو كانت الأُم مؤمنة؟

وكذلك صلة الأقارب من غير المسلمين، فقد أخرج عبد الرزاق بسند جيد عن الثوري عن ليث عن نافع عن ابن عمر، أن صفية ابنة حيي أوصت لابن أخ لها يهودي.

وأخرج عبد الرزاق بسند صحيح عن ابن جريج قال: قلت لعطاء: ما قوله: ﴿إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗا﴾ [الأحزاب/٦]، قال: العطاء. قلت له: أعطاء المؤمن للكافر بينهما قرابة؟ قال: نعم، عطاؤه إياه حياً، ووصيته له[١٥٧].

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗا﴾ أخرج عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة في قوله: ﴿إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗا﴾، قال: إلا أن يكون لك ذو قرابة ليس على دينك، فتوصي له بالشيء، هو وليك في النسب، وليس وليك في الدين، قال: وقال الحسن مثله[١٥٨].

---

(١٥٦) فتح الباري (٥/٢٣٤).

(١٥٧) المصنف (٦/٣٣، رقم ٩٩١٤ و٩٩١٦).

(١٥٨) المصنف (٦/ ٣٣ رقم ٩٩١٨).

٦- استئجار الدليل:

وفي الهجرة إلى المدينة ومعه أبو بكر الصديق استأجرا عبد الله بن أُريقط، وكان هادياً خريتاً ماهراً بالدلالة إلى أرض المدينة، وأمناه على ذلك مع أنه كان على دين قومه، وسلَّما إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثور بعد ثلاث، فلما دخلا في الغار أعمى الله على قريش خبرهما، فلم يدروا أين ذهبا.

إن استئجار عبد الله بن أُريقط وهو من المشركين يدل على ثقة النبيﷺ بالآخر إذا عُلم منه ذلك، وهذه هي الحكمة في التعامل مع الآخر وتبادل المنافع إذا أُمِن جانبه.

٧- قبول الهدايا من ملوك غير المسلمين:

عن علي بن أبي طالب ﷺ قال: " أهدى كسرى لرسول الله ﷺ، فقبل منه، وأهدى له قيصر فقبل منه، وأهدت له الملوك فقبل منها "[١٥٩]، وقال النبي ﷺ لبلال ﷺ: " ألم تر إلى الركائب المناخات الأربع، فإن لك رقابهن وما عليهن، فإن عليهن كسوة وطعاماً أهداهن إلي عظيم فدك فاقبضهن واقض دينك"[١٦٠]، وعن علي ﷺ قال:

---

(١٥٩) أخرجه الترمذي (السنن ١٣٣/٣، أبواب السير، باب ما جاء في قبول هدايا المشركين، ح١٥٧٦)، وأحمد في المسند (١٤٤/٢و٣٩٧ ح ٧٤٧و١٢٣٥).

(١٦٠) أخرجه أبو داود (السنن١٧٢/٣، كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب في الإمام يقبل هدايا المشركين ح ٣٠٥٥).

"إن أكيدر دومة الجندل أهدى إلى النبي ﷺ ثوب حرير، فأعطاه عليـــاً، وقال: شققه بين الفواطم"[١٦١].

فإن قيل: إن ما ذكر هو رفق في السلم أما في الحرب فلا يمكن الرفق، فالجواب لقد جاء النبي ﷺ بسماحته ورفقه ولطفه في السلم والحـــرب، أما السلم فقد تقدم ذكر تعامله، وأما في الحرب فقد كان تعامله ﷺ مع العدو حسب التوجيهات الربانية الحكيمة، والإرشادات القرآنية العظيمة، فهو يحاور العدو مباشرة، أو بإرسال الرسل وكتابة الرسائل، ويسعى إلى السلم والصلح، فإذا أصر العدو على الحرب فإنه يعدُ العُدة لذلك، ناهياً عن قتل النساء والأطفال والشيوخ المقعدين، ويعطي حق الأمان للكافر إذا كان رسولاً أو إذ أسلم، ولا يعزِم الحرب إلا لأسباب ضرورية.

ولقد أدرك ذلك المؤرخ والعالم الأمريكي ول ديورانت إذ قال: كان النبي [ﷺ] من مهرة القواد.. ولكنه كان إلى هذا سياسياً محنكاً، يعـــرف كيف يواصل الحرب بطريقة السلم[١٦٢]. وقد جعل الحرب عند الضرورة مرحلة للوصول إلى السلم كما في الوقائع التالية:

أولاً: إن كثيراً من الغزوات لم يقع فيها قتال، وإنما كان صلحاً، فقد صحَّ عن بُريدة الأسلمي رضي الله عنه قال: غزا رسول الله ﷺ تسع عشرة غـــزوة قاتل في ثمان منهن[١٦٣]. وهنَّ كما قال موسى بن عقبة: بدر ثم أُحد ثم

---

(١٦١) صحيح مسلم (١٦٤٥/٣)، كتاب اللباس والزينة، باب تحريم استعمال الذهب والفضة على الرجال والنساء، ح (٢٧٠١).

(١٦٢) قصة الحضارة (٣٨/١٣).

(١٦٣) أخرجه مسلم (الصحيح – كتاب الجهاد والسير ٤٤٨/٣، حديث رقم ١٤٦).

الأحزاب ثم المصطلق ثم خيبر ثم مكة ثم حُنين ثم الطائف. ذكره الحافظ ابن حجر ثم قال: وأهمل غزوة بني قريظة؛ لأنه ضمَّها إلى الأحزاب، لكونها كانت في إثرها[١٦٤]. وهذا العدد ذكره أيضاً ابن إسحاق[١٦٥]، وابن سعد[١٦٦]، وابن حزم[١٦٧].

وقد كان مجموع القتلى في جميع الغزوات قليلاً جداً بالنسبة للحروب السابقة واللاحقة، يقول الدكتور محمد عمارة: فخلال ثمان وعشرين غزوة في خلال ثماني سنوات، بدأت بغزوة الأبواء سنة٢هـ، وانتهت بغزوة تبوك سنة ٩هـ نكشف من الأرقام المعبرة ضآلة حجم القتل والقتال، فضحايا جميع تلك الغزوات الثمانية والعشرين لم يبلغوا أربعمائة قتيل، (٢٠٣) من المشركين، و(١٨٣) من المسلمين! وحتى إذا أضفنا إليهم قتلى يهود بني قريظة – وهو ما لا يجوز؛ لأنهم قتلوا بقضاء التحكيم الذي ارتضوه لقاء غدرهم وخيانتهم ونقضهم للعهد في زمن غزوة الخندق- فإن رقم كل ضحايا جميع تلك الغزوات لا يصل إلى الألف[١٦٨].

ثانياً: إن المغازي التي شنها رسول الله ﷺ لم تكن لطلب الزعامة والتسلط، أو تحقيق بعض المصالح الشخصية من شهوات الدنيا ومتاعها،

---

(١٦٤) فتح الباري ٢٨١/٧.

(١٦٥) سيرة ابن هشام ٦٠٩/٢.

(١٦٦) الطبقات الكبرى ٦/٢.

(١٦٧) جوامع السيرة ص١٥.

(١٦٨) مقال: هذا إسلامنا، جريدة الشعب المصرية في ١٢/١٠/١٩٩٩م، نقلاً عن: الأخلاق السياسية للدولة الإسلامية ص٥٦٣.

وعند استقراء تلك المغازي نجد لكل غزوة سبباً أو أكثر، وهذا جـــدول يبين جميع المغازي والسرايا وأسبابها :

الغزوة أو السرية	السبب
غزوة بني سليم بالكدر، غزوة الأبواء، غزوة بدر، غـــزوة بواط، غزوة العشيرة، سرية عبـــد الله بن جحش إلى نخلة	الرد على اعتداءات قريش بأخذ العير، وحصارهم اقتصادياً.
غزوة بني قينقاع	نقض العهد.
غزوة أحد	صد العدو.
غزوة الرجيع	اعتداء وغدر بني حيان حيث قتلوا وفد الرسول عاصم بن ثابت ﷺ وأســـروا اثنين.
سرية بئر معونة	تعرض وفد الـــنبي ﷺ والغـــدر بهـــم وقتلهم.
غزوة بني محارب وبني ثعلبة مـــن غطفان	لتأديبهم على تحالفهم مع اليهود ضـــد المسلمين.
غزوة دومة الجندل	اعتداؤهم على من مر بهم من الصحابة.
غزوة الخندق	صد العدوان لمؤامرة كفار قريش مـــع بعض الأعراب واليهود.
غزوة بني قريظة	صد العدوان لتآمرهم مع قريش علـــى قتال المؤمنين.
غزوة ذي قرد	رد الاعتداء واسترداد عير رســـول الله

	ﷺ بمنطقة الغابة في المدينة.
غزوة خيبر	مؤامرة وصد عدوان دسائس يهود خيبر في تحزيب الأحزاب ضد المؤمنين.
غزوة بني النضير	غدرهم بالنبي ﷺ.
غزوة مؤتة	قتلُ رسول رسولِ الله ﷺ؛ حيث بعث الرسول ﷺ الحارث بن عمير الأزدي بكتابه إلى عظيم بصرى، فعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني، وكان عاملاً على البلقاء من أرض الشام من قبل قيصر الروم، فأوثقه وقتله.
غزوة بني السلاسل	لتأديب قبيلة قضاعة التي اشتركت لدعم الروم.
غزوة تبوك	صد اعتداء بسبب إعداد الروم لحرب المسلمين.
غزوة هوازن يوم حنين، غزوة الطائف	صد العدوان لتلاحمهم مع كفار قريش.
مسجد الضرار	تجسس وكيد المنافقين في مسجد الضرار.

وهذه الأسباب قد أجملها اللواء ركن محمود شيت خطاب في سببين:

أحدهما: حماية حرية نشر الدعوة.

والثاني: توطيد أركان السلام[١٦٩].

وأما مؤرخ السيرة أ.د.أكرم بن ضياء العُمري فقد أجمل هذه الأسباب في ثلاثة:

١- تهديد طريق تجارة قريش إلى الشام.

٢- إبراز قوة المسلمين في المدينة أمام اليهود وبقايا المشركين.

٣- عقد المحالفات والموادعات مع القبائل لضمان تعاونها أو حيادها في الصراع بين المسلمين وقريش[١٧٠].

ثالثاً: إن بعض الغزوات كانت بأمر صريح من عند الله تعالى بواسطة جبريل عليه السلام، فقد صحَّ عن عائشة رضي الله عنها قالت: أُصيب سعد يوم الخندق، رماه رجل من قريش - يقال له: ابن العرقة - رماه في الأكحل، فضرب عليه رسول الله ﷺ خيمة في المسجد يعوده من قريب، فلما رجع رسول الله ﷺ من الخندق وضع السلاح فاغتسل، فأتاه جبريل وهو ينفُض رأسه من الغبار، فقال: وضعتَ السلاح؟ والله! ما وضعناه اخرُج إليهم، فقال رسول الله ﷺ: "فأين؟" فأشار إلى بني قُريظة، فقاتلهم رسول الله ﷺ، فنزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فردّ رسول الله ﷺ الحكم فيهم إلى سعد، قال: فإني أحكم فيهم أن تُقتل المقاتلة، وأن تُسبى الذرية والنساء، وتُقسم أموالهم[١٧١].

---

(١٦٩) الرسول القائد، ص(٤٠-٤١).

(١٧٠) المجتمع المدني، ص(٢٧).

(١٧١) صحيح مسلم (١٣٨٩/٣) كتاب الجهاد والسير، باب جواز قتال من نقض العهد، ح(١٧٦٩).

قال العيني: قوله: "أن تقتل المقاتلة" أي الطائفة المقاتلة منهم، أي: البالغون، والذرية: النساء والصبيان... وفيه أن للإمام إذا ظهر من قوم من أهل الحرب الذي بينه وبينهم هدنة على خيانة وغدر أن ينبذ إليهم على سواء وأن يحاربهم، وذلك أن بني قريظة كانوا أهل موادعة من رسول الله ﷺ قبل الخندق، فلما كان يوم الأحزاب ظاهروا قريشاً وأبا سفيان على رسول الله ﷺ، وراسلوهم إنا معكم فاثبتوا مكانكم، فأحل الله بذلك من فعلهم قتالهم ومنابذتهم على سواء وفيهم أنزلت: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ [الأنفال/٥٨]، فحاصرهم والمسلمون معه حتى نزلوا على حكم سعد ﷺ[(١٧٢)].

رابعاً: تحريم الإكراه في دخول الإسلام: وكون القتال وسيلة من وسائل الوصول إلى السلم لا يعني فرض التعاليم على الأُمم المهزومة، فهذا أمر مرفوض كلياً، ويتنافى مع منهج الرحمة، وقد أكد القرآن المكي والمدني على رفض هذا المبدأ، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩] ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وإنما يقصد بكونه وسيلة من وسائل الدعوة من ناحية تأمينيه لانتشار الرسالة بالطرق السليمة والدعوية، بحيث يواجه أئمة الكفر الذين يصدون الناس عن الإيمان بالرسالة، أو يمنعون وصولها إليهم، وفي أي مرحلة يمكن من خلالها تبليغ الرسالة دون صد ففي هذه الحالة لا يجوز استخدام القتال بأي حال من الأحوال، ومن تتبع غزوات النبي ﷺ وجهاد الخلفاء بعده يجد هذا المبدأ بقيوده واضحاً، والمعلوم أن قتال

---

(١٧٢) عمدة القاري (١٤/٢٨٨-٢٨٩).

المسلمين للفرس والروم وغيرهم من الأُمم كان باعثه هو تأمين نشر دعوة تحاول هذه الأُمم وأدها والكيد لها، وبالمقابل نجد الصحابة وصلوا في قتالهم إلى خراسان وإلى أرمينية، ولم يفكروا قط بغزو الحبشة التي كانت قريبة جداً منهم، والسبب في ذلك أن الأُمم الأخرى فرضت القتال على المسلمين بينما الحبشة لم يكن منها صد وكيد للدعوة الإسلامية؛ لذا تركت وشأنها(١٧٣).

وأختم هذا الموضوع بقول المستشرق الأمريكي واشنجتون إيرفنج: برغم انتصارات الرسول [ﷺ] العسكرية لم تثر هذه الانتصارات كبرياءه أو غروره، فقد كان يحارب من أجل الإسلام لا من أجل مصلحة شخصية، وحتى في أوج مجده حافظ الرسول ﷺ على بساطته وتواضعه، فكان يكره إذا دخل حجرة على جماعة أن يقوموا له أو يبالغوا في الترحيب به، وإن كان قد هدف إلى تكوين دولة عظيمة، فإنها كانت دولة الإسلام، وقد حكم فيها بالعدل(١٧٤).

خامساً: المحافظة على كرامة غير المسلمين في الحرب: إذا كان النبي ﷺ قد حافظ على كرامة غير المسلمين في السلم فإنه قد حافظ أيضاً على كرامتهم في الحرب مهما حمي الوطيس.

وقد رسم لذلك تعاليم سامية بأقواله وأفعاله كما يلي:

---

(١٧٣) نبي الرحمة ﷺ ص١٢٩.

(١٧٤) أوروبا والإسلام ص(٣٠٣).

١- رفقه ﷺ في عدم الاعتداء

لقد نهى الله تعالى عن الاعتداء في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة/١٩٠]، من أجل ذلك كان النبي ﷺ يطبق ذلك قولاً وعملاً، لذا كان خلقه ﷺ في الحرب منضبطاً بالتعاليم الإلهية، وبالرعاية الإنسانية، محذراً من شتى أنواع الاعتداء.

٢- النهي عن قتل النساء والصبيان في الغزو

لقد حرم الله تعالى الاعتداء حتى في الحرب فقال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ﴾ [البقرة/١٩٠]، واستجاب النبي ﷺ لهذا الأمر، وبين تحريم قتل النساء والصبيان، حيث ثبت عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: "وجدت امرأة مقتولة في بعض مغازي رسول الله ﷺ، فنهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والصبيان"[(١٧٥)].

قال النووي: أجمع العلماء على العمل بهذا الحديث وتحريم قتل النساء والصبيان إذا لم يقاتلوا، فإن قاتلوا قال جماهير العلماء يقتلون[(١٧٦)].

لقد استجاب الصحابة ﷺ لهذا النبي ﷺ: "لا تقتلوا وليداً"[(١٧٧)] حتى في أحرج الظروف، فهذا خبيب بن عدي كان أسيراً عند بني الحارث بن عامر بن نوفل وأرادوا قتله، فاستعار موسىً من أحد بنات الحارث

---

(١٧٥) الصحيح (١٤٨/٦ ح٣٠١٥) كتاب الجهاد، باب قتل النساء في الحرب. وأخرجه مسلم (الصحيح ١٣٦٤/٣ ح١٧٤٤ - كتاب الجهاد، باب تحريم قتل النساء والصبيان).

(١٧٦) شرح النووي على صحيح مسلم (٤٨/١٢).

(١٧٧) سنن البيهقي الكبرى (٧٧/٩، ح١٧٨٦٧)، وهو حديث صحيح.

ليستحد به فأعارته، فغفلت عن صبي لها فدرج إليه حتى أتاه، فأخذه فوضعه على فخذه فلما رأته فزعت فزعاً عرفه، والموسى في يده فقال: أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل إن شاء الله[١٧٨].

فلم يجعله رهينة أو ترساً يهدد به الذين ينشدون قتله ﷺ.

يقول الأستاذ الهندي بيجي رودريك: قوانين الحرب في الإسلام تعتبر أكثر القوانين إنسانية ورأفة، فهي تضمن السلامة التامة للنساء والولدان والشيوخ وجميع غير المحاربين فليس هناك في نظر الإسلام أبشع من جريمة قصف المستشفيات والمدارس وأماكن العبادة ومساكن المدنيين في المنطقة المعادية، وإنما يجعل الإسلام لهذه المرافق الإنسانية قدسيتها ويحذر من المساس بها[١٧٩].

٣- تحريم التمثيل بالمقتولين المحاربين

ومن آداب نبي الإسلام ﷺ في الحرب تحريم التمثيل بمن سقط قتيلاً أو جريحاً على يد المسلمين، حيث نهى النبي ﷺ عن ذلك كما صحَّ عن بريدة مرفوعاً: "اغزوا باسم الله في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلّوا ولا تغدروا ولا تمثّلوا ولا تقتلوا وليداً[١٨٠].

---

(١٧٨) صحيح البخاري (١٤٩٩/٤)، كتاب المغازي، باب غزوة الرجيع، ح(٣٨٥٨).

(١٧٩) انظر: قالوا عن الإسلام ص٢٨٨.

(١٨٠) صحيح مسلم- كتاب الجهاد والسير- باب تأمين الإمام الأمراء حديث رقم١٧٣١.

٤- الترهيب من التعذيب

ثبت عن هشام بن حكيم بن حزام قال: مرَّ بالشام على أناس وقد أقيموا في الشمس وصبَّ على رؤوسهم الزيت، فقال: ما هذا؟ قيل: يعذبون في الخراج. فقال: أما إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن الله يعذب الذين يعذبون في الدنيا"[١٨١].

والخراج: قال الأزهري: الخراج اسم لما يخرج من الفرائض في الأموال... ويقع على الفيء ويقع على الجزية[١٨٢].

٥- أمان الأسير إذا أسلم

إذا أسلم الأسير فإنه يحرم قتله، فقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: "أمرتُ أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويؤمنوا بي وبما جئت به، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله"[١٨٣].

وكذلك في حال عقد الأمان للأسير فإنه لا خلاف بين المسلمين أن الأمان للأسير يعصم دمه[١٨٤].

---

(١٨١) صحيح مسلم (٤/٢٠١٧) كتاب البر، باب الوعيد الشديد لمن عذب الناس بغير حق ح٢٦١٣.

(١٨٢) تهذيب اللغة (٧/٤٧).

(١٨٣) رواه الشيخان، صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ﴾ (١/١٧ح٢٥)، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ (١/٥٢ ح٢١).

(١٨٤) انظر اختلاف الفقهاء ص(٤٢-٤٣)، وبداية المجتهد (١/٣٨٢).

وقد جاءت السنة النبوية في تطبيق الأمان للأسرى، ومنها كما حصل في غزوة بدر فقد كان الأمان، وقبول الفداء للعباس وأبي العاص زوج زينب رضي الله عنها بنت رسول الله ﷺ، وكذلك كان الأمان لنوفل بن الحارث بن عبد المطلب وعقيل بن أبي طالب وعُتبة بن عمرو بن جحدم.

وثبت عن عائشة قالت: لما جاءت أهل مكة في فداء أساراهم، بعثت زينب بنت رسول الله ﷺ في فداء أبي العاص، وبعثت فيه بقلادة كانت خديجة أدخلتها بها على أبي العاص حين بنى عليها، فلما رآها رسول الله ﷺ رَقَّ لها رقة شديدة وقال: "إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردُّوا عليها الذي لها فافعلوا". قالوا: نعم يا رسول الله، وردُّوا عليه الذي لها[(١٨٥)].

وفي هذا الحديث الكريم التطبيق العملي لحق فداء الأسير والتلطف مع الأسرى الذي يبين حكماً شرعياً في جواز أخذ الفداء لإطلاق سراح الأسرى، وفيه أيضاً أنه لا محسوبية ولا منسوبية في السياسة النبوية مع المحاربين حتى لو كانوا من الأقربين، كما رأينا في فداء زوج ابنة رسول الله ﷺ زينب رضي الله عنها، وذلك بعد ما دفعت الحق المطلوب منها،

---

(١٨٥) أخرجه الحاكم (المستدرك ٣/٣٢٤ - كتاب معرفة الصحابة) وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. وله شاهد مختصر بنحوه، وأخرجه الطبراني (المعجم الكبير ١١/١٧١ ح١١٣٩٨). وعزاه الهيثمي للطبراني في الأوسط والكبير وقال: رجال الأوسط رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع (مجمع الزوائد ٧/٢٨)، وأخرجه الطبري بسنده الحسن من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس. وأصل الحديث في (سنن أبي داود ح٢٦٩٢- كتاب الجهاد، باب فداء الأسير بالمال، وحسنه الألباني (صحيح أبي داود ح٢٣٤١).

وكذلك الحال للأسرى من أبناء عمِّ النبي ﷺ، فكان التعامل يتم بالسواسية.

٦- أمان غير المسلم إذا كان رسولاً

سنّ النبي ﷺ هذا الحق ومضت هذه السنة إلى يومنا هذا، كما هو معروف في العلاقات الدولية، وهذا القرار الحكيم هو تمهيد إلى الصلح والمفاوضات، وصحَّ عن نُعيم بن مسعود الأشجعي قال: جاء ابن النواحة وابن أثال رسولا مسيلمة إلى النبي ﷺ فقال لهما: أتشهدان أني رسول الله؟ قالا: نشهد أن مسيلمة رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: آمنت بالله ورسوله لو كنت قاتلاً رسولاً لقتلتكما.

رواه الإمام أحمد وقال ابنه عبد الله: فمضت السُّنَّة أن الرسل لا تقتل[١٨٦].

وهذا الحديث صريح في تحريم قتل الرسل حتى لو أعلنوا الكفر جهاراً نهاراً، وفي ذلك قمة السماحة والمرونة السياسية في الإسلام؛ لأن هذا الرسول الذي أعلن كفره هو وسيط لإبرام معاهدات وعقد صلح وغير ذلك، وهذه السنة النبوية الفعلية للعلاقات الدولية جاءت لتطبيق هذا الحق الذي لا زال قائماً في الأعراف الدولية، إنها دراسة السياسة، هكذا كانت رحمة نبي الحكمة ﷺ.

---

(١٨٦) المسند (٣٩٦/١) وأخرجه أبو داود في سننه، كتاب الجهاد، باب في الرسل ح (٢٣٩٩)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود ح (٢٧٦١).

٧- التشديد على من قتل محارباً أعلن الإسلام وألقى السلام

إن المحارب للمسلمين مهما قتل ومهما فتك إذا قال: لا إلـــه إلا الله، فإنه يُضمن له الأمن، ويكون حاله كحال أي مسلم، سبحان الله! إنهـــا كلمة ينطق بها لسانه، يحمي نفسه من القتل والجراح، بل يكـــون آمنـــاً وأخاً مسلماً، إن هذه الكلمة تزيل تلك العداوة، وتطفي نيران السلاح، من أجل ذلك كان النبي ﷺ شديداً على من خالف هذا الحكم أو أخطأ فيه، ويغضب غضباً شديداً حتى ولو كان من المقربين والمحبين، فقد صحَّ عن أُسامة بن زيد رضي الله عنهما أنه قال: بعثنـــا رســـول الله ﷺ إلى الحرقة فصبحنا القوم فهزمناهم، ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجـــلاً منهم، فلما غشيناه قال: لا إله إلا الله، فكف الأنصاري عنه، فطعنتـــه برمحي حتى قتلته، فلما قدمنا بلغ النبي ﷺ فقال: "يا أُسامة أقتلته بعد مـــا قال: لا إله إلا الله"؟ قلت: كان متعوذاً، فما زال يكررها حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم[(١٨٧)].

٨- عفوه ﷺ عن المنافقين

لقد كانت تحركات المنافقين تحفها الريبة والخيانة، وعلـــى رأســـهم زعيمهم عبد الله بن أُبي بن سلول، الذي انخذل بثلاثمائة من أصحابه يوم أُحد، وهو الذي قال في غزوة المُريسيع (بني المصطلق): ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون/٨]، ومع هذا كله فقد عفا عنهم نبي الرحمة

---

(١٨٧) صحيح البخاري (٤/١٥٥٥)، كتاب الجهاد، باب بعث النبي ﷺ أسامة بن زيد إلى الحرقات، ح(٤٠٢١).

ﷺ، فقد صحَّ عن زيد بن أرقم قال: كنت في غزاة فسمعت عبد الله بن أُبي يقول: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله، ولئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فذكرت ذلك لعمي -أو لعمر- فذكره للنبي ﷺ فدعاني، فحدثته، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عبد الله ابن أُبي وأصحابه فحلفوا ما قالوا، فكذبني رسول الله ﷺ وصدقه، فأصابني همٌّ لم يصبني مثله قط، فجلست في البيت، فقال لي عمي: ما أردت إلى أن كذبك رسول الله ﷺ ومقتك، فأنزل الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۘ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون/١]، فبعث إليَّ النبي ﷺ فقرأ، فقال: "إن الله قد صدقك يا زيد"(١٨٨).

وأما في غزوة أحد فقد انخذلوا، واختلف الصحابة في أمرهم، كما صحَّ عن زيد بن ثابت ﷺ يقول: لما خرج النبي ﷺ إلى أحد، رجع ناس من أصحابه، فقالت فرقة: نقتلهم، وقالت فرقة: لا نقتلهم، فنزلت: ﴿فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [النساء/٨٨](١٨٩). ومع هذا فقد عفا عنهم النبي ﷺ.

وصحَّ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه قال: كنا في غزاة، فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار! وقال المهاجري: يا للمهاجرين! فسمعها رسول الله ﷺ قال:

---

(١٨٨) صحيح البخاري (١٨٥٩/٤)، كتاب التفسير، سورة المنافقون، باب قوله: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۘ﴾ ح(٤٦١٧).

(١٨٩) صحيح البخاري (٦٦٦/٢) كتاب الفضائل، باب المدينة تنفي الخبث، ح(١٧٨٥).

"ما هذا؟" فقالوا: كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فقال النبي ﷺ: "دعوها فإنها منتنة". قال جابر: وكانت الأنصار حين قدم النبي ﷺ أكثر، ثم كثر المهاجرون بعد، فقال عبد الله بن أُبي: أو قد فعلوا والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فقال عمر بن الخطاب ﷺ: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق؟ قال النبي ﷺ: "دعه، لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه"(١٩٠).

٩- عفوه ﷺ عن المشركين

إن اهتمام النبي ﷺ بإفشاء الأمن والسلام جعله يعفو ويتسامح مع الذين يحاربونه من المشركين، فكم عانى النبي ﷺ من أذى المشركين في مكة المكرمة والطائف! ومع هذا فقد عفا عن الطلقاء في مكة، وعفا عن العتقاء في الطائف، فقد صحَّ عنه أنه قال لكفار مكة: "اذهبوا فأنتم الطلقاء"(١٩١). وكذلك قال: "من دخل دار أبي سفيان فهو آمن"(١٩٢).

---

(١٩٠) صحيح البخاري (١٨٦٣/٤) كتاب التفسير، سورة المنافقون، باب قوله: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ ح(٤٦٢٤).

(١٩١) سنن البيهقي الكبرى (١١٨/٩)، باب فتح مكة حرسها الله، ح (١٨٠٥٣).

(١٩٢) صحيح مسلم (١٤٠٥/٣)، كتاب الجهاد والسير، باب فتح مكة، ح(١٧٨٠).

وعندما رجع من غزوة حنين دعا لهم بقوله: "اللهم اهدهم واكفنا مؤنتهم"[١٩٣]، فهو يطلب لهم من الله تعالى الهداية في السلم والحرب، وفي الوقت نفسه يحاول تجنب الحرب معهم.

وحينما حاصر الطائف أمر رسول الله ﷺ منادياً ينادي: أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر، فخرج جماعة فأعتقهم رسول الله ﷺ، ودفع كل واحد منهم رجل من المسلمين يمونه، فشق ذلك على أهل الطائف مشقة شديدة وزاد من ألمهم[١٩٤].

وعدد هؤلاء العتقاء (٢٣) رجلاً[١٩٥].

ولما اشتد البلاء من قريش على رسول الله ﷺ بعد موت عمه خرج إلى الطائف، رجاء أن يؤوه وينصروه على قومه، ويمنعوهم منه، حتى يبلّغ رسالة ربه، ودعاهم إلى الله ﷻ، فلم ير من يؤوي ولم ير ناصراً، وآذوه أشد الأذى، ونالوا منه ما لم ينل منه قومه، وكان معه زيد بن حارثة مولاه.

فأقام بينهم عشرة أيام لا يدع أحداً من أشرافهم إلا كلمه، فقالوا: أخرج من بلدنا، وأغروا به سفهاءهم، فوقفوا له سِماطين، وجعلوا يرمونه بالحجارة وبكلمات من السفه هي أشد وقعاً من الحجارة، حتى

---

(١٩٣) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٤٩/٣) وذكره السيوطي في الخصائص الكبرى (٩٧/٢).

(١٩٤) الطبقات الكبرى لابن سعد (١٥٨/٢-١٥٩).

(١٩٥) ينظر: صحيح البخاري (١٥٧٣/٤) كتاب المغازي، باب غزوة الطائف، ح(٤٠٧٢).

دُميت قدماه، وزيد بن حارثة يقيه بنفسه حتى أصابه شجاج في رأسه، فانصرف إلى مكة محزوناً.

فأرسل ربه تبارك وتعالى إليه ملك الجبال يستأمره أن يطبق الأخشبين على أهل مكة – وهما جبلاها اللذان هي بينهما – فقال ﷺ: "بل استأني بهم، لعلَّ الله أن يخرج من أصلابهم من يعبده، لا يشرك به شيئاً"(١٩٦).

إنه الصبر والعفو عمن ظلمه ورغبته الشديدة في هدايتهم إلى الحق وحبه للسلام جعله يجيب تلك الإجابة الحكيمة.

وعندما علمت قريش بهجرة النبي ﷺ ومعه أبو بكر رضي الله عنه جعلت قريش لمن جاء بواحد من محمد ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه مائة من الإبل، فلما مرُّوا بحي مدلج، بَصُر بهم سراقة بن مالك بن جعشم سيد مدلج، فركب جواده وسار في طلبهم، فلما قرب منهم سمع قراءة النبي ﷺ، وأبو بكر رضي الله عنه يكثر الالتفات حذراً على رسول الله ﷺ، وهو ﷺ لا يلتفت، فقال أبو بكر: يا رسول الله هذا سراقة بن مالك قد رهقنا، فدعا عليه رسول الله ﷺ فساخت يدا فرسه في الأرض فقال: رميت، إن الذي أصابني بدعائكما، فادعوا الله لي، ولكما عليَّ أن أردَّ الناس عنكما، فدعا له رسول الله ﷺ فأطلق، وسأل رسول الله ﷺ أن يكتب له كتاباً، فكتب له أبو بكر في أدم، ورجع يقول للناس: قد كفيتم ما ههنا، وقد جاء مسلماً عام حجة

---

(١٩٦) ينظر صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة حديث رقم (٣٢٣١)، وصحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير – باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين حديث رقم (١٧٩٤).

الوداع ودفع إلى رسول الله ﷺ الكتاب الذي كتبه له، فوفّى له رسول الله ﷺ بما وعده وهو لذلك أهل[١٩٧].

وهذا الموقف أشد من سابقه؛ لأن العدو الذي أراد قتل النبي ﷺ قد عرف ووقع في هذه المهلكة ومع ذلك دعا له وخلصه من موت محقق، إنه العفو عند المقدرة.

وأختم هذا الموضوع بقول المستشرق الأمريكي واشنجتون إيرفنج:

كانت تصرفات الرسول [ﷺ] في أعقاب فتح مكة تدل على أنه نبي مرسل لا على أنه قائد مظفر؛ فقد أبدى رحمة وشفقة على مواطنيه برغم أنه أصبح في مركز قوي، ولكنه توج نجاحه وانتصاره بالرحمة والعفو[١٩٨].

سادساً: رعاية الأسرى: لقد اعتنى الإسلام بالضعفاء جميعاً ومنهم الأسرى وقد حث الله تعالى على الإحسان لهم في ثنائه على المؤمنين الذين يعطون حق الأسير كما في قوله تعالى:﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾[الإنسان/٨].

وقد استجابت الأُمة لهذا الأمر منذ صدر الإسلام إلى يومنا هذا كما هو معروف، ومن ضروب رعاية الأسرى ما يلي:

---

(١٩٧) الفصول ص(١٠٠-١٠٣).

(١٩٨) حياة محمد، ص(٢٣٣).

١- دفاعه عن الأسرى:

ومن شدة عناية النبي ﷺ بالأسرى فإنه يغلظ بشدة على المخطئ في قتلهم ويتبرأ من ذلك، فقد صحَّ عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: (بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جذيمة فدعاهم إلى الإسلام، فلم يحسنوا أن يقولوا: أسلمنا، فجعلوا يقولون: صَبأنا، صَبأنا. فجعل خالد يقتل منهم ويأسر، ودفع إلى كل رجل منا أسيره، حتى إذا كان يوم أمر خالد أن يقتل كل رجل منا أسيره، فقلت: والله لا أقتل أسيري ولا يقتل رجل من أصحابي أسيره. حتى قدمنا على النبي ﷺ فذكرناه، فرفع النبي ﷺ يديه فقال: "اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد مرتين"[١٩٩].

قال الخطابي: أنكر عليه العجلة وترك التثبيت في أمرهم قبل أن يعلم المراد من قولهم صبأنا[٢٠٠].

٢- المن على الأسرى

العفو عن الأسرى بدون قتل وبدون فدية عمل به النبي ﷺ مع كثير من غير المسلمين فقد منّ على كثير من الأسرى وخصوصاً من الذين لا مال لهم جملة وفرادى منهم: ستة آلاف من سبي هوازن[٢٠١]، كما أمر النبي ﷺ زيد بن حارثة أن يطلق سراح كل من أسره من بني جذام

---

(١٩٩) صحيح البخاري – كتاب المغازي – باب السرية التي قبل نجد (٤٣٣٨).

(٢٠٠) فتح الباري (٨/٥٧).

(٢٠١) ينظر: زاد المعاد (٢/١٨٨).

فمنّ عليهم كلهم[٢٠٢]، وكذلك منّ ﷺ على الأسرى والسبايا من بني المصطلق، وقد كان عددهم أكثر من سبعمائة[٢٠٣].

كما منّ على ثمانين أسيراً في صلح الحديبية[٢٠٤].

ومن الذين منّ عليهم فرادى: حنطب بن الحرث، وصيفي بن أبي رفاعة، وأبي عزة عمرو بن عبد الله الجمحي، وأبي العاص بن الربيع، والسائب بن عبيد، وعبيد بن عمرو بن علقمة، وعمرو بن أبن سفيان، وعمير بن وهب بن عمير بن وهب بن خلف[٢٠٥]، وكل هؤلاء لم يأخذ منهم شيئاً.

كما منّ أيضاً على بعض يهود بني قريظة كالزبير بن باطا القرظي، وعطية القرظي، ورفاعة بن سموأل القرظي، وعمرو بن سعد أو سعدي[٢٠٦].

كما منّ على ثمامة بن أثال من بني حنيفة[٢٠٧].

---

(٢٠٢) ينظر الطبقات الكبرى (٢/٨٨)، والسيرة النبوية لابن هشام (٤/٢٨٥).

(٢٠٣) صحيح البخاري (٣/١٢٢)، وعون المعبود (١٠/٤٤٤).

(٢٠٤) صحيح مسلم (٣/١٤٤٢).

(٢٠٥) ينظر السيرة النبوية لابن هشام (٢/٣٠٤-٣٠٩) ونصب الراية (٣/٤٠٥-٤٠٦).

(٢٠٦) ينظر السيرة النبوية لابن هشام ٣/٢٦١- ٢٦٤ والأموال لأبي عبيد ص ١١١-١١٢.

(٢٠٧) صحيح البخاري ٣/١٣٨٦.

٣- إطعام الأسير

وقد حدث أن وقع ثمامة بن أثال أسيراً في أيدي المسلمين فجاؤوا به إلى النبي فقال:"أحسنوا أساره"، وقال:"اجمعوا ما عندكم من طعام فابعثوا به إليه"[٢٠٨].

يقول أبو عزيز بن عمير وكان من أسرى بدر:"كنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر، فكانوا إذا قدموا غذاءهم وعشاءهم خصوني بالخبز وأكلوا التمر، ولوصية رسول الله إياهم بنا، ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحني بها فأستحي فأردها على أحدهم فيردها على ما يمسها"[٢٠٩].

٤- إجارة الثقة للمحاربين

وقد أجمع العلماء على جواز إجارة المرأة والأمان على أحد من الأعداء المحاربين[٢١٠]، واستدلوا بما رواه البخاري بسنده عن أُم هانىء بنت أبي طالب قالت: ذهبت إلى رسول الله ﷺ عام الفتح فوجدته يغتسل وفاطمة ابنته تستره، فسلمت عليه، فقال: "من هذه؟" فقلت: أنا أُم هانىء بنت أبي طالب، فقال: "مرحبا بأُم هانىء"، فلما فرغ من غسله قام فصلى ثماني ركعات ملتحفاً في ثوب واحد، فقلت: يا رسول الله زعم ابن أُمي علي أنه قاتل رجلاً قد أجرته فلان بن هبيرة، فقال رسول

---

(٢٠٨) صحيح مسلم (١٧٦٤).

(٢٠٩) انظر: المعجم الكبير للطبراني (٢٤٨/١٦).

(٢١٠) انظر: الإجماع لابن المنذر، ص٦١.

الله ﷺ: "قد أجرنا من أجرت يا أُم هانىء". قالت أم هـانىء: وذلـك ضحى[٢١١].

قال العيني: وفيه من الفقه جواز أمان المرأة، وأن من أمنته حرم قتله، وقد أجارت زينب بنت رسول الله ﷺ أبا العاص ابن الربيع[٢١٢].

إن هذا الجواز للأمان لهو إقرار صريح لهذا الحق السياسي عند فتـوح البلدان، واستقامة النسوان، وهو من خلق سيد ولد عدنان، الذي سعى لإكرام الإنسان.

ويستنبط من هذا الحديث جواز إجارة الرجال الثقات.

سابعاً: مشروعية الحصانة الدبلوماسية مهما بلغ اشتعال الحرب بـين المسلمين وغيرهم، فإن الرسل لهم خصائصهم بضمان أنفسـهم وعـدم التعرض لهم بأي أذى، وقد حصلت كثير من الوقائع ومنها ما يلي:

١- ما رواه الإمام أحمد عن نعيم بن مسعود قال:"سمعت رسول الله ﷺ حين قرأ كتاب مسيلمة الكذاب قال للرسولين: فما تقولان أنتما؟ قالا: نقول كما قال، فقال رسـول الله ﷺ: "لـولا أن الرسل لا تُقتل لضربت أعناقكما"[٢١٣].

---

(٢١١) صحيح البخاري أبواب الجزية والمعاهدة، باب أمان النساء وجوارهن ح ٣٠٠٠ (١١٥٧/٣)، وأخرجه مسلم، الصحيح، كتاب الصلاة، بـاب اسـتحباب صـلاة الضحى ح ٣٣٦، (٤٩٨/١).

(٢١٢) عمدة القاري (٩٣/١٥).

(٢١٣) الفتح الرباني، أحمد عبد الرحمن البنا (٦٢/١٤).

٢- روى أبو داود بسنده عن حارثة بن مضرب أنه أتى عبد الله- أي ابن مسعود- ما بيني وبين أحد من العرب حِنَةٌ[٢١٤] وإني مررت بمسجد لبني حنيفة فإذا هم يؤمنون بمسيلمة، فأرسل إليهم عبد الله، فجيء بهم فاستتابهم غير ابن النواحة، قال له: سمعت رسول الله ﷺ يقول: لولا أنك رسول الله لضربت عنقك، فأنت اليوم لست برسول، فأمر قرظة بن كعب، فضرب عنقه في السوق، ثم قال: من أراد أن ينظر إلى ابن النواحة قتيلاً في السوق"[٢١٥].

٣- روى الإمام أحمد بسنده عن أبي رافع عن أبيه عن جده أبي رافع قال: "بعثتني قريش إلى النبي ﷺ، فلما رأيت النبي ﷺ وقع في قلبي الإسلام، فقلت: يا رسول الله، لا أرجع إليهم، قال: إني لا أخيس العهد ولا أحبس البرد، ارجع إليهم فإن كان في قلبك الذي فيه الآن فارجع"[٢١٦].

قال الشوكاني بعد أن ذكر الحديثين -الأول والثاني-: (الحديثان يدلان على تحريم قتل الرسل الواصلين من الكفار وإن تكلموا بكلمة الكفر في حضرة الإمام أو سائر المسلمين، والحديث الثالث: فيه دليل

---

(٢١٤) حنة : بكسر الحاء المهملة وفتح النون المخففة أي عداوة وحقد.

(٢١٥) عون المعبود شرح سنن ابن داود (٤٤٣/٧).

(٢١٥) مسند الإمام أحمد، (٨/٦) وانظر عون المعبود (٤٣٧/٧).

على أنه يجب الوفاء بالعهد للكفار كما يجب للمسلمين؛ لأن الرسالة تقتضي جواباً يصل على يد الرسول فكان ذلك بمنزلة عقد العهد)[٢١٧].

وقال ابن مسعود: (جرت سنّة ألا يقتل الرسول)[٢١٨].

وقال يوسف عن الرجل يمر بمواقع المسلمين وهو سفير: (فإن قال أنا رسول الملك، بعثني إلى ملك العرب، وهذا كتابه معي، وما معي من الدواب والمتاع والرقيق فهدية إليه، فإنه يصدق ويقبل قوله، إذا كان أمراً معروفاً، فإن مثل ما معه لا يكون إلا على ما ذكر من قوله، إنما هذه هدية من الملك إلى ملك العرب، لا سبيل عليه، ولا يعرض له ولا لما معه من المتاع والسلاح والرقيق والمال)[٢١٩].

وقال الإمام محمد بن الحسن الشيباني: (ولو أن رسول ملك أهل الحرب جاء إلى عسكر المسلمين، فهو آمن حتى يبلغ رسالته)[٢٢٠].

وقال أيضا: (إن السفير لا يمكن أن يعمل من دون احترام وضمان وحصانة له؛ لأن عمله لا يمكن أن ينجزه من دون مثل هذه الحصانة)[٢٢١].

وقد أجمع فقهاء الإسلام على أن الرسل لا يقتلون[٢٢٢].

---

(٢١٦) نيل الأوطار، للشوكاني (١٨٢/٨).

(٢١٧) الفتح الرباني، أحمد عبد الرحمن البنا (٦٢/١٤).

(٢١٨) الخراج، لأبي يوسف ص(٣٦٥).

(٢١٩) شرح السير الكبير، للشيباني (٢٥١/٢).

(٢٢٠) شرح السير الكبير للشيباني (١٦٦/١).

(١٢١) انظر: نهاية المحتاج، للرملي (٦١/٨)، والمهذب الشيرازي (٢٣٤/٢).

ثامناً: تطبيقات التعامل النبوي مع غير المسلمين بعد العهد النبوي.

إن عناية السنة النبوية بالإنسان عامة وبغير المسلمين خاصة رسخت في نفوس المسلمين؛ إذ أدركت الأمة عظمة ذلك التعامل الذي انبهرت به حضارات العالم لما فيه من الكمال والجمال، وإعطاء كل ذي حق حقه تلك المعالم العظيمة التي نشرت الوئام بين البشرية بمختلف حضاراتها وأدياتها وثقافاتها؛ لذا نجد الوثائق السياسية والوقائع التاريخية حفلت بكثير من التطبيقات العملية من التعامل النبوي مع غير المسلمين في شتى العصور من عهد الخلفاء الراشدين ثم العهد الأموي فالعباسي فالعثماني إلى عصرنا الحاضر، وكتب التاريخ تنطق بذلك.

القسم الثالث: أقوال العلماء والحكّام والشعوب

إن هذه الروايات الصحيحة ذات المعاني الفصيحة من عقيدة هذه الأمة ومن ثوابتها التي تعتز بها فهي تأبى التنقص في نبيها وحبيبها ﷺ.

وحيث إن إثارة تلك الشبهة التي صدرت عن أولئك المذكورين في عرض الشبهة أدت إلى انطباع سلبي تجاه النبي محمد ﷺ فقد تجرأ البعض بعمل بعض الرسوم الكاريكاتيرية التي سخرت من النبي ﷺ ونسبت إليه صور العنف والتفجير، وذلك في بعض الصحف الدانماركية مما أدى إلى غضب عام في العالم، فتواترت الردود في أنحاء العالم على تلك الرسوم على جميع المستويات الحكومية والمؤسسات العلمية والشعبية كما يلي في الدول الآتية:

المملكة العربية السعودية: ندد مجلس الوزراء ومجلس الشورى والمفتي العام للمملكة العربية السعودية ورئيس هيئة كبار العلماء وإدارة البحوث العلمية والإفتاء عبد العزيز بن عبد الله بن محمد آل الشيخ استنكر البهتان العظيم بحكمة، ودعا المسؤولين في حكومة الدانمارك بأن تحاسب الصحيفة التي نشرت هذه الرسوم، وتلزمها بالاعتذار عن جريمتها النكراء، وتوقع الجزاء الرادع على من شارك في إثارة هذا الموضوع[٢٢٣].

الإمارات العربية المتحدة: وزير العدل محمد الظاهري يطلق تسمية "ثقافة الإرهاب" على نشر الصحيفة للصور.

---

(٢٢٣) جريدة الوطن ليوم الأربعاء الموافق ١٤٢٦/١٢/٢٥هـ.

البحرين: طالب برلمان البحرين باعتذار رسمي من ملكة الدانمارك مارغريت الثانية[٢٢٤].

ليبيا: أغلقت سفارتها في الدانمارك، كما أشعلت النار في كل مصالح الدانمارك وإيطاليا في بنغازي، وطردت ليبيا السفير الدانمركي من طرابلس مع وقوع ثورة وأعمال عنف ضد المصالح الإيطالية في ليبيا، وهددت ليبيا بقطع كل المصالح التجارية والنفطية بينها وبين الدانمرك.

الأردن: استدعت الأردن سفيرها في الدانمارك للتشاور.

اليمن: برلمان اليمن يشجب صحيفة يولاندس بوستن مع وقوع احتجاجات شعبية كبيرة.

إندونيسيا: صرح الرئيس سوسيلو بانبانغ يودهونو بأن حكومته تشجب قرار الصحيفة بنشر الصور ودعى العالم الإسلامي لتقبل اعتذار الصحيفة.

إيران: سحب محمود أحمدي نجاد سفير إيران في الدانمارك ودعا إلى إلغاء العقود التجارية بين إيران والدانمارك.

لبنان: صرح وزير الخارجية اللبناني أن حدود حرية التعبير يجب ألا تتجاوز على المعتقدات الدينية.

ماليزيا: صرح رئيس الوزراء أن نشر الصور هي محاولة متعمدة للإساءة.

---

(٢٢٤) ينظر موقع www.wayakonline.com ٢٠٠٨/٣/١١م ١٠:٠٥-٢٨ وياك أون لاين.

باكستان: بيان من البرلمان بشجب قرار صحيفة يولانـــدس بوســـتن بنشرها للصور.

بنغلاديش: صرح وزير الخارجية مرشد خان أن برلمان بلاده تطالـــب الحكومة الدانمركية بتقديم اعتذار للمسلمين.

أفغانستان: أطلق حامد قرضاي تسمية "غلطة" على قـــرار صـــحيفة يولاندس بوستن بنشر الصور الكاريكاتيرية وأعرب عن أمله أن تـــؤدي هذه الضجة إلى مواقف " أكثر مسؤولية" من الإعلام العالمي في المستقبل.

تركيا: صرح رئيس الوزراء رجب طيـــب أردوغـــان أن الصـــور الكاريكاتيرية هجوم على القيم الروحية للمسلمين، ويجـــب أن يكـــون هناك حدود لحرية الصحافة، وأن المسلمين لم يتهجموا على السيد المسيح النبي عيسى ابن مريم.

سوريا: قامت سوريا بسحب سفرها من الدانمرك.

سنغافورة: صرح وزير الخارجية ووزير الدولة للشؤون الإسلامية أن الضجة أسفرت عن حاجة ملحة لاحترام العقائد الدينيـــة والخصـــائص العرقية من قبل وسائل الإعلام.

فنلندا: انتقد وزير الخارجية الفنلندي الحكومة الدانمركية لعدم فعاليتها في حل الأزمة.

فرنسا: دعم وزير الخارجية الفرنسية حق حرية الصحافة بشـــرط أن تحترم المعتقدات الدينية.

ألمانيا: المستشارة أنجيلا ميركل صرحت أنها تتفهم الإساءة التي لحقت بمشاعر المسلمين، ولكنها شجبت ردود الفعل العنيفة.

روسيا: صرح الرئيس الروسي فلاديمير بوتين أن الحكومة الدانمركية تستعمل حجة حرية الرأي للدفاع عن الصحيفة التي أهانت المسلمين، وإن تلك الفعلة غير أخلاقية.

المملكة المتحدة: وزير الخارجية جاك سترو انتقد الصحف التي نشرت الصور، وأثنى على الصحف التي امتنعت عن نشرها، وطالب بالهدوء مع رفع حالة الطوارئ في البلاد.

الولايات المتحدة: نشرت الخارجية الأمريكية تصريحاً تنص على أن حرية رأي الصحافة يجب أن يكون موازياً مع الشعور بالمسؤولية. من جهة أخرى شجب الرئيس السابق بيل كلينتون نشر مثل هذه الرسوم وقال: إن " نشر هذه الرسوم خطأ"، وإنها"تضر بالحوار بين الثقافات".

هولندا: صرح رئيس الوزراء جان بيتر بأنه في العالم الغربي يلجأ الناس إلى المحاكم لحل النزاعات وأن لغة التهديد والوعيد والعنف لا مكان لها في المجتمع الأوروبي.

بولندا: صرح رئيس الوزراء كازيميريز مارسينكيويج أن الصور الكاريكاتيرية بنظره ليست من الضرورة أن يكون القصد من ورائها

الإساءة، لكن بلاده آسفة إن كان نشر الصور في جرائد بولندية قد جرح مشاعر المسلمين[٢٢٥].

أما ردود العلماء فقد احتج العلماء في أقطار الأرض، ومنهم سماحة مفتي المملكة العربية السعودية الشيخ عبد العزيز بن عبد الله آل الشيخ، وأمين عام رابطة العالم الإسلامي معالي الأستاذ الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، وفضيلة شيخ الأزهر سيد طنطاوي حفظهم الله، وكان احتجاجهم في غاية الحكمة والسماحة بالعبارات الهادئة الهادفة.

والحقيقة التي ينبغي أن تؤخذ بعين الاعتبار أن الأُمَّة بعوامها ومثقفيها وجميع شرائحها إذا سمعوا شيئاً يمس شخصية نبيهم ﷺ فإنهم يتأثرون ويغضبون، ويفدون أرواحهم من أجله، ولولا تهدئة العوام من قِبل العلماء والحكام لحدثت اضطرابات وعمّت الفوضى.

إن الإنكار على نبي الحكمة بأنه استخدم السيف والقوة لهو اعتراض على أمر الله تعالى، وإنكار على بقية الأنبياء الذين استخدموا تلك القوة، فقد استطاع سليمان ﷺ أن يقهر أعداءه بالقوة التي كان يتمتع بها، فقد سخر الله تعالى له أشياء كثيرة، وكذلك داود استطاع بحنكته العسكرية قتل جالوت رأس الكفر آنذاك، وبذلك انتصر طالوت والمؤمنون معه، وهذه الأخبار معروفة عند أهل الكتاب[٢٢٦]، وهي أيضاً وردت في

---

(٢٢٥) نقلاً من رسالة: نصرة الله تعالى نبيه محمد ﷺ، للدكتورة حنان بنت بنية الجهني ص٣١٧-٣٢٠.

(٢٢٦) العهد القديم، سفر الملوك (١٠:٢٢)، كما في قاموس الكتاب المقدس ص(٤٨٢).

القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿ ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴾ [النمل/٣٧].

ولو تتبعنا غزوات النبي ﷺ نجد أن معظمها كان صلحاً، وما كان بالسيف فهو لأسباب وجيهة، فكان قتاله إما لعدوٍ يعد العدة ضد المسلمين، أو بسبب التحالف مع الأعداء، أو بسبب التآمر على قتل نبي الرحمة ﷺ، أو للدفاع عن دولة الإسلام، فلم يقاتل إلا المحاربين.

وأخيراً: فالتنقص من نبي الرحمة هو مناسبة سانحة للملحدين الذين يعادون الأنبياء، فقد استغل الملحدون في برلين هذه الإشاعة فازداد التحدي على المسلمين والمسيحيين، وذلك في يوم الثلاثاء ٢٠٠٦/١١/٢٦م، فقد عقدت مؤسسة للعروض الأوبرالية في برلين مؤتمراً صحفياً أعلنت فيه كرستين هارمز أن إلغاء عروض أوبرا كان سيتم عرضها في الشهر نفسه خشية أن يعدَّها المسلمون استفزازية، وذلك لتضمن العرض المسرحي مشاهداً لقطع رأس الرسول ﷺ وسيدنا عيسى عليه السلام، وهو عرض يقوم على الفكر الإلحادي الذي يعتمد هنا على عبارة نيتشة الفلسفية الشهيرة: "إن الله قد مات"! التي أراد أن يجعلها عنواناً لفلسفته التي لا تعترف إلا بالحسيات[٢٢٧].

(٢٢٧) ينظر مجلة التوحيد ص(٨و٩) مقالة بعنوان: اشتداد الحملة المسعورة على نبي الإسلام. إعداد رئيس التحرير للمجلة – جمال سعد حاتم.

وأذكّر أهل هذه الإشاعة بموقف المسلمين من فيلم المسيح الذي قـــام به بعض اليهود، فقد هبَّ المسلمون في الرد على ذلك الفعل الشـــنيع، ومنعوا من نشره في العالم الإسلامي.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

المصادر والمراجع

١. آراء المستشرقين حول القرآن والتفسير، د.عمر إبراهيم رضوان، رسالة دكتوراه من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض ١٤١٠هـ، مطبوعة بالحاسوب.

٢. الاستشراق في السيرة النبوية، عبد الله محمد النعيم، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ١٤١٧هـ.

٣. الإسلام في المناهج الغربية المعاصرة، د.محمد وقيع الله أحمد، طبعة جائزة الأمير نايف بن عبد العزيز العالمية، ط١، ١٤٢٧هـ.

٤. الإسلام والمسيحية د.إليسكي جورافيسكي، كتاب رقم ٢١٥ من سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، نوفمبر١٩٩٦م

٥. الاهتمام بالسيرة النبوية باللغة الإنكليزية، أ.د.محمد مهر علي

٦. الاهتمام بالسيرة النبوية باللغة الفرنسية، د.حسن إدريس عزوزي، هذه البحوث مقدمة لندوة عناية المملكة العربية السعودية بالسنة النبوية، والتي أقيمت في مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف في الفترة ١٥-١٧/٣/١٤٢٥هـ.

٧. تراث الإسلام، تأليف جمهرة من المستشرقين بإشراف سير توماس أرنولد، تعريب وتعليق جرجيس فتح الله، دار الطليعة، بيروت، ط٢، ١٩٧٢م.

٨. الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، آدم متز، ترجمة محمد عبدالهادي أبو ريدة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط٣، ١٩٧٥م.

٩. حضارة العرب، كوستاف لوبون، ترجمة عادل زعيتر، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط٣.

١٠. الحوار المسيحي الإسلامي استناداً إلى تصورات المسيحية عن المسلمين، للباحثة دعاء محمود فينو، والمنشور في مجلة إسلامية المعرفة، العدد ٤٤، ربيع ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م

١١. حياة محمد، واشنجتون إيرفنج، ترجمة علي حسين الخربوطلي، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٦٢م.

١٢. الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، رودي بارت (المستشرقون الألمان منذ تيودور نولدكه)، ترجمة د.مصطفى ماهر، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٧م.

١٣. الدعوة إلى الإسلام، سير توماس أرنولد، بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية، ترجمة وتعليق د.حسن إبراهيم حسن ورفاقه، الطبعة الثالثة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧١م.

١٤. دفاع عن الإسلام، لورافيشيا فاغليري، ترجمة منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط٣، ١٩٧٦م.

١٥. رجال ونساء أسلموا، عرفات كامل العشّي، دار القلم، الكويت ١٩٧٣-١٩٨٣م.

١٦. السنن الكبرى - للإمام البيهقي ومعه الجوهر النقي - للعلامة المارديني - تحقيق عبد القادر عطا - طبعة دار الفكر.

١٧. صحيفة ماينتشي Mainchi اليابانية. بتاريخ ٢٠٠٦/١٠/١٦م.

١٨. قالوا عن الإسلام، د. عماد الدين خليل، الندوة العالمية للشباب الإسلامي الرياض ط١، ١٤١٢هـ.

١٩. قاموس الكتاب المقدس، تأليف نخبة من أساتذة اللاهوت، دار الثقافة، القاهرة، ط٨.

٢٠. القرآن الكريم والعلم العصري، موريس بوكاي، ترجمة فودي سوربيا كمارا، دار المآثر، المدينة النبوية، ط١، ١٤٢٠هـ.

٢١. مجلة التوحيد، مجلة إسلامية شهرية تصدر عن جماعة أنصار السنة المحمدية بالقاهرة، العدد٤١٨، شوال١٤٢٧هـ.

٢٢. محمد في مكة، مونتكمري وات، تعريب شعبان بركات، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.

٢٣. مختصر دراسة التاريخ، أرنولد توينبي، ترجمة فؤاد محمد شبل، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٦٠-١٩٦٥م.

٢٤. المستشرقون، نجيب العقيقي، دار المعارف، القاهرة، ط٣، ١٩٦٤-١٩٦٥م.

٢٥. المستشرقون والسيرة النبوية، عماد الدين خليل، بحث مقارن في منهج المستشرق البريطاني المعاصر، مونتكمري وات، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، ١٩٨٥م.

٢٦. مسند الإمام أحمد بن حنبل، بتحقيق شعيب الأرناؤوط ومجموعة من العلماء، إشراف معالي الأستاذ الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ.

٢٧. من أجل معرفة العبادة والحب، بحث مقدم لندوة بناء المناهج: الأسس والمنطلقات بكلية التربية- جامعة الملك سعود- الرياض سنة ١٤٢٤هـ.

٢٨. مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض ١٤٠٥هـ.

٢٩. مؤتمرات المستشرقين العالمية د عبد المحسن بن علي سويسي – رسالة دكتوراه – جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية – كلية الدعوة قسم الاستشراق بالمدينة المنورة.

٣٠. موسوعة المستشرقين، للدكتور عبد الرحمن بدوي، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٨٤م.

٣١. نصرة الله تعالى نبيه محمد ﷺ، للدكتورة حنان بنت بنية الجهني. كلية الآداب جامعة طيبة.

فهرس الموضوعات

م	الموضوع	الصفحة
١	المقدمة	٣
٢	عرض الشبهة	٥
٣	الرد على الشبهة	١٠
٤	القسم الأول: شهادات كبار قومهم من العلماء والساسة والفلاسفة.	١٥
٥	القسم الثاني:الأحاديث النبوية الشريفة الصحيحة	٢٧
٦	أولاً: النهي عن تمنى لقاء العدو وعن الإضرار وعن العنف	٢٩
٧	ثانياً: تعامله في تقديم الحوار من أجل الصلح	٣٣
٨	ثالثاً: تعامله ﷺ في الهدنة والأمان	٣٩
٩	رابعاً: تعامله الاجتماعي	٤٤
١٠	خامساً: إعطاؤه ﷺ الحريات	٥٩
١١	سادساً: الدفاع والقتال عن أهل الذمة	٦٥
١٢	سابعاً: احترامه ﷺ الموتى منهم	٦٧
١٣	ثامناً: تعامله ﷺ مع غير المسلمين في اجتناب الحرب	٦٩
١٤	تاسعاً: الاجارة والاستئجار	٧٠
١٥	عاشراً: تعامله مع المشركين	٧١
١٦	القسم الثالث: أقوال العلماء والحكام والشعوب	١٠٤
١٧	المصادر والمراجع	١١١

المملكة العربية السعودية
جامعة الملك عبد العزيز
معهد البحوث والاستشارات
كرسي المعلم محمد عوض بن لادن للدراسات القرآنية

مكتبة المسجد النبوي الشريف
رقم الكتاب ١٢٢٩٨٥
تاريخ التسجيل ١٤٢٥/١/٢

سلسلة الرد على الشبهات

(٣)

الرد على شبهة الاعتراض على الحدود الشرعية

٢٤١٦٢

إعداد

أ. د. حكمت بن بشير بن ياسين

أستاذ كرسي المعلم محمد عوض بن لادن للدراسات القرآنية

مراجعة

د. محمد بن عبدالله الحلواني

المشرف على الكرسي ورئيس قسم الدراسات الإسلامية سابقاً

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

كرسي المعلم محمد عوض بن لادن للدراسات القرآنية

هاتف: ٦٩٥٢٠٠٠ تحويلة: ٦٧٢٤٦ / فاكس: ٦٩٥٢٠٠٠ تحويلة: ٦٨٨٥٧

ص.ب٨٠٢٠٢ جدة ٢١٥٨٩ جوال: ٠٥٠٣٤٠٩٢٨٩

الموقع الإلكتروني : http://binladenchair-qs.kau.edu.sa

بريد إلكتروني : quran.s.c@hotmail.com

مقدمـــة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله ومن والاه، أما بعد:

فهذا البحث يتضمن الردَّ على شبهة الاعتراض على إقامـــة الحـــدود الشرعية، وذلك من خلال سلسلة الـــرد على الشبـــهات، ضمن أعمال " كرسي المعلم محمد عوض بن لادن للدراسات القرآنية ".

وأتقدم بالشكر الجزيل لرعاة الكرسي، سعادة المهندس بكر بن محمد بن عوض بن لادن مدير عام ورئيس مجلس إدارة مجموعـــة ابـــن لادن السعودية، وسعادة المهندس يحيى بن محمد عوض بن لادن، رئيس مجلس الإدارة والمدير العام بالنيابة، ويرحم الله تعالى والـــد القـــائمين علـــى الكرسي: المعلم محمد عوض بن لادن، ذلك الرجل الذي سُمي الكرسي باسمه، والشكر موصول لسعادة الأستاذ الدكتور عبد اللطيف خمـــاخم مستشار مجموعة ابن لادن السعودية، ونائب الرئيس للتطـــوير الإداري على جهوده المباركة في عنايته وتقديره لهذا الكرســـي، كمـــا أتقـــدم بالشكر الجزيل لمعالي مدير الجامعة الأستاذ الدكتور/ أسامة بن صـــادق طيب، ولسعادة الدكتور/ أحمد بن حامد نقادي وكيل الجامعة للأعمال والإبداع المعرفي، ولسعادة الأستاذ الدكتور/ عبدالملك بن علي الجنيدي عميد معهد البحوث والاستشارات ووكيليه: سعادة الدكتور/ عبدالله بن أحمد الغامدي، وسعادة الدكتور/ هيثم بن حسن لنجاوي، وإلى أصحاب السعادة أعضاء لجنة أبحاث الكراسي العلمية بالجامعة، والشكر الجزيل إلى سعادة الدكتور/ محمد بن عبدالله الحلواني المشرف على الكرسي الـــذي

بذل جهداً مشكوراً في مراجعة هذا البحث، وللشيخ الفاضل/ إبـــراهيم بن محمد أول الباحث المساعد الذي قام بالتنسيق الطباعي.

والله تعالى ولي التوفيق،،،

أ.د. حكمت بن بشير بن ياسين

أستاذ كرسي المعلم محمد عوض بن لادن

للدراسات القرآنية

الرد على شبهة الاعتراض على إقامة الحدود الشرعية

خلق الله تعالى الإنسان وأنزل القرآن، وشرع فيه أحكاماً تستقيم بها الحياة الدنيا، ومن هذه الأحكام: إقامة الحدود التي تسهم إسهاماً عظيماً في تحقيق مقاصد الشريعة الخمسة، وهي: حفظ الدين والنفس والمال والعقل والعرض، فإقامة الحدود تحافظ على هذه الضرورة من عدة محاور.

ومع هذه المحافظة الجادَّة على الضرورات الخمس، فإن بعض الفئات من أرباب القوانين الوضعية تعصف رياحها، فتثير الزوابع لنقد هذه الأحكام القرآنية الحكيمة، فتارة تصفها بالرجعية، وتارة تزعم أنها تعطل تنمية الموارد البشرية، وتشوه بعض أجزاء بدن الإنسان، وتحط من قدر كرامة الإنسان، والجواب عنها في المسائل الست الآتية:

أولاً: قلة تنفيذ الحدود الشرعية:

إن إقامة الحدود الشرعية لا تنفذ إلا في نطاق ضيق محدود؛ فقد يظن بعض الناس أن إقامة الحدود في الإسلام كإقامة الصلاة في كثرتها، والحق أن أحكام الشريعة الإسلامية تعد بالمئات، لكن عدد الحدود التي تقام هي سبعة: الحرابة (قطع الطريق)، والردة، والبغي، والزنى، والقذف، والسرقة، وشرب الخمر.

وعند تنفيذها لا يمكن ذلك إلا بعد مراحل وضوابط، وذلك بعد التأكد من وقوع الجريمة، وإقامة الحجة على الجاني؛ كالاعتراف، أو الشهادة عليه، وقد يصل عددهم إلى أربعة شهود في جريمة الزنى،

ويشترط فيهم العدالة وعدم التهمة، مما يدل على التحري والتثبت والاحتياط بهذا العدد الذي انفرد عن بقية الجرائم الأخرى.

(والحكمة في ذلك أن الله تعالى يحب الستر، كما أن جريمة الزنى لا تقع إلا من اثنين، فكأن كل شاهدين يشهدان على أحدهما)[1].

قال ابن القيم – رحمه الله –: وكان من تمام حكمته ورحمته أنه لم يأخذ الجناة بغير حجة، كما لم يعذبهم في الآخرة إلا بعد إقامة الحجة عليهم، وجعل الحجة التي يأخذهم بها: إما منهم وهي الإقرار، أوما يقوم مقامه من إقرار الحال، وإما أن تكون الحجة من خارج عنهم، وهي البيِّنة، واشترط فيها العدالة، وعدم التهمة، فلا أحسن في العقول والفطر من ذلك، ولو طلب منها الاقتراح لم تقترح أحسن من ذلك، ولا أوفق منه للمصلحة[2].

وعلى سبيل المثال على قلة تنفيذ الحد لهذه الجريمة، فإنه منذ أن نزل حد الزنى لم نسمع في تاريخ أُمة الإسلام أن أُقيم حد الزنى بتوافر أربعة شهود، وكذلك لم تحدَّ امرأة حتى لو تمت عليها الشهادة كما في الملاعنة إذا لم تقر بهذه الجريمة، فقد ثبت أن النبي ﷺ لم يقم الحد على المرأة في قصة الملاعنة وذلك: أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي ﷺ بشريك ابن سحماء، فقال النبي ﷺ: " البينة أوحدٌّ في ظهرك". فقال: يا رسول الله إذا رأى أحدنا على امرأته رجلاً ينطلق يلتمس البينة ؟ فجعل النبي ﷺ يقول: " البينة وإلا حَدٌّ في ظهرك ". فقال هلال: "والذي بعثك بالحق

---

(١) وسائل الإثبات ص ١٦٠.

(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين ٢ / ١١٩.

إني لصادق، فلينـــزلن الله ما يبرئ ظهري من الحد، فنـــــزل جبريـــل وأنزل عليه: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ ﴾[النـــور: ٦]، فقرأ حتى بلغ ﴿ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾[النـــور: ٩]، فانصرف النبي ﷺ فأرسل إليها، فجاء هـــلال فشهد، والنبيﷺ يقول: " إن الله يعلم أن أحدكما كاذب، فهل منكمـــا تائب " ؟ ثم قامت فشهدت ؟ فلما كانت عند الخامسة وقفوها وقالوا: إنها موجبة. قال ابن عباس: فتلكّأت ونكصت حتى ظننا أنها ترجـــع، ثم قالت: لا أفضـــح قومـــي سائر اليوم، فمضـــت. فقـــال الـــنبي ﷺ: " أبصروها، فإن جاءت به أكحل العينين سابغ الإليتين خدلّج الساقين فهو لشريك ابن سحماء "، فجاءت به كذلك، فقال النبي ﷺ: " لولا ما مضى من كتاب الله لكان لي ولها شأن " (٣).

ويستفاد من هذا الحديث الشريف احترام مكانة المرأة وعدم إهـــدار كلمتها ودمها حتّى وإن عُلم أنها كاذبة.

وحتى لو ثبتت جريمة الزنى بالاعتراف، وأقيم حد الرجم، فإن هـــذا الزاني الذي يرجم لو طلب منهم التوقف عن ذلـــك لإدلاء مـــا عنـــده ما يدفع عنه، فينبغي أن يوقف الرجم ويُسمع منه هل ما يقوله يعتد به أو لا ؟

---

(٣) صحيح البخاري ٨ / ٣٠٣ - ٣٠٤ ح ٤٧٤٧ - كتاب التفسير، سورة النور الآية نفسها، ومعنى: سابغ عظيم، ومعنى خدلّج: ممتلئ.

وقد صحَّ أن ماعز بن مالك فـرّ حـين وجـد مـسّ الحجـارة ومسّ الموت، فقال رسول الله ﷺ: " هلاّ تركتموه ؟ "[٤].

وفي رواية ابن إسحاق بسند جيـد: " فوجـد مـسّ الحجـارة صرخ بنا: يا قـوم ردّوني إلى رسـول الله ﷺ فـإن قـومي قتلـوني وغروني مـن نفسـي، وأخـبروني أن رسـول الله ﷺ غـير قـاتلي، فلم ننـزع عنـه حـتى قتلنـاه. فلمـا رجعنـا إلى رسـول الله ﷺ وأخبرناه قال: " فهلا تركتموه وجئتموني بـه ؟ ليسـتثبت رسـول الله ﷺ منه"[٥].

قال الخبير القانوني معالي الأستاذ عبد الله بن الشيخ محفوظ بن بيَّـة: (إن الغاية الكبرى والهدف الأسمى للتشريع الجنائي هو تقليـل الجريمـة والحدُّ من الإجرام للمحافظة على حقوق الإنسان في الحيـاة والأمـن، وحقه في المحافظة على ملكيته، وحقه في صيانة نسله، وهو حق لم يراع بما فيه الكفاية في التشريع الجنائي الوضعي، وبقدر ما يـنجح التشـريع الجنائي في المحافظة على هذه الحقوق يكون نجاحه أو فشله.

وإذا كان التشريع الإسلامي قد حـارب الاعتـداء علـى هـذه الحقوق وبلا هوادة فيها بتطبيق عقوبات قوية، فإنـه أسـرع بعـض النوافذ في وجه مرتكبي بعض الجرائم العظيمـة لتـدارك الخطـأ، ممـا

---

(٤) رواه أحمد وابن ماجه والترمذي وحسنه وصححه الألباني (إرواء الغليل ٨ / ٢٨ ح ٢٣٦٠).

(٥) قال الشيخ الألباني: وهذا إسناد جيد. (إرواء الغليل ٧ / ٣٥٤).

يدل دلالة واضحة على أن العقوبة المقررة تهدف أساساً إلى إصلاح الجانح وصلاح المجتمع(٦).

ثانياً: عدم إقامة الحدود عند الضرورة والشبهة:

لا تقام الحدود عند الضرورات وعند الشبهات، فقد راعى الإسلام عدم إقامة الحدود في حالات الضرورة وفي حالة الإكراه والجوع والفقر، وورد في القرآن الكريم عدة آيات في ذلك منها قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٧٣]، وقوله تعالى: ﴿ قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

قال القرطبي: الاضطرار لا يخلو أن يكون بإكراه من ظالم أو بجوع في مخمصة.

والذي عليه الجمهور من الفقهاء والعلماء في معنى الآية هو من صيره العُدْم والغَرَث وهو الجوع إلى ذلك، وهو الصحيح.

وقيل: معناه أُكره وغُلب على أكل هذه المحرمات.

---

(٦) حوار عن بعد حول حقوق الإنسان في الاسلام ص ٨٧.

قال مجاهد: يعني أُكره عليه كالرجل يأخذه العدو فيكرهونه على لحم الخنـــزير وغيره من معصية الله تعالى، إلا أن الإكراه يبيح ذلك إلى آخر الإكراه.

وأما المخمصة فلا يخلو أن تكون دائمة أو لا، فإن كانـــت دائمـــة فلا خلاف في جواز الشبع من الميتة، إلا أنه لا يحلُّ له أَكْلُها وهو يجـــد مال مسلم لا يخاف فيه قطعاً[٧].

وثبت عن أبي واقد الليثي أنه قال: قلت: يا رسول الله، إنَّا بـــأرض تصيبنا بها مخمصة، فما يحل لنا من الميتة ؟ قـــال: " إذا لم تصـــطبحوا و لم تغتبقوا و لم تحتفئوا بقلاً فشأنكم بها "[٨].

قال العيني: المخمصة: ضمور الـــبطن مـــن الجـــوع. قولـــه: " إذا لم تصطبحوا " يعني به الغداة. " و لم تغتبقوا " يعني به العشـــاء. قولـــه: " لم تحتفئوا بقلاً " أي لم تَقْلوه وترموا به، من جفأت القـــدر إذا رمـــت ما يجتمع على رأسها من الزبد والوسخ، ومادته جـــيم وفـــاء وهمـــزة. " فشأنكم بها " أي الميتة استمتعوا بها غير مضيق عليكم.[٩]

---

(٧) الجامع لأحكام القرآن ٢/٢٢٥.

(٨) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٥/٢١٨، ح ٢١٩٤٨. وهو إسناد صحيح على شرط الشيخين (عمدة القاري للعيني ٢١/١٤٣).

(٩) عمدة القاري ٢١/١٤٢-١٤٣.

وقد ثبت عن النبي ﷺ: " رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه ".[١٠]

فالمكره على الزنى لا يقام عليه الحد، وكذلك حد السرقة لا يقام في كثير من الحالات، ومنها في المجاعة كعام الرمادة في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

قال الحافظ ابن رجب: الخطأ: هو أن يقصد بفعله شيئاً، فيصادف فعله غير ما قصده، مثل: أن يقصد قَتْل كافرٍ، فيصادف قَتْلُه مسلماً.

والنسيان: أن يكون ذاكراً لشيء، فينساه عند الفعل، وكلاهما معفو عنه، بمعنى أنه لا إثم فيه ولكنَّ رَفْعَ الإثم لا ينافي أن يترتب على نسيانه حكم.

كما أن من نسي الوضوء، وصلى ظاناً أنه متطهر، فلا إثم عليه بذلك، ثم إن تبين أنه كان قد صلى محدثاً فإن عليه الإعادة. [١١]

قال ابن حجر: ما يقع عن خطأ أو نسيان أو إكراه فهذا القسم معفو عنه باتفاق، وإنما اختلف العلماء هل المعفو عنه الإثم أو الحكم، أو هما معاً؟ وظاهر الحديث الأخير وما خرج عنه كالقتل فله دليل منفصل[١٢].

---

(١٠) أخرجه أبو داود في السنن - الحدود - باب في الحد يشفع فيه ح ٤٣٧٥، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد ح ٤٦٥، وابن حبان في صحيحه (الإحسان ح ١٥٢٠)، وقواه ابن حجر، وحسنه صلاح الدين العلائي (انظر بذل المجهود ٣١٦/١٧) وصححه الألباني بمجموع طرقه (السلسلة الصحيحة ح٦٣٨).

(١١) جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم ٣٦٦/٢.

(١٢) فتح الباري ١٦١/٥.

قال الحافظ ابن رجب: حكم المكره: وهو نوعان:

أحدهما: من لا اختيار له بالكلية، ولا قدرة له على الامتناع، كمن حمل كرهاً وأدخل إلى مكان حلف على الامتناع من دخوله، أو حمل كرهاً، وضرب به غيره حتى مات ذلك الغير، ولا قدرة له على الامتناع ... فهذا لا إثم عليه بالاتفاق، ولا يترتب عليه حنث في يمينه عند جمهور العلماء.

والنوع الثاني: مَنْ أَمَرَه بضرب أو غيره حتى فعل، فهذا الفعل يتعلق به التكليف، فإنه يمكنه ألاَّ يفعل فهو مختار للفعل، لكن ليس غرضه الفعل نفسه؛ بل دفع الضرر عنه، فهو مختار من وجه، غير مختار من وجه، ولهذا اختلف الناس هل هو مكلف أو لا ؟

واتفق العلماء على أنه لو أكره على قتل معصوم لم يبح له أن يقتله، فإنه إنما يقتله باختيار افتداء لنفسه من القتل، هذا إجماع من العلماء المعتد بهم (١٣).

وأما الإكراه على الأقوال، فاتفق العلماء على صحته، وأن من أكره على قول محرم إكراهاً معتبراً أن له أن يفتدي نفسه به، ولا إثم عليه، وقد دل عليه قول الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦].

وأما ما روي عن النبي ﷺ أنه وصى طائفة من أصحابه، وقال: "لا تشركوا بالله وإن قطعتم وحرقتم "، فالمراد الشرك بالقلوب،

(١٣) جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم ٢/ ٣٧٠-٣٧١.

كما قال تعالى: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾ [لقمان: ١٥]. وقال تعالى: ﴿ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل: ١٠٦] (١٤).

وقد درس أ. د. وهبة الزحيلي حالات الضرورة وتوصل إلى أربع عشرة حالة وهي: ضرورة الغذاء (الجوع أو العطش) والدواء، والإكراه، والنسيان والجهل، والعسر أو الحرج وعموم البلوى، والسفر، والمرض، والنقص الطبيعي (١٥).

فكل هذه الحالات لها أحكامها ورخصها وتسهيلاتها وعدم المؤاخذة فيها، وهذا من عظمة هذا الدين أن يراعيَ هذه الحالات وما فيه من السماحة والعفو والتوسيع على الناس وعدم التضييق والتشديد والحرج.

قال الفقيه القانوني الفرنسي لامبير : تعتبر نظرية الضرورة في الفقه الإسلامي أكثر جزماً وشمولاً من فكرة وجد أساسها في القانون الدولي العام في نظرية الظروف المتغيرة (شرط بقاء الحال على ما هو عليه)، وفي القضاء الإداري الفرنسي في نظرية الظروف الطارئة، وفي القضاء الإنجليزي فيما أدخله من المرونة على نظرية إيقاف تنفيذ الالتزام تحت ضغط الظروف الاقتصادية التي نشأت بسبب الحرب، وفي القضاء الدستوري الأمريكي في نظرية الحوادث المفاجئة(١٦).

---

(١٤) جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم ٢/٣٧٢-٣٧٣.

(١٥) انظر: نظرية الضرورة الشرعية ص ٧٣، ٧٤.

(١٦) انظر: المصدر السابق ص ٣١٥.

ونجد تأثر المدرسة القانونية الألمانية، وكذلك المدرسة القانونية الفرنسية الإنجلو سكسونية بالفقه الإسلامي في نظرية الضرورة الشرعية.

يقول أ. د. وهبة الزحيلي: تقوم نظرية الضرورة في القانون العام على نفس الأسس التي يبنى عليها حق الدفاع الشرعي في القانون الجنائي؛ لأن دفاع الدولة عن نفسها كدفاع الإنسان عن نفسه ضد ما تهدده من أخطار.

ويقول المستشرق لويس يونغ:

إن أشياء كثيرة لا يزال على الغرب أن يتعلمها من الحضارة الإسلامية منها نظرة العرب المتسامحة (١٧).

وهكذا نرى في هذا الحديث الشريف مراعاة الظروف الطارئة على الإنسان التي تخرج عن نطاق استطاعته، ويُعَدُّ قاعدة مهمة استفاد منها أرباب القانون.

وقد ذكر سلطان العلماء العز بن عبد السلام قواعد مهمة في ضروب الضرورة فقال: (فصل في اجتماع المفاسد المجردة عن المصالح): إذا اجتمعت المفاسد المحضة فإن أمكن درؤها درأنا، وإن تعذر الجميع درأنا الأفسد فالأفسد والأرذل فالأرذل، فإن تساوت فقد يتوقف وقد يتخير وقد يختلف في التساوي والتفاوت، ولا فرق في ذلك بين مفاسد المحرمات والمكروهات، ولاجتماع المفاسد أمثلة: أحدها أن يكره على قتل مسلم بحيث لو امتنع منه قتل، فيلزمه أن يدرأ مفسدة القتل بالصبر على القتل؛ لأن صبره على القتل أقل مفسدة من إقدامه عليه، وإن قدر

(١٧) انظر: العرب وأوروبا ص (١٠) نقلاً عن قالوا عن الإسلام ص (٣٢٧).

على دفع المكروه بسبب من الأسباب لزمه ذلك لقدرته على درء المفسدة، وإنما قدم درء القتل بالصبر لإجماع العلماء على تحريم القتل واختلافهم في الاستسلام للقتل، فوجب تقديم درء المفسدة للمجمع على وجوب درئها على درء المفسدة المختلف في وجوب درئها.

وكذلك لو أكره على الزنى واللواط فإن الصبر المختلف في جوازه، ولا خلاف في تحريم الزنى واللواط.

وكذلك لو أكره بالقتل على شهادة زور أو على حكم بباطل فإن كان المكره على الشهادة به أو الحكم به قتلاً أو قطع عضو أو إحلال بضع محرم لم تَجُز الشهادة ولا الحكم؛ لأن الاستسلام أولى من التسبب إلى قتل مسلم بغير ذنب، أو قطع عضو بغير جرم، أو إتيان بضع محرم، وإن كانت الشهادة أو الحكم بمال لزمه إتلافه بالشهادة أو بالحكم حفظاً لمهجته، كما يلزمه حفظها بأكل مال الغير.

وكذلك من أكره على شرب الخمر، أو غص ولم يجد ما يسيغ من الغصة سوى الخمر، فإنه لا يلزمه ذلك، لأن حفظ الحياة أعظم في نظر الشرع من رعاية المحرمات المذكورات.

المثال الثاني: إذا اضطر إلى أكل مال الغير أكله، لأن حرمة مال الغير أخف من حرمة النفس، وفوات النفس أعظم من إتلاف مال الغير ببدل، وهذا من قاعدة الجمع بين إحدى المصلحتين وبذل المصلحة الأخرى وهو كثير في الشرع [١٨].

---

(١٨) قواعد الأحكام ١/٧٩-٨٠.

وفيما تقدم يتضح عناية السنة النبوية بالجسد وحمايته من إقامة كثير من الحدود، وتقليل وقوعها بوجود أي شبهة.

كان النبي ﷺ عند وقوع جريمة تقتضي حداً ينظر في سبل الإثبات، فإذا لم يجد فإنه لا يقيم الحد بل يَدْرَأ الحد بالشبهات، كما في قصة الملاعنة التي سيأتي ذكرها في حقوق المرأة في المبحث الثامن، وكما في أمر المقتول من المسلمين عند يهود خيبر، إذ لم يثبت من هو القاتل، فدفع النبي ﷺ الدية لأهل المقتول بمائة من الإبل (١٩).

وفيه درء الحد بالشبهة، وهي قاعدة فقهية مشهورة. وفي ذلك أثر صحيح عن ابن مسعود موقوفاً: " ادرؤوا الجلد والقتل عن المسلمين ما استطعتم "(٢٠).

وصحَّ عن أبي هريرة ﷺ قال: أتى رجل رسول الله ﷺ وهو في المسجد فناداه فقال: يا رسولَ الله إني زنيت، فأعرضَ عنه حتى ردّد عليه أربع مرات، فلما شهد على نفسه أربع مرات دعاه النبي ﷺ فقال: أبك جنون ؟ قال: لا. قال: فهل أحصنت ؟ قال: نعم. فقال النبي ﷺ: " اذهبوا به فارجموه "(٢١).

قال النووي: " أبك جنون "، إنما قاله ليتحقق حاله، فإن الغالب أن الإنسان لا يُصِرُّ على الإقرار بما يقتضي بقتله من غير سؤال، مع أن له طريقاً إلى سقوط الإثم بالتوبة، وفي الرواية الأخرى أنه سأل قومه عنه

---

(١٩) انظر صحيح البخاري – الديات – باب القسامة ح ٦٨٩٨.

(٢٠) أخرجه ابن أبي شيبة والبيهقي بسند ثابت (انظر إرواء الغليل ٨ / ٢٦).

(٢١) صحيح البخاري – الحدود – باب لا يرجم المجنون والمجنونة ح٦٨١٥.

فقالوا: ما نعلم به بأساً، وهذا مبالغة في تحقيق حاله وفي صيانة دم المسلم، وفيه إشارة إلى أن إقرار المجنون باطل، وأن الحدود لا تجب عليه وهذا كله مجمع عليه. قوله ﷺ: " هل أحصنت " فيه أن الإمام يسأل عن شروط الرجم من الإحصان وغيره سواءً ثبت بالإقرار أم بالبينة، وفيه مؤاخذة الإنسان بإقراره(٢٢).

وفي رواية صحيحة أن النبي ﷺ لما أتاه ماعز بن مالك قال: " لعلك قبّلت أو غمزت أو نظرت ؟ ". قال: لا. قال رسول الله ﷺ: " أنكتها؟" - لا يكني - قال: نعم. قال: فعند ذلك أمر برجمه(٢٣).

قال النووي: قوله ﷺ: " فلعلك" قال: لا والله أنه قد زنى الآخر معنى هذا الكلام الإشارة إلى تلقينه الرجوع عن الإقرار بالزنى واعتذاره بشبهة يتعلق بها، كما جاء في الرواية الأخرى " لعلك قبلت أو غمزت " فاقتصر في هذه الرواية على "لعلك " اختصاراً أو تنبيهاً واكتفاء بدلالة الكلام والحال على المحذوف، أي لعلك قبلت أو نحو ذلك، ففيه استحباب تلقين المقر بحد الزنى والسرقة وغيرهما من حدود الله تعالى، وأنه يقبل رجوعه عن ذلك، لأن الحدود مبنية على المساهلة، والدرء بخلاف حقوق الآدميين، وحقوق الله تعالى المالية كالزكاة والكفارة وغيرهما لا يجوز التلقين فيها، ولو رجع لم يقبل رجوعه، وقد جاء تلقين

---

(٢٢) صحيح مسلم بشرح النووي ١١ / ١٩٣.

(٢٣) أخرجه أحمد في المسند ١ / ٣٣٨ وأبو داود في السنن ح ٤٤٢٧ وصححه الألباني (إرواء الغليل ٣٥٥/٧).

الرجوع عن الإقرار بالحدود عن النبي ﷺ عن الخلفاء الراشدين ومن بعدهم اتفق العلماء عليه[٢٤].

وفي رواية مسلم قال: "جاء ماعز بن مالك إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله طهرني. فقال: " ويحك ارجع فاستغفر الله وتب إليه " قال: فرجع غير بعيد، ثم جاء فقال: يا رسول الله طهرني. فقال رسول الله ﷺ: " ويحك ارجع فاستغفر الله وتب إليه ". قال: فرجع غير بعيد، ثم جاء فقال: يا رسول الله طهرني. فقال النبي ﷺ مثل ذلك حتى إذا كانت الرابعة قال له رسول الله ﷺ: " فيم أطهرك ؟ " فقال: من الزنى... الحديث [٢٥].

ويستفاد من الحديث أنه لا يمكن إقامة الحد إلا بعد الاعتراف أربع مرات وهي تعادل أربعة شهود، وأن الإمام يتأكد من سلامة عقل المعترف.

قال النووي: قوله: جاء ماعز بن مالك إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله طهرني. فقال: " ويحك، ارجع فاستغفر الله وتب إليه "، فرجع غير بعيد، ثم جاء فقال يا رسول الله طهرني، إلى آخره. ومثله في حديث الغامدية قالت: طهرني قال: " ويحك ارجعي فاستغفر الله وتوبي إليه ". هذا دليل على أن الحد يكفّر ذنب المعصية، وقد جاء ذلك صريحاً في حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه وهو قوله ﷺ: " من فعل شيئاً من ذلك فعوقب به في الدنيا فهو كفارته "، ولا نعلم في هذا خلافاً، وفي

---

(٢٤) صحيح مسلم بشرح النووي ١١/١٩٥.

(٢٥) صحيح مسلم - الحدود - باب من اعترف على نفسه بالزنى ٥/١١٩.

هذا الحديث دليل على سقوط إثم المعاصي الكبائر بالتوبة وهو بإجماع المسلمين إلا ما قدَّمناه عن ابن عباس في توبة القاتل خاصة والله أعلم.

فإن قيل ما بال ماعز والغامدية لم يقنعا بالتوبة، وهي محصلة لغرضهما، وهوسقوط الإثم بل أصرا على الاقرار واختارا الرجم فالجواب أن تحصيل البراءة بالحدود وسقوط الإثم متيقن على كل حال، ولا سيما وإقامة الحد بأمر النبي ﷺ، وأما التوبة فيخاف ألاَّ تكون نصوحاً، وأن يخل بشيء من شروطها، فتبقى المعصية وإثمها دائماً عليه، فأراد حصول البراءة بطريق المتيقن دون ما يتطرق إليه احتمال والله أعلم [٢٦].

أما من شهد على أحد بالزنى فإنه لا يكفي إلا بأربعة شهود عدول، فإن شهد أقل من ذلك فإنه يقام عليهم حد القذف، وقد حصل ذلك في زمن عمر بن الخطاب ﷺ لما شهد عنده أبو بكرة ونافع وشبل بن معبد على المغيرة بن شعبة بالزنى، حدّهم حدّ القذف لما تخلف الرابع زياد فلم يشهد[٢٧].

وقد سلك الصحابة المنهاج النبوي في درء الحدود، وكان عمر بن الخطاب ﷺ يدرأ بعض الحدود، فقد أُتي بامرأة ليس لها زوج قد حملت،

---

(٢٦) صحيح مسلم بشرح النووي ١١ / ١٩٥.

(٢٧) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٣٣٤/٨ - ٣٣٥ وصححه الألباني (إرواء الغليل ٢٩/٨).

فسألها عمر، فقالت: إني امرأة ثقيلة الرأس وقع عليّ رجل وأنا نائمة فما استيقظت حتى فرغ، فدرأ عنها الحد[٢٨].

وثبت عن عمر قال: لَأَنْ أخطئ في الحدود بالشبهات أحب إلي من أن أقيمها بالشبهات[٢٩].

وقد ثبت عن ابن عباس، رضي الله عنهما أنه قال: أتى عمر ﷺ بمجنونة قد زنت، فاستشار فيها أناسًا، فأمر بها أن ترجم، فمر علي بن أبي طالب ﷺ، فقال: ما شأن هذه ؟ قالوا: مجنونة بني فلان، زَنَتْ فأمر بها عمر أن ترجم، فقال: ارجعوا بها، ثم أتاه، فقال: يا أمير المؤمنين، أما علمت أن القلم قد رفع عن ثلاثة: عن المجنون حتى يبرأ، وعن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يعقل ؟ قال: بلى: قال فما بال هذه ؟ قال: لا شيء فأرسلها عمر قال: فجعل يكبر [٣٠].

قال الخطابي: لم يأمر عمر ﷺ برجم مجنونة مطبق عليها الجنون، ولا يجوز أن يخفى هذا عليه، ولا على أحد ممن بحضرته، ولكن هذه امرأة كانت تجن أحياناً وتفيق أخرى، فرأى عمر ﷺ ألاَّ يسقط عنها الحد لما يصيبها من الجنون، إذ كان الزنى منها حال الإفاقة، ورأى علي ﷺ أن

---

(٢٨) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٨/٢٣٥ وصححه الألباني (إرواء الغليل ٨/٣٠).

(٢٩) قال السخاوي: أخرجه ابن حزم في الإيصال له بسند صحيح (المقاصد الحسنة ص ٣٠).

(٣٠) انظر سنن أبي داود - الحدود - باب في المجنون يسرق أو يصيب حداً ح ٤٣٩٩ وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود ح ٣٦٩٩ وصححه الأرناؤوط في جامع الأصول ٣ / ٥٠٧.

الجنون شبهة يدرأ بها الحد عمن يبتلى به، والحدود تدرأ بالشبهات، فلعلها قد أصابت ما أصابت وهي في بقية من بلائها، فوافق اجتهاد عمر رضي الله عنه اجتهاده في ذلك فدرأ عنها الحد... [٣١].

وقد وردت قواعد فقهية في الشبهات الدارئة للحدود ذكرها سلطان العلماء العز بن عبد السلام فقال: الشبهات دارئة للحدود وهي ثلاثة، إحداهن: في الفاعل وهو ظن حل الوطء إذا وطئ امرأة يظنها أنها زوجته أو مملوكته. الثانية: شبهة الموطوءة كوطء الشركاء الجارية المشتركة. الثالثة: في السبب المبيح للوطء كالنكاح المختلف في صحته.

فأما الشبهة الأولى فدرأت عن الواطئ الحد؛ لأنه غير آثم، والنسب الأحق به، والعدة واجبة على الموطوءة، والمهر واجب عليه. وأما الشبهة الثانية فدرأت الحد؛ لأن ما فيها من ملكه يقتضي الإباحة، وما فيها من ملك غيره يقتضي التحريم، فلا تكون المفسدة فيه كمفسدة كالزنى المحض، بل لو أكل الإنسان رغيفاً مشتركاً بينه وبين غيره لم يأثم بأكل نصيبه مثل إثمه بأكل نصيب شريكه، بل يأثم به إثم الوسائل، وكذلك لو قتل أحد الأولياء الجاني بغير إذن شركائه أثم ولم يقتص منه، ولا يأثم إثم من قتل من لا شريك له في قتله، وكذلك الوسائل إلى المصالح لا يثاب عليها مثل ثواب المصالح، فإن صلاة من فاتته صلاة من صلاتين لزمه أداؤهما، ولا يثاب على الوسيلة منهما مثل ثواب الواجبة منهما، ولذلك فعلهما بتيمم واحد على الأصح،

---

(٣١) انظر مختصر سنن أبي داود للمنذري ٦ / ٢٢٩.

وأما الشبهة الثالثة فليس اختلاف العلماء هو الشبهة... وإنما غلب درء الحدود مع تحقق الشبهة؛ لأن المصلحة العظمى في استيفاء الإنسان لعبادة الديان، والحدود أسباب محظرة فلا تثبت إلا عند كمال المفسدة وتمحضها[٣٢].

مما تقدم من الأحاديث الفعلية توضيح وتطبيق لحق حفظ النفس للعناية بها في دفع إقامة الحدود عنها، ولبيان جواز عدم إقامة الحد عند عدم الثبوت لما يوجب الحد بسبب الشبهة أو عدم الاعتراف بالذنب.

في كثير من حالات السرقة لا يقطع السارق كما يأتي في الفقرات الآتية:

١- ثبت عن النبي ﷺ: " لا تقطع إلافي ربع دينارفصاعداً "[٣٣].

٢- ثبت عنه ﷺ أنه قال: " لا قطع في ثمر ولا كثر "، قال أبو داود: الكثر: الجمار[٣٤].

٣- وكذلك إذا نهب مالاً علناً غير خفية فلا يقام عليه الحد، فقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: " ليس على المنتهب قطع، ومن انتهب نهبة مشهورة فليس منا ".

٤- وثبت عنه أيضاً " ليس على الخائن قطع".

٥- وكذلك " ولا على المختلس قطع" [٣٥].

---

(٣٢) قواعد الأحكام في مصالح الأنام ٢ / ١٣٧.

(٣٣) صحيح مسلم، ١٣١١/٣، ح١٦٨٤.

(٣٤) السنن - الحدود - باب ما لا يقطع فيه ح ٤٣٨٨، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود ح٣٦٨٨.

قال السهارنفوري: ووجه عدم القطع فيهما: لأن القطع ثبت بالنص في السرقة والانتهاب والاختلاس، والخيانة ليست بسرقة؛ لأنه في الانتهاب ليس الأخذ الخفية، وفي الخيانة ليس الأخذ من الحرز[٣٦].

٦- وكذلك إذا وقعت سرقة أثناء السفر فإن السارق لا يقطع، فقد ثبت عن جنادة بن أبي أُمية قال: كنا مع بسر بن أرطأة في البحر، فأُتي بسارق يقال له، مِصدر، قد سرق بختية فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: " لا تقطع الأيدي في السفر ولولا ذلك لقطعته "[٣٧].

ومعنى بختية: الأنثى من الجمال الخراسانية وهي طوال الأعناق[٣٨].

٧- وكذلك لا يقطع العبد إذا سرق من مال سيده.

٨- ولا الأب من مال ابنه.

٩- ولا الشريك من شريكه.

١٠- ولا الدائن من مدينه لوجود الشبهة[٣٩].

---

(٣٥) هذه الروايات الثلاث أخرجها أبو داود - السنن - الحدود - باب القطع في الخلة والخيانة ح ٤٣٩١-٤٣٩٣، وصححها الألباني في صحيح سنن أبي داود (ح ٣٦٩٠ - ٣٦٩٢).

(٣٦) بذل المجهود ١٧ / ٣٣٩.

(٣٧) سنن أبي داود - الحدود - باب في الرجل يسرق في السفر وانقطع ح ٤٤٠٨، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود ح ٣٧٠٨.

(٣٨) انظر بذل المجهود ١٧ / ٣٥٧.

(٣٩) - انظر أحكام القرآن لابن العربي ٦٠٩/٢، وانظر روائع البيان في تفسير آيات الأحكام ٥٥٥/١.

وكل هذه الحالات تلحق بما سبق من درء الحدود لا قطع فيها لليد للاهتمام بجسد الإنسان وتقليل قطع اليد منه.

قال معالي الشيخ ابن بيِّه: والشريعة المطهرة مع اهتمامها الشديد بسلامة المجتمع، فإنها تقدم للفرد ضمانات أكيدة، لا من حيث درء الحدود بالشبهات وهي قاعدة تنسحب على الحدود وبخاصة في جرائم الأخلاق وحقوق الله المحضة، ولكنها قدمت ضمانات على مستوى الاجراءات القضائية ووسائل الإثبات، فمنعت القاضي من أن يحكم بعلمه الشخصي، واشترطت العدالة وزيادة العدد على اثنين في قضايا أخلاقية معينة، وأعذرت للمتهم في البينات ليجرح الشاهد عند الاقتضاء، وأوجبت الأيمان وغلظتها، حيث يجب التغليظ، وألغت إقرارالمكره، ولم تعتبر إلا إقراراً في حالة طوع واختيار وحرية، واشترطت شروطاً خاصة فيمن يتولى القضاء من علم وورع ونزاهة واستقامة إلى آخر ماهو معروف في كتب الأحكام والقضاء[٤٠].

ثالثاً: اتخاذ التدابير الوقائية من المنع فى الوقوع فى الجريمة ثم الاستغناء عن إقامة الحدود:

فقد وردت تدابير وقائية عظيمة فى القرآن الحكيم والسنة الشريفة المطهرة، وأذكر منها التدابير الوقائية من جريمة القتل وهي كما يلي:

---

(٤٠) حوار عن بعد ص ٨٣.

١ - الترهيب من قتل العمد، كما فى قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٩٣].

٢ - النهي عن العداوة والبغضاء كما صحَّ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا)(٤١).

٣ - النهي عن الحسد والتجسس، كما فى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ [الحجرات: ١٢].

٤ - النهي عن السخرية كما فى قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الحجرات: ١١].

٥ - النهي عن الغضب كما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال عندما طلب منه رجل الوصية: "لا تَغْضَبْ "(٤٢).

٦ - الأمر بالسماح والعفو كما فى قوله تعالى: ﴿ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾ [البقرة: ١٠٩].

---

(٤١) صحيح البخاري ٦ /٢٢٥٣ ح ٥٧١٨.

(٤٢) المسند ١٦ /٦٨ ح ١٠٠١١.

٧ - الأمر بالرفق في الأمور كلها، كما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إِنَّ الرِّفْقَ لاَ يَكُونُ فِى شَىْءٍ إِلاَّ زَانَهُ وَلاَ يُنْزَعُ مِنْ شَىْءٍ إِلاَّ شَانَهُ)[٤٣].

٨ - منع حمل السلاح إلا لحاجة مشروعة كما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (من حمل علينا السلاح فليس منا)[٤٤].

٩ - الأمر بالصلح عند الخلاف كما في قوله تعالى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ [الأنفال: ١].

١٠ - الأمر بالعدل عند الحكم كما في قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾ [النحل: ٩٠]

١١ - الجدل بالتي هي أحسن، قال تعالى: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [الإسراء: ٥٣].

١٢ - الحذر من عدم أمان السلاح كما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إذا مر أحدكم في مسجدنا أو في سوقنا ومعه نبل فليمسك على نصالها أو قال فليقبض بكفه أن يصيب أحداً من المسلمين منها بشيء[٤٥]).

---

(٤٣) صحيح مسلم ٨/ ٢٢ ح ٦٧٦٧.

(٤٤) صحيح البخاري ٦/ ٢٥٩٢ ح ٦٦٦٠.

(٤٥) صحيح البخاري ٦/ ٢٥٩٢ ح ٦٦٦٤.

١٣ - الحذر من المزاح بالسلاح كما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم: (لا يشير أحدكم على أخيه بالسلاح؛ فإنه لا يدري لعل الشيطان ينزغ في يده فيقع في حفرة من النار)[٤٦].

١٤ - المحافظة على السلاح كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ ﴾ النساء: ١٠٢.

١٥ - الاستعاذة من وسوسة الشيطان التي تحث على هذه الجريمة، كماروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إن الغضب من الشيطان، وإن الشيطان خُلق من النار، وإنما تطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ)[٤٧].

رابعاً: ضعف القوانين الوضعية في العقوبات:

لقد ثبت من خلال الدراسات المقارنة والإحصاءات الدقيقة أن القوانين في العقوبات الوضعية مهما عدّلت ورقعت فإنها تافهة وسقيمة؛ لأن الذين وضعوها ما عندهم من العلم إلا القليل منه. قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥]، وقال الخضر لموسى عليهما السلام: "يا موسى إني على علم من علم الله علّمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله علمك الله لا أعلمه..."، وعند ما جاء عصفور فوقع على حرف السفينة التي ركبها فنقر العصفور في البحر

---

(٤٦) صحيح البخاري ٦/ ٢٥٩٢ ح ٦٦٦١.

(٤٧) سنن أبي داود ٢/ ٦٦٤ ح ٤٧٨٤.

نقرة، فقال الخضر:"ما علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقصه هذا العصفور من هذا البحر" (٤٨).

أمّا عِلْمُ الله تعالى فقد أحاط بكل مخلوقاته علماً، فشريعة الخالق هي المناسبة لخلقه، لأنه أدرى بخلقه وما يصلح لهم من الآداب والأحكام والترغيب والترهيب، ومن هذه الأحكام الربانية: الحدود الشرعية كحد أهل البغي والزنى والسرقة والردة والحرابة والقذف وشرب الخمر.

وهذه الأحكام مهجورة في العالم؛ بل في العالم الإسلامي إلا ما رحم الله تعالى، وعندما نقارن المجتمعات التي تقيم شعائر الله تعالى وحدوده مع المجتمعات التي أهملت هذه الروادع الحكيمة عن الجريمة نجد الحكمة العظيمة.

وعلى سبيل المثال نرى تجربة المملكة العربية السعودية في تطبيق الشريعة الإسلامية ونجاحها الرائد في إقامة الحدود، إذ نجحت نجاحاً باهراً، وذلك بالقضاء على مظاهر السلب والنهب والقتل والجهل، وانتشار الأمن والعدل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

من أجل ذلك نرى نسبة الجرائم ضئيلة جداً فمعدلها حسب الإحصاءات عام ١٤١٦هـ يصل إلى (٠,٠٣٢%)في ألف من السكان، بينما نجد نسبة الجريمة في بعض دول العالم أضعافاً مضاعفة لكل ألف من السكان هي:

---

(٤٨) حديث متفق عليه (صحيح البخاري - التفسير - سورة الكهف ح ٤٧٢٥)، (وصحيح مسلم - الفضائل - باب فضائل الخضر ح ٢٣٨٠.

(٧٧,٢٦%) في إسبانيا، وفي ألمانيا الغربية (٤١,٧١%)، وفي إيطاليا (٢٠,٠٨ %)، وفي الدانمارك (٦٠,٥٢ %)، وفي فرنسا (٣٢,٢٧ %)، وفي أستراليا(٧٥,٠٠ %)، وفي كندا (٧٥,٠٠ %) وفي كوريا (١٢,٤٢ %)، وفي غانا (١٠,٧٢ %)، وفي كينيا (٤,٧٤ %)، وفي إندونيسيا (١,٤٧%)[٤٩].

فنرى الفرق الشاسع بين هذه البلدان التي تحكم بالقوانين الوضعية، والمملكة العربية السعودية التي تحكم بالشريعة الإسلامية مما يدل على أن هذا هو الحق، وأنها تجربة رائدة في العالم، ولاسيما لو زاد الاهتمام بالتدابير الوقائية الأمنية للحد من الجريمة لكانت النسبة أقل.

وقد حاولت جمهورية السودان أن تطبق هذه التجربة المباركة، ومنذ أن بدأت بتطبيق أحكام الشريعة فإن نسبة جريمة القتل انخفضت بشكل ملموس يصل إلى النصف تقريباً، ففي عام ١٤٠٢ هـ بلغت عدد الجرائم (١١٥٥) جريمة، بينما انخفضت في عام ١٤٠٣ هـ إلى (٦٧٠) جريمة، ثم في عام ١٤٠٤هـ نزلت إلى (٦٦٣) جريمة، وذلك حسب دراسة ميدانية مدعمة بالإحصاءات الدقيقة[٥٠].

وفي مصر جاءت بعض القوانين متوافقة مع الشريعة وذلك في علاج تجارة المخدرات، وقد كان لها الأثر البالغ في انخفاض جرائم المخدرات، فقد صدر القانون ذو الرقم ٢١ سنة ١٩٢٨م يشدد عقوبة إحراز

---

(٤٩) أفدت هذه الإحصاءات من كتاب حقوق الإنسان في الإسلام وتطبيقاتها في المملكة العربية السعودية لسعادة أ.د. سليمان عبد الرحمن الحقيل ص ١٣١-١٣٢.

(٥٠) انظر الدوافع إلى ارتكاب جريمة القتل في الوطن العربي ص ٩٣ و ٩٤.

المخدرات، فأدى إلى تقليل جرائم المخدرات، وصارت تقل سنة بعد أخرى؛ إذ كانت عدد جرائم المخدرات (٢١١١٣) جريمة في سنة ١٩٢٦م، فأصبحت(١١٤٠٤) جريمة في سنة ١٩٢٨م- ١٩٢٩م، أي انخفضت إلى النصف تقريباً، ثم أصبحت (٨٥٩٩) جريمة في سنة ١٩٢٩م- ١٩٣٠م، ونزلت إلى (١٩٢٢) جريمة في سنة ١٩٣٦م- ١٩٣٧م أي انخفضت إلى العشر، كما نزلت إلى (١٦٢٨) جريمة في السنة ١٩٤٢م- ١٩٤٣م.(٥١)

بينما نجد الدول التي تتخبط فى فوضى القوانين الوضعية تزداد فيها نسبة الجريمة بل تدخل في أطوار جديدة، وإن قضية الاهتمام بالدين يقلل منها، فقد جاء في موسوعة القانون الجنائي وعلم الإجرام، ص١٩٩- ٢٠٣ (لبيا بوزا) و (جان بيناتا) Pierre Bouzat et Jean Pinatei): أنه نتيجة لانتشار التعليم وتحسين الظروف الاقتصادية لشرائح عريضة من المجتمع فإن جرائم القتل أصبحت يطغى عليها طابع الحيلة أكثر من طابع العنف، وزيادة على بعض العوامل فإن المؤلفين يذكران تأثير الريف في ارتفاع عدد جرائم القتل، وتأثير الدين في الخفض منه، وهما يذكران دراسة أجراها المستشرق القانوني سلين M. Th. Sllin في موضوع العلاقة بين العمل بحكم الإعدام أو إلغائه من ناحية، ومستوى الجرائم من ناحية أخرى، ويذكر المؤلفان أيضاً دراسة (عزت

(٥١) انظر التشريع الجنائي الإسلامي ١/٧١٥.

بن عبد الفتاح) التي بينت أن تفاقم عدد جرائم القتل بكندا منذ سنة ١٩٦٢م يتدرج ضمن تصاعد عام لجرائم العنف[٥٢].

وما ورد عن هؤلاء الخبراء الفرنسيين يؤكد ارتفاع الجريمة بمرور الزمن؛ بل يعترف بدور الدين في انخفاضها ! فهل تعي آذان الأمم ما يقوله الخبراء والعلماء ؟

ومن الأدلة المهمة في ارتفاع معدل جرائم الأموال ما جاء في تقرير (المنظمة الدولية العربية للدفاع الاجتماعي التابعة للجامعة العربية) الذي أعدَّه د. محمود عبدالقادر- رئيس وحدة بحوث الأسرة بالمركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية بالقاهرة - ص ٤٣ وما بعدها وجاء فيه:

إن معدل الجرائم ضد الأموال في ارتفاع مع عملية التنمية الاقتصادية، إذ تزداد فرص الاعتداء على الأموال عندما يصبح المجتمع أكثر إنتاجاً وتعقيداً وتحضراً وتصنيعاً، ومن ثم نجد أن نسبة عالية من جرائم الأحداث والشباب في غالبية البلاد ذات طابع اقتصادي مثل السرقة والاختلاس... وتزييف الأوراق الرسمية، وتزييف العملة أو المسكوكات وتهريب المخدرات والخطف لطلب الفدية والرشوة وجرائم السوق السوداء...[٥٣].

وقد قام الأطفال الأحداث بقسط كبير من هذه الحوادث يقول: د. صلاح الدين عبد المتعال: وقد اتضح طبقاً لبيانات محددة من بعض

---

(٥٢) انظر الدوافع لارتكاب جريمة القتل ص ٦٠.

(٥٣) انظر كتاب دستور الأخلاق في القرآن أ.د. عبد الصبور شاهين ص ل. باختصار.

البلدان العربية (سوريا ولبنان والعراق والأردن ومصر)، أن جرائم السرقة والاعتداء على الأشخاص والجرائم الجنسية وحالات التشرد وبخاصة في مجالات الأحداث تعد من الظواهر البارزة التي تتزايد نسبتها باستمرار من عام إلى آخر(٥٤).

إن الإحصاءات والمعلومات السابقة كلها تدخل في ما ضُبط وما بُلّغ عنه، وأما ما لم يبلغ عنه فإنه أضعاف ذلك قال أ.د. عبد الصبور شاهين: ويلاحظ عند قراءة بحوث الجريمة أنها تؤكد دائماً أن الإحصاءات الرسمية أو السجلات الخاصة بالمجرمين لا تمثل حجم المجتمع الأصلي لمرتكبي الجرائم فعلاً، فهناك الجرائم المجهولة، وغير المنظورة، وهي التي لا تكشفها جهود رجال الشرطة والضبط، والتي لا يبلغ وقوعها ضحاياها، ويقدم الدكتور صلاح الدين عبد المتعال، في بحثه عن (علاقة الجريمة بالتغير الاجتماعي) مثالاً على هذه الحقيقة في جرائم النشل: فإن نسبة المجني عليهم من الذين تكرر تعرضهم للنشل قبل الواقعة الأخيرة و لم يبلّغوا السلطات عن هذه الحوادث السابقة بلغت ٧٥ % من مجموع من تكرر تعرضهم للنشل (٥٥).

ولا ريب أن عقوبات القوانين الوضعية لا تزجر ولا تردع؛ بل هي أقرب إلى الإغراء بالجرائم.

---

(٥٤) انظر التغير الاجتماعي في البلاد العربية وعلاقته بالجريمة ص ٥٥ نقلاً عن المصدر السابق ص ل ١.

(٥٥) انظر المصدر السابق ص ل ول ط.

وكذلك جريمة الشذوذ الجنسي ففي بعض الولايات المتحدة الأمريكية كانت نتيجة هذه الجريمة الإصابة بمرض الإيدز فبلغت عدد الإصابات ٢٣١ حالة في سنة ١٩٨١م، ثم ارتفعت في كل سنة حتى وصلت (١٧٠٥٠) حالة في سنة ١٩٨٥ م[٥٦]، وهذه الزيادة في مدة أربع سنوات فما بالك بالعشرين سنة التي تلت ١٩٨٥م.

ويقول الدكتور محمد علي البار: ومما زاد ارتفاع معدل الجريمة الثورات الإصلاحية ذات الطابع الاشتراكي فقد زادت الطين بِلة[٥٧].

ويقول الخبير بدوافع الجريمة د. عبد الله معاوية في نتائج بحثه وتوقعاته: ومن البدهي مثلاً أن نسبة الجرائم التي تستعمل فيها الأسلحة النارية سترتفع، وأنه بالمقابل ستنخفض نسبة الجرائم التي تستعمل فيها الآلات الحادة والوسائل الأخرى إذا ما تواصل توريد هذا النوع من الأسلحة الحديثة وانتشارها بين المواطنين، والجرائم التي تقترفها الإناث والآخذة في التزايد في عدد من الأقطار العربية كنتيجة ثانوية، ولكن حتمية لاضطلاع الفتاة أو المرأة بمسؤوليات وقيامها بأدوار جديدة في ميادين التعليم والشغل والمشاركة في الحياة العامة، فإنه من المتوقع أن تواصل ارتفاعها بصفة مطردة... ونتوقع كذلك تطوراً في أشكال الجريمة نتيجة التطور التقني، ونتيجة تطور وسائل الإعلام على وجه الخصوص، وما تبثه من أخبار بخصوص الجرائم بشتى أنواعها، وما تعرضه من أشرطة سينمائية تكون الجريمة فيها أحياناً مصممة بطريقة جهنمية، وإن

---

(٥٦) انظر المصدر السابق ص ل ول ط.

(٥٧) انظر الأمراض الجنسية ص ١٣٥.

لم تصادفنا مثل هذه الحالات في العينات التي أجرينا عليها البحث إلا قليلاً إلا أن الصحافة بدأت تطالعنا بأخبار في هذا الشأن مفادها أن بعض جرائم القتل من النوع المدبر المخطط له، كالسطو على المحلات التجارية التي أخذت تحدث هنا وهناك في بعض مناطق الوطن العربي(٥٨).

وإذا كان هذا التصعيد في الجريمة على هذه الوتيرة، وأن العلاج بهذه الصفة الهزيلة، فماذا نتوقع أن تفرزه القوانين (الوضعية الوضيعة) في المستقبل ؟ لا شك أنها ستحدث كارثة بشرية عامة طامة، وذلك لطغيان الخبث ولانتشاره السريع، وإن لطغيانه علامة أكيدة لدمار البشرية صالحهم وطالحهم؛ لأنه ثبت عن المعصوم ﷺ أن كثرة الخبث هي سبب هلاك الأمم، كما ثبت عن زينب بنت جحش رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: " ويل للعرب من شر قد اقترب، فُتح اليوم ردم يأجوج ومأجوج "، وحلق بإصبعيه الإبهام والسبابة. فقالت زينب رضي الله عنها: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال: " نعم إذا كثر الخبث "(٥٩).

لذا، فإن الثبات على الشريعة الإسلامية هو نجاة لذلك المجتمع الثابت، فلا تزال هذه الأمة بخير ما عظمت حرمتها، فهذه الأمة الثابتة على الحق تستطيع بمشيئة الله تعالى أن تمد يديها لجميع المسلمين ولغير المسلمين

---

(٥٨) الدافع إلى ارتكاب جريمة القتل في الوطن العربي ص ٢٦٨ ، ٢٦٩.

(٥٩) - أخرجه مسلم في صحيحه - الفتن وأشراط الساعة - باب اقتراب الفتن ح ٢٨٨٠.

ليحذروا من مغبة ترك أحكام الله تعالى والأخذ بآراء البشر الضعفاء ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٢٨].

ولهذا نرى فروقاً كبيرة بين نتائج العقوبة فى الاسلام وبين القوانين الوضعية، وقد حررت هذه الفروق سعادة الأستاذة الدكتورة راوية أحمد الظهار فقالت:

١- يهدف نظام التجريم والعقوبة في الشريعة الإسلامية إلى حماية أخلاق المجتمع من الأفعال التي تسيء إليها؛ لأن الدين الإسلامي دين يدعو إلى سمو الأخلاق ورفعتها، وكانت الدعوة إلى الأخلاق من أعظم مهمات الأنبياء، فقد قال ﷺ: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)[٦٠]. إن قضية الأخلاق هي لبّ المنهج الإسلامي، الذي ينظر إليها نظرة شمولية تشمل الفرد والمجتمع.

أما القوانين الوضعية فنظرتها للأخلاق نظرة ضيقة قاصرة، فهي لا تعبأ بالأخلاق الفاضلة، ولا تهتم بحماية الفرد والمجتمع، والدليل على ذلك أنها لا تعاقب على الزنى إذا كان برضى الطرفين، ومعنى هذا أنها لا تعد الزنى من الرذائل، كذلك شرب الخمر لا تعاقب عليه إلا إذا أضر بالآخرين.

والسبب في هذه النظرة الضيقة أن واضعي القوانين الأخلاقية الوضعية هم البشر أنفسهم الذين يسيرون خلف أهوائهم ونزواتهم، ويضعون مكاسبهم المادية فوق كل مبدأ، فاستغلوا سلطانهم وجاههم

---

(٦٠) - سلسة الأحاديث الصحيحة ١/٧٥.

لرفض هذه القوانين التي تخدم أغراضهم الشخصية ومنافعهم الذاتية، وهذا خلاف القوانين الأخلاقية التي شرعها الخالق العظيم العالم بكل النوازع والأهواء البشرية وكيفية ترويضها وحمايتها، فكانت المجتمعات التي تحكم بالشريعة الإسلامية أكثر أمناً واستقراراً، وأكثر انخفاضاً في نسبة الجريمة مقارنة بالمجتمعات التي تطبق القوانين الوضعية التي تتفشى فيها الجريمة بأنواعها، وتنحط فيها القيم الروحية والأخلاقية، وتسيطر عليهم القيم المادية والنظرة النفعية.

٢-إن أحكام الشريعة الإسلامية في الجرائم والعقوبات صالحة لكل زمان ومكان، فهي ثابتة لا تتغير؛ لأن واضعها هو المولى عز وجل الخبير والعليم بأحوال البشر، وما صلح لهم في دينهم ودنياهم، وما يكفل لهم الحياة الرغدة السعيدة ما استمرت البشرية.

أما القوانين الوضعية فهي في تغيّر مستمر؛ لأن عيوبها وأخطاءها تظهر مع الزمان، فهي نتاج علم الإنسان القاصر، إضافة إلى أن تغيرها مرهون بتغير السلطات التشريعية التي تسيرها الأهواء والطموحات والرغبات الذاتية والمصالح الفردية.

ونشر العدل والاستقرار يقتضي وجود موازين وقواعد ثابتة في التجريم والعقاب لا تتغير بتغير الحاكمين؛ ليظل كل فرد على علم وبصيرة بحقوقه وواجباته، وما يجب عليه فعله وما يجب عليه تركه وما يعاقب عليه وما لا يعاقب عليه.

فصلاحية أي قانون تقاس بمقدار ما يبث من الطمأنينة في النفوس، وهذا الهدف لا يتحقق بصورة كافية إلا في الشرائع الإلهية، ولا يكفي

لتحقيقه ما اتفق عليه أهل القانون من أنه لاجريمة ولاعقوبة إلا بـــنص؛ لأن النص المقصود في هذا المقام عرضة للتغيير والتبديل لـــتغير الحكَّـــام والأنظمة، فلا قيمة حقيقية لهذه القواعد حتى يوجد النص الثابت المقدس الذي لا تطوله أيدي البشر ويخضع له الجميع، وهذا لن يكـــون مـــادام القانون من وضع فئة من البشر، ولكن القاعدة الآنفة الذكر تصبح ذات قيمة فعالة في سيادة العدل والاستقرار، إذا كان النص معبراً عـــن إرادة الخالق الذي لا يجادل حكمته المطلقة وعدله المتناهي أي شخص عاقل.

والدليل الناصع على هذه الحقيقة هو واقع البشرية المعاش حتى بعد أن تقررت تلك القاعدة المذكورة منذ الثورة الفرنسية، وتبنتها الأُمم المتحدة في البيان العالمي لحقوق الإنسان.

إن الدافع لتقرير هذه القاعدة هو منع ظلم الحـــاكمين للمحكـــومين الذين تتاح لهم الفرصة في التجريم والعقـــاب بمـــا يتوافـــق وأهـــواءهم الشخصية، ولكن هل تحقق العدل للبشرية بعد النص على هذه القاعدة؟ وهل ساد الاستقرار والأمن ومنع الظلم؟.

والحقيقة أن نزراً يسيراً من هذه الغايات قد تحقق، ولكن الظلم بقـــي ولم ينقطع، والسبب في ذلك أن تلك الفئات المتسلطة التي قصد منعهـــا من الظلم استطاعت بأساليبها الخفية أن تتلاعب بالأحكام وبنصـــوص القانون، وتتحكم في مصدر شريعة الجرائم وعقوبتها؛ لأنها في الحقيقـــة هي التي تضع القانون.

وعلينا ألا نخدع بما يقال من أن الشعب هو الذي يضع القانون، فإن معظم ما يصدر باسم الشعوب لا يمثل إرادتها أبداً، فما من تجمع إنساني

إلا وتسيطر عليه فئات تحت شعارات متنوعة تكون بيدها زمام الأمور، فتعود قاعدة: "لا جريمة ولا عقوبة إلا بنص" إلى أولئك الذين أريد منع ظلمهم وتسلطهم على العباد، ويصبحون هم أصحاب المصدر التشريعي، فيكون الخصم والحكم واحداً.

ولا شك أن منشأ هذا الفساد في القوانين الوضعية هو جعل الأحكام التشريعية بيد البشر الذين تتحكم فيهم الأهواء والرغبات الشخصية.

أما التشريع الإسلامي فمصدره الإله الحاكم، ولا يحق لأحد من البشر مهما كانت منزلته أن يحلل أو يحرم، أو يزيد أو ينقص، أو يغير أو يبدل في الأحكام بحسب هواه.

وهذا واضح في جانب العقاب؛ لأن أخطر الجرائم وأكثرها وقوعاً قد حددت عقوباتها وقدرتها الشريعة الإسلامية بما لا يدع مجالاً لأحد أن يتلاعب بها، وبقية الجرائم وإن أعطى ولي الأمر سلطة واسعة في تقدير عقوباتها، لكنه مقيد في ذلك بالمبادئ العامة للشريعة، وبمصلحة الأُمة المسلمة إلى غير ذلك من الضوابط الشرعية، كما أنه مقيد بالحد الأعلى الذي لا يجوز بلوغه في العقاب على تلك الجرائم الخطيرة التي حددت عقوباتها.

٣- إن ربط التشريع الإسلامي في الجريمة والعقوبات بالناحية العقدية عند الأفراد، وقيامه على مبدأ الثواب والعقاب، وأنه واجب ديني يثاب فاعله و يعاقب تاركه عقاباً أخروياً، كل ذلك يجعل للتشريع منزلته في النفوس، ويمكن احترامه في القلوب، ويساعد على تفعيله وتطبيقه برضا وقناعة دون شعور بالظلم أو القهر.

فقوة الالتزام في تطبيق الشرع الإسلامي من الحاكم والمحكوم تصل إلى درجة لا يصل إليها أي قانون يضعه البشر، ذلك لأن إقامة هذا الشرع تعد بالنسبة للحاكم واجباً دينياً يؤجر عليه، وكذلك الاحتكام إليه بالنسبة لأفراد الشعب هو واجب ديني أيضا وقربة من القربات.

وهذا ما يفسر لنا إقبال المسلمين في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم على الاعتراف بجرائمهم واستيفاء العقاب عليها مهما بلغ ذلك العقاب من الشدة؛ لأنهم مؤمنون بأن واضع هذه العقوبات هو المولى عز وجل، وأن هناك آخرة عذابها أشد وأعظم، وأن في هذا العقاب الدنيوي تطهيراً للنفس مما اقترفت من ذنب وجريمة تعقبها راحة نفسية، وطمأنينة تساعد الفرد على التوبة والصلاح؛ ليسير نحو آخرته وقد تخلص من ثقل الآثام والعقوبات.

أما القوانين الوضعية فإنها لما كانت من صنع الفئة الحاكمة في معظم الأحيان تضعها حماية لمصالحها ومكاسبها؛ لذلك لم يكن لها من الاعتراف في النفوس مثل ذلك الاحترام لشريعة الله، إذ ليس لواضعي هذه القوانين مؤهلات تكسبهم ثقة النفس كصفة العلم والعدل والنزاهة والتجرد بالصورة المطلقة الكاملة، فإن هذه المعاني لا توجد على وجه الكمال في أي إنسان وإنما هي من صفة خالق الكون.

٤- يتلاءم نظام العقوبات في الإسلام مع الفطرة البشرية؛ لأن مشرعه هو خالق هذه الفطرة العليم بتركيبة النفس البشرية،

البصير بما يردعها ويكفها عن الوقوع في الجريمة ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الملك:١٤].

ووجه ملاءمة العقوبات الشرعية في الإسلام للفطرة البشرية أن هذه الفطرة تتأثر بكل أمر عاجل وسريع، وإن كان أقل أثراً في محصلته من الآجل البطيء، فهي تطلب اللذة العاجلة، وتضحي في سبيلها بالمصالح المؤجلة، وإن كانت هذه المصالح أكثر أهمية كذلك فإن النفس الإنسانية تخاف من الألم العاجل الذي ينفذ عليها بسرعة، وإن كان أثره وضرره أقل بكثير من الألم الآجل البطيء.

ولما كانت العقوبات البدنية عاجلة في تنفيذها سريعة في إحداث آثارها، فإن مجرد التفكير فيها قبل تنفيذ الجريمة يكون كافياً عند الإنسان العادي للابتعاد عنها، وبهذا يكون لتشريع هذه العقوبات أبعد الأثر في التقليل من الإجرام، وزجر من عنده قابلية إجرامية عن إخراجها إلى حيز التنفيذ.

ولأن تشريع العقوبات الإسلامي يتلاءم مع الفطرة فقد جعل العقوبات الأساسية معظمها عقوبات بدنية توقع على جسد الإنسان، وبعضها مالي، وهذا خلافاً للقوانين الوضعية التي تقوم عقوبتها على سلب الحرية، وبعض العقوبات الأخرى، وكلها بعيدة عن الفطرة الإنسانية؛ لذا لا نجد لها تأثيراً فاعلاً على الفرد والمجتمع.

خامساً: إقامة الحدود من العوامل الأساسية في حفظ الضـــرورات الخمس.

وهي حفظ الدين والنفس والنسل والمال والعقل، وقد فصل الإمـــام الشاطبي في بيان قصد الشارع في وضع الأحكام، فـــذكر أن تكـــاليف الشريعة ترجع إلى حفظ مقاصدها في الخلق بأن تكون هـــذه المقاصـــد ضرورية، أي لا بد منها في قيام مصالح الدين والدنيا، بحيث إذا فقـــدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة، بل على فساد و تهارج، وهذه المقاصد منحصرة في خمسة أمور، تسمى بالضروريات الخمس وهي: حفظ الدين والنفس والنسل والمال والعقل، وحفظ هذه المقاصد يكون بأمرين:

أحدهما: ما يقيم أركانها ويثبت قواعدها، وذلك عبارة عن مراعاتهـــا من جانب الوجود ويكون هذا بفعل ما به قيامها وثباتها.

الثاني: ما يدرأ عنها الاختلال الواقع أو المتوقع فيها، وذلك عبارة عن مراعاتها من جانب العدم ويكون هذا بترك ما به انعدامها. وقد شـــرع لحفظ الدين - من حيث الوجود - الإيمان والنطق بالشهادتين وتوابعهما من بقية أركان الإسلام، وشرع لحفظه - من حيث العدم - الجهـــاد، وعقوبة الداعي إلى البدع.

وشرع لحفظ النفس - من حيث الوجود - إباحة أصـــل الطعـــام والشراب والمسكن، مما يتوقف عليه بقاء الحياة، وشرع لحفظها - مـــن حيث المنع - عقوبة الدية والقصاص.

وشرع لحفظ النسل - من حيث الوجود - النكاح وأحكام الحضانة والنفقات، كما شرع لحفظها - من حيث المنع - حرمة الزنى والقذف، ووضع الحد عليهما.

وشرع لحفظ العقل - من حيث الوجود - ما شرعه لحفظ النفس من تناول الغذاء الذي يتوقف عليه بقاء الحياة والعقل، كما شرع لحفظه - من حيث المنع - حرمة المسكرات والعقوبة عليها.

وشرع لحفظ المال - من حيث الوجود - أصل المعاملات المختلفة بين الناس، كما شرع لحفظه - من حيث المنع - تحريم السرقة والعقوبة عليه[٦١].

قال العلامة ابن بيَّه: وبالتالي فإن الضجة المثارة حول قسوة الإسلام في جرائم الأخلاق لو اعتبرت المعالجة الإسلامية في شموليتها المتمثلة في عدم الرفع إلى المحاكم أصلاً، والأمر بالستر وبتأثير التوبة وفي صعوبة الإثبات، لتحولت من استغراب إلى إعجاب ومن اشمئزاز إلى اعتزاز، ولأدركنا أن العقوبة الشديدة هي في الحقيقة تهديدية لردع المجرم وحماية المجتمع[٦٢].

سادساً: اتفاق الأديان السماوية على إقامة الحدود:

ولو نظرنا في الحدود بالشرائع والقوانين السابقة للبعثة النبوية الشريفة لوجدناها متفقة مع حدود الإسلام، ومتفقة في كثير من الأحكام، كما في التوراة والإنجيل وشريعة نوح وصحف إبراهيم وموسى عليهم الصلاة

---

(٦١) الموافقات ٢/١١٨-١٢٠ و٤/٢٧-٢٩.

(٦٢) حوار عن بعد ص ٩١.

والسلام، وكذا القانون الروماني كما في مدوّنة جونستنيان، وأغلبه مأخوذ من التوراة والإنجيل كما سيأتي نماذج منه في الملاحق.

فمن نصوص التوراة ورد في الإصحاحات التاسع عشر إلى الحادي والثلاثين وصايا وتشريعات منها النهي عن القتل والسرقة والزنى وشهادة الزور... وقتل القاتل، وقتل ضارب والديه ولاعنهما، وقتل من يخطف أحداً، وقصاص العين بالعين، والسن بالسن، واليد باليد، والرجل بالرجل، والكي بالكي، والجرح بالجرح، والرض بالرض، وقتل من يذبح لآلهة أخرى أو يأتي بهيمة، وعدم استبقاء الساحرات، واسترداد المسروق من السارق بزيادة، وهدر دم السارق إذا قتله صاحب المال.

وسِفْر الخروج أوجب قتل من يلعن والديه، ومن يضاجع إحدى المحرمات، ومن يزني بامرأة أخرى مع قتل المزني بها، ومن يضاجع ذكر مع قتل المضاجع، ومن ينزو على بهيمة مع قتل البهيمة، وقتل المرأة التي تجعل البهيمة تنزو عليها مع قتل البهيمة، وقتل من يقرب ابنة لمولك [٦٣] سواء أكان من بني إسرائيل أم من الغرباء والدخلاء الذين يعيشون عندهم، وقتل من يميل إلى أصحاب التوابع[٦٤] والعرافين، وكل رجل أو

(٦٣) هو معبود كنعاني، وكان من طقوس الكنعانيين نذر أبنائهم ليحرقوهم له قرباناً. (المصدر السابق).

(٦٤) أصحاب التوابع: أي أصحاب الجن وقد ورد في سفر اللاويين إذا كان في رجل أو امرأة جان أو تابعه فإنه يقتل بالحجارة يرجمونه وذلك في الإصحاح العشرين انظر مقارنة الأديان اليهودية ص ٢٩٧.

امرأة كانا أصحاب توابع وعرافين، ويقتل هؤلاء رجماً بالحجارة، وأوجب حرق بنت الكاهن التي تتفجر[٦٥].

وفي سِفْر التثنية في الإصحاح الثاني والعشرين تشريع في صدر دعوى عدم عذرية فتاة تزوجها رجل.

فإن لم تثبت الدعوى أُدب الرجل وغُرم وألزم بزوجته دون أن يكون له حق بطلاقها أبداً، وإن تثبتت ترجم الفتاة حتى الموت، وتشريع آخر في صدد مضاجعة شخص لبكر مخطوبة في المدينة برضائها حيث يرجم الرجل والفتاة، أما إذا ضاجعها في الصحراء فيقتل وحده، إذ يفرض أن تكون رفضت وصرخت ولم تجد من ينقذها. أما الرجل الذي يضاجع فتاة غير مخطوبة فعليه أن يدفع لأبي الفتاة خمسين من الفضة وتكون زوجة له وليس له أن يطلقها كل أيامه[٦٦].

وفي الإصحاح ٢٤ و٢٥ و٢٦ و٢٧ من سِفْر التثنية تشريعات متنوعة ومنها الأمر بقتل من يخطف إسرائيلياً ويسترقه.

والإذن للقضاة بالأمر بجلد المذنبين جلدات أقصاها أربعون... وأمر بقطع يد الزوجة التي تمسك بعورة رجل يتشاجر مع زوجها[٦٧].

---

(٦٥) انظر: تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم ص ٧٢ وص ٧٨ وانظر مقارنة الأديان اليهودية ص ٢٩٦.

(٦٦) انظر: المصدر السابق ص ١٠٤.

(٦٧) انظر: المصدر السابق ص ١٠٦.

وأما ما ورد في الإنجيل فإنه حوى ذلك الهدي والنور، وهو موافق للتوراة قال الله تعالى: ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة ٤٦]، وقد ذكر د. أحمد شلبي بعض الموافقات منها تحريم القتل والزنى والسرقة وشهادة الزور(٦٨).

وما نراه من القوانين والمواثيق المستمدة من الكتب السماوية - قبل تحريفها - ما قبل الإسلام عند اليونان والرومان وغيرهم، وما ورد ذكره في القرآن والسنة من شريعة الأنبياء والمرسلين كصحف إبراهيم وموسى نرى كثيراً منها متفقة مع شريعة الإسلام قال الله تعالى: ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ۞ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ۞ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ

(٦٨) انظر مقارنة الأديان ج ٢ المسيحية ص ٢٢٩، ٢٣٠.

ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١٣ - ١٥]. فنرى ما شرعه الله تعالى لنا قد شرعه للأمم السابقة في زمن نوح وإبراهيم وعيسى وموسى صلوات الله وسلامه عليهم التي ذكرت في هذه الآيات الكريمة.

وفي سورة الأعلى موافقات لما جاء في صحف إبراهيم وموسى فقال الله تعالى في نهايتها: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۞ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾[الأعلى: ١٨-١٩]، والإشارة إلى ما تقدم من آيات في هذه السورة، وكذا في سورة النجم في قوله تعالى: ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ۞ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ۞ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾[النجم:٣٦ - ٣٨] الآيات التي تليها.

وذكر العلامة الأصولي الغزالي أنه لم تختلف الشرائع في تحريم الكفر والقتل والزنى والسرقة وشرب المسكر(٦٩).

وقد نقل هذا القول الشيخ محمد أبو زهرة، ثم علق بأن المصالح الخمس التي يعد طلبها ضرورة إنسانية متفقاً عليها بين الناس، والمحافظة عليها بفرض عقوبات للاعتداء عليها يعد من الأمورالبدهية التي لا تختلف فيها العقول ولا تختلف فيها الأديان(٧٠).

---

(٦٩) انظر المستصفى ١ / ٢٨٨.

(٧٠) انظر الجريمة والعقوبة في الفقه الإسلامي ٢ / ٤١.

وأما ما يشاع عن الحدود الشرعية أنها غير صالحة، وأنها تترك معوقين وتعطل طاقات، وتخلّف عاهات، وتجعل المجتمعات تسودها القسوة والقهر؛ فإنه غير صحيح؛ بل هذه الحدود هي الحل الوسط بين الإفراط والتفريط والتساهل التشديد، ولو تصفحنا تواريخ حضارات الأمم في القانون الجنائي لرأينا عقوبات فيها العجب، لا تفرق بين الرجل والطفل، ولا تترك الحيوان ولا المجنون ولا الجماد من العقوبة، حتى الطفل في الثامنة من عمره قد أعدم في إنجلترا في القرن الثامن عشر من أجل القتل، وقد سرد المستشرق الفرنسي (بول فوكنية) Paul Fauconnet جملة من الأدلة في دراسته الاجتماعية عن المسؤولية، وبحث الظروف التي يمكن للفرد أن يعد فيها مسؤولاً على سبيل الافتراض، فأثبت بالوقائع (المأخوذة لا عن الشعوب البدائية فحسب؛ بل عن مجتمعات أكثر ارتقاء في التنظيم وحتى وقت قريب من عصرنا) أثبت أن الأطفال والمعتوهين وحتى الحيوانات والأشياء، كانت تعامل غالباً على أنها مسؤولة عقابياً، وكانت تدان بهذه الصفة، وكتب المؤلف يقول: فمسؤولية الحيوان العقابية ليست ظاهرة بدائية، قد تُمْحى أمام الحضارة؛ بل العكس تقريباً هو الصحيح، ولقد نجد هذه المسؤولية في المجتمعات الثلاثة التي خرجت منها حضارتنا، في بني إسرائيل، واليونان، والروم، ولذلك وجدنا طبقاً لأوامر التوراة أن الثور القاتل يرجم، ولا يؤكل لحمه، وهذا الإجراء مطبق حتى لو أقر المالك بأنه مذنب، وعوقب بالموت. وقال لنا أفلاطون في (القوانين Ies Iois): لو أن حيواناً يقتل إنساناً فإنه يقتل، ويرمى كذلك خارج الحدود ولو أن شيئاً من الجماد فإنه يرمى كذلك خارج الحدود.

والأمر كذلك في روما - ما قبل التاريخ - فقد كان الجزاء المعد لنقل حدود الحقول واجب التطبيق على الثور، في الوقت الذي يطبق فيه على الإنسان.

و لم يبلغ الجزاء العقابي للحيوان أقصى مداه إلا في أوروبا المسيحية بخاصة، حين ظهرت الدعاوى ضد الحيوانات أولاً في فرنسا، في القرن الثالث عشر، ثم تفشت كبقعة زيت في وسط أوروبا، واستمرت حتى القرن الثامن عشر، بل حتى القرن التاسع عشر عند السلافيين في الجنوب.

أما ما يتعلق بالأطفال والمجانين، فإن الضمير الإنساني لم ينظر إليهم دائماً نظرة ظلم، بإخضاعهم لجزاء يتفاوت خطورته، ولا سيما في حالة قتل الإنسان، أو الثأر الخاص الذي يستهدف أسرة بعينها. ففي قانون الألواح الإثني عشر (وهي أول شريعة مكتوبة في العهد الروماني وضعها الحكام العشرة الذين سنوا شرائع الرومان خلال القرن الخامس قبل الميلاد (٤٥٠ق.م.)، ونقشوها على اثني عشر لوحاً من البرونز) نجد أن مسؤولية الطفل غير البالغ مخففة بالنسبة إلى بعض الجنايات، ولكنها ليست باطلة مطلقاً، وقد وضع جميع الذين لم يبلغوا الحلم في هذا القانون على قدم المساواة، أما بعد الألواح الاثني عشر، فقد حدث تطور أعفى الأطفال الصغار، ولكن هذا التطور متأخر، وربما كان معاصراً (لهادريان) Hadrien.

وفي القرن الثامن عشر أيضاً أعدم طفل في الثامنة من عمره في إنجلترا، من أجل القتل أو الحريق.

وقد كان القضاة في فرنسا يصدرون العقوبة العادية ضد المجنـــون، ثم يختص البرلمان بتخفيف هذه العقوبة أوإلغائها، أما فيما يتعلـــق بجريمـــة الاعتداء على الذّات الملكية فلا تخفيف فيها، ومن هنا كانـــت النتيجـــة الأولى القائلة: بأن قصر العقوبة على الإنسان البالغ السوي يبدو نهايـــة ما بلغته حقبة من التطور، أخذت المسؤولية خلالها شيئاً فشيئاً..

وإن نظام (دراكون) المشرّع اليوناني في القـــرن السابع قبل الميلاد الذي بقي في أثينا حتى الغزو الـــروماني أن عقـــوبـــة الخطـــأ كانـــت النـــفـــي المؤقـــت.

أما في أقـــدم القوانين الرومانية (قانون الألواح الإثنـــى عشـــــر) فإن الضحية الذي يبتر له عضو من أعضائه، على إثر جناية غير متعمدة كان يستطيع أن يجري القصاص، إذا لم يقبل الدية.

وفي القانون الصيني كان القاتل بطريق السهو أو المصـــادفة يعاقـــب بالجلد مائة جلدة وبالنفي.

وفي التوراة عوقب القاتل غير العامد بنوع من النفي، ومن الممكـــن شرعاً لصاحب الدم أن يقتله لو أنه غادر منفاه قبل المدة المحـــددة، وفي القانون الكنسي كانت الكفارات القاسية تفرض خلال سنوات كـــثيرة للتكفير عن خطايا لا إرادية ارتكبت بسبب الجهل.

وفي إنجلترا، حتى أوائل القرن التاسع عشـــر لم يكـــــن القاتـــــل غير المعتمد يفلت من الإدانة - علاوة علـــى مصـــادرة أموالـــه - إلا بفضل رحمة الأمير، ويبرز هـــذا الوضـــع الأخـــير أيضـــاً في القـــانون

الفرنسي القديم[٧١]. هذا بالنسبة إلى الأمم ما قبل الإسلام والمعاصرة للمسلمين، فلما جاء الإسلام أعطى كل ذي حق حقه، وقبل كل شيء حق الله تعالى فإن القيام بحق الله تعالى يحقق ضمان حقوق الإنسان جملة وتفصيلاً.

وهذه الأشباه بين الشريعة الإسلامية وأهل الكتاب وما فيها من الصحيح غير المحرف تدل على أن الشرائع السماوية متشابهة في كثير من الأحكام، وأن مصدرها واحد وهو الله سبحانه وتعالى، ولكن ما حصل من تحريف عند أهل الكتاب غيّر بعض الأحكام، وأكبر دليل رجم الزاني ففي التوراة ورد صريحاً كما أقر بذلك عبد الله بن سلام ﷺ.

وهذا لا يعني أن الإسلام تأثر بمن سبق من الرومان أو أهل الكتاب؛ بل جاء بالقرآن العظيم المهيمن على بقية الكتب والخاتم الذي يصلح لكل زمان ومكان، قال الله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة: ٤٨].

قال الإمام الطبري: يقول: أنزلناه بتصديق ما قبله من كتب الله التي أنزلها إلى أنبيائه ﴿ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ يقول: أنزلنا الكتاب الذي أنزلناه إليك يا محمد مصدّقاً للكتب قبله، وشهيداً عليها أنها حق من عند الله أميناً عليها حافظاً لها[٧٢].

---

(٧١) انظر دستور الأخلاق في القرآن ص ٢٢٢ - ٢٢٦.

(٧٢) جامع البيان ٨ / ٤٨٦.

وقد ثبت عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: ﴿ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ قال: والمهيمن الأمين. قال: القرآن أمين على كل الكتب قبله[٧٣].

ولقد انبهر علماء الغرب من دهاقنة القانون وعباقرة حقوق الإنسان بأحكام الشريعة الإسلامية الحكيمة الرحيمة، ولهذا نرى الثناء على هذه الأحكام وإرشاداتهم أن تُيمم الوجوه شطر أحكام الشريعة الإسلامية لصياغة قانون لجميع الشعوب.

قال المستشرق الفرنسي مارسيل بوازار: أليس من الواقعية والتقدمية أن يؤمن المرء بقيمة الإنسان وحريته وإرادته؟ وإن يتخيل إنشاء قانون تستطيع كل الشعوب الانضواء تحت لوائه لسوف يسهم الإسلام في إنشاء ذلك القانون [٧٤].

وقال المستشرق الألماني د. ج كامبفماير[٧٥] G.Kampffmeyer رئيس تحرير مجلة "عالم الإسلام": إن الاعتداء

---

(٧٣) أخرجه الطبري ٨ / ٤٨٨ وابن أبي حاتم ٤ / ١١٥٠ والبيهقي في الأسماء والصفات ص ١٠٩ كلهم من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٧٤) إنسانية الإسلام ص ٢٤ ومارسيل بوازار مفكر وقانوني فرنسي معاصر أولى اهتماماً كبيراً لمسألة العلاقات الدولية وحقوق الإنسان، وكتب عدداً من الأبحاث للمؤتمرات والدوريات المعنية بهاتين المسألتين. (هذا النص نقلته من كتاب قالوا عن الإسلام ص ٥٣).

(٧٥) تخرج فى اللغات الشرقية في ليبزيج، وتخصص في الإسلام الحديث والعربية المعاصرة، ت١٩٣٦. (انظر كتاب المستشرقون ٢ / ٤١٣).

على الإسلام لا ترجى منه فائدة، ولن يردّ المسلمين عن دينهم، ولن يعوق النهضة الإسلامية بل سيقويها [٧٦].

قال المستشرق الألماني جراف إيرون Erwin Graf: إن الفقه الإسلامي يمكن أن يفيد المجتمع الحديث.

ويرى أن مبادئ الفقه الإسلامي ليست مرسومة على أحوال مجتمع معين بالذات، لهذا لا يمكن نظرة الزعم بأن الفقه الإسلامي عدو لكل متقدم.

ويقول أيضاً: إن الشريعة الإسلامية ليست قوة معادية للحياة أو غريبة عن الحياة؛ بل ينبغي اكتشافها من جديد لمواجهة الحاجات الجديدة، وأن تتكيف بواسطة التأويل قياس النظير (التمثيل أو القياس الفقهي)[٧٧].

ونقل الأستاذ علال الفاسي عدة أقوال عنهم ومنها قوله: يقول الأستاذ جيبون: إن الفقه الإسلامي مسلم به من حدود الإقيانوس والأطلانطي إلى نهر الفانج بأنه الدستور ليس لأصول الدين فقط... بل للأحكام الجنائية والمدنية، وللشرائع التي عليها مدار حياة نظام النوع الإنساني وترتيب شؤونه.

---

(٧٦) انظر وجهة الإسلام (بإشراف كب ص ٣٥). (نقلاً عن كتاب قالوا عن الإسلام ص ٦٨).

(٧٧) موسوعة المستشرقين ص ١١٣ ، ١١٤.

وقد أهاب مسيو لاكازيلي - المشرع الإيطالي- بالعالم كله أن يستمد قانونه من الشرع الإسلامي؛ لأنه حسب قوله أكثر تمشياً مع روح الحياة القانونية، وقد قرر مؤتمر لاهاي للقانون المقارن المنعقد سنة ١٩٣٢م اعتبار الشريعة الإسلامية مصدر القانون العالمي.

قال (هوكينج) أستاذ القانون بجامعة (هارفارد) في كتابه (روح السياسة العالمية): إن سبيل تقدم الممالك الإسلامية ليس في اتخاذ الأساليب الغربية التي تدعي أن الدين ليس له أن يقول شيئاً في حياة الفرد اليومية وعن القانون والنظم السماوية، وإنما يجب أن يجد المرء في الدين مصدراً للنمو والتقدم. وأحياناً يتساءل البعض: عما إذا كان نظام الإسلام يستطيع توليد أحكام جديدة، وإصدار أحكام مستقلة تتفق وما تطلبه الحياة العصرية ؟ فالجواب عن هذه المسألة: هو أن في نظامه كل استعداد داخلي للنمو؛ لا بل إنه من حيث قابليته للتطور يفضل كثيراً من النظم المماثلة، والصعوبة لم تكن في انعدام وسائل النمو والنهضة في الشرع الإسلامي، وإنما في انعدام الميل في استخدامها، وإني أشعر بكوني على حق حين أقرر أن الشريعة الإسلامية تحتوي بوفرة على جميع المبادئ اللازمة للنهوض[٧٨].

---

(٧٨) المقاصد الشرعية ٢٠٠.

المصادر والمراجع

- الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان — للأمير علاء الدين بن بلبان الفارسي - حققه شعيب الأرناؤوط — مؤسسة الرسالة — بيروت — الطبعة الأولى — ١٤٠٨ هـ.
- أحكام القرآن — لابن العربي — تحقيق علي محمد البجاوي — دار المعارف - بيروت.
- إرواء الغليل — للشيخ الألباني - المكتب الإسلامي - بيروت - الطبعة الأولى - ١٣٩٩ هـ.
- الأسماء والصفات للبيهقي - دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- إعلام الموقعين عند رب العالمين — لابن قيم الجوزية — حققه محمد محي الدين عبد الحميد — بدون.
- الأمراض الجنسية — للدكتور محمد علي البار — دار المنارة — جدة — الطبعة الثانية ١٤٠٦ هـ.
- إنسانية الإسلام، مارسيل بوازار، ترجمة د.عفيف دمشقية، دار الأدب، بيروت ١٩٨٠م.
- بذل المجهود — للشيخ خليل أحمد السهارنفوري — توفي ١٣٤٦ هـ - دار الكتب العلمية — بيروت.

- تفسير القرآن العظيم – لابن أبي حاتم الرازي ت ٣٣٧ هـ ومكتوبة على الآلة الكاتبة في جامعة أم القرى. وطبع منها مجلدان – مكتبة الدار – المدينة المنورة.
- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- جامع البيان عن تأويل القرآن لأبي جعفر محمد بن جعفر الطبري – مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده – ونسخة بتحقيق محمود محمد شاكر ومراجعة أحمد محمد شاكر الطبعة الثانية – دار المعارف بمصر، ونسخة بتحقيق معالي الأستاذ الدكتور عبد الله التركي.
- جامع العلوم والحكم – للحافظ ابن رجب الحنبلي – دار المعرفة – بيروت.
- حقوق الإنسان في الإسلام، للدكتورة راوية الظهار، دار المحمدي – جدة – الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.
- حوار عن بعد حول حقوق الإنسان في الإسلام، لمعالي الشيخ عبد الله بن بيه، دار الأندلس الخضراء، جدة، ط١، ١٤٢٤هـ.
- دستور الأخلاق في القرآن – للدكتور محمد عبد الله دراز – مؤسسة الرسالة – بيروت – الطبعة الرابعة – ١٤٠٢ هـ.

- الدوافع إلى ارتكاب جريمة القتل في الوطن العربي – للدكتور عبد الله معاوية – دار النشر بالمركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب بالرياض – ١٤١٠ هـ.
- السلسة الصحيحة، للشيخ الألباني، المكتب الإسلامي، دمشق، ط٢، ١٣٩٩هـ.
- سنن أبي داود – للإمام أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي، مراجعة وضبط وتعليق محمد محيي الدين بن عبد الحميد – المكتبة الإسلامية – تركيا – استانبول.
- –السنن الكبرى – للإمام البيهقي ومعه الجوهر النقي – للعلامة الماردينى – تحقيق عبد القادر عطا – طبعة دار الفكر.
- شرح صحيح مسلم للنووي – دار إحياء التراث العربي – بيروت – الطبعة الثانية – ١٣٩٢ هـ.
- صحيح البخاري – تحقيق مصطفى البغا – دار ابن كثير – بيروت – ط٣.
- صحيح سنن أبي داود باختصار السند – للشيخ الألباني – نشر مكتب التربية العربي لدول الخليج، الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ.
- صحيح مسلم – للإمام مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري–تحقيق الدكتور محمد فؤاد عبد الباقي– دار إحياء التراث العربي –بيروت– لبنان.

- عمدة القاري – للعلامة بدر العيني – دار إحياء التراث العربي – بيروت
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري - لابن حجر العسقلاني - ت ٨٥٢ هـ - طبعة دار الفكر - بيروت- نسخة مصورة عن الطبعة السلفية المصرية.
- قالوا عن الإسلام، د. عماد الدين خليل، الندوة العالمية للشباب الإسلامي – الرياض – الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.
- قواعد الأحكام في مصالح الأنام لسلطان العلماء العز بن عبد السلام، طبعة دار الكتب العلمية - بيروت -.
- مختصر سنن أبي داود – للمنذري - ت٦٥٦ هـ - تحقيق محمد حامد الفقي - طبعة مكتبة السنة المحمدية - القاهرة.
- المستشرقون لنجيب العقيقي – دار المعارف – الطبعة الرابعة – القاهرة.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل، بتحقيق شعيب الأرناؤوط ومجموعة من العلماء، إشراف معالي الأستاذ الدكتور عبدالله بن عبدالمحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ.
- المصنف في الأحاديث والآثار - للإمام ابن أبي شيبة - تحقيق مختار أحمد الندوي - مطبوعات الدار السلفية - الهند - الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ.

- المقاصد الحسنة – للسخاوي – دار الكتب العلمية – لبنان.
- الموافقات في أصول الشريعة، لأبي إسحاق الشاطبي، بقلم عبد الله دراز، المكتبة التجارية الكبرى – مصر – الطبعة الثانية، ١٣٩٥هـ.
- موسوعة المستشرقين – للدكتور عبد الرحمن بدوي – دار العلم للملايين – بيروت الطبعة الأولى – ١٩٨٤ م.
- نظرية الضرورة الشرعية مقارنة مع القانون الوضعي، للدكتور وهبةالزحيلي، مؤسسة الرسالة – بيروت – الطبعة الثانية، ١٣٩٩هـ.
- وسائل الإثبات – للدكتور محمد مصطفى الزحيلي – مكتبة البيان – دمشق – الطبعة الأولى – ١٤٠٢ هـ.

فهرس المحتويات

م	الموضوع	الصفحة
١	المقدمة	٣
٢	الرد على شبهة الاعتراض على إقامة الحدود الشرعية	٥
٣	أولاً: قلة تنفيذ الحدود الشرعية	٥
٤	ثانياً: عدم إقامة الحدود عند الضرورة والشبهة	٩
٥	ثالثاً: اتخاذ التدابير الوقائية من المنع في الوقوع في الجريمة ثم الاستغناء عن إقامة الحدود	٢٤
٦	رابعاً: ضعف القوانين الوضعية في العقوبات	٢٧
٧	خامساً: إقامة الحدود من العوامل الأساسية في حفظ الضرورات الخمس	٤١
٨	سادساً: اتفاق الأديان السماوية على إقامة الحدود	٤٢
٩	المصادر والمراجع	٥٤

المملكة العربية السعودية
جامعة الملك عبد العزيز
معهد البحوث والاستشارات
كرسي المعلم محمد عوض بن لادن للدراسات القرآنية

مكتبة المسجد النبوي الشريف
رقم الكتاب ١٤٢٩٨٦
تاريخ التسجيل ٢ / ١ / ١٤٢٥هـ

سلسلة الرد على الشبهات

(٤)

الرد على شبهة الطمع بالمال والغنائم

إعداد

أ. د. حكمت بن بشير بن ياسين

أستاذ كرسي المعلم محمد عوض بن لادن للدراسات القرآنية

مراجعة

د. محمد بن عبدالله الحلواني

المشرف على الكرسي ورئيس قسم الدراسات الاسلامية سابقاً

طبعة تجريبية للمتخصصين

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

كرسي المعلم محمد عوض بن لادن للدراسات القرآنية

هاتف: ٦٩٥٢٠٠٠ تحويلة :٦٧٢٤٦/ فاكس : ٦٩٥٢٠٠٠ تحويلة : ٦٨٨٥٧
ص.ب. ٨٠٢٠٢ جدة ٢١٥٨٩ / جوال : ٠٥٠٣٤٠٩٢٨٩

الموقع الألكتروني: http://binladenchair-qs.kau.edu.sa
البريد الألكتروني: quran.s.c@hotmail.com

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله ومن والاه ، أما بعد :

فهذا البحث يتضمن الردَّ على شبهة "الطمع بالمال والغنائم" المنسوبة إلى النبي ﷺ وذلك من خلال سلسلة الرد على الشبهات، ضمن أعمال " كرسي المعلم محمد عوض بن لادن للدراسات القرآنية "، ويبدأ هذا البحث بعرض الشبهة، ثم الرد بالأدلة النقلية الصحيحة والعقلية الصريحة، ثم الاستدلال بشهادات العلماء الأجانب من أهل ملة أصحاب الشبهة .

وأتقدم بالشكر الجزيل لرعاة الكرسي: سعادة المهندس بكر بن محمد عوض بن لادن مدير عام ورئيس مجلس إدارة مجموعة ابن لادن السعودية، وسعادة المهندس يحيى بن محمد عوض بن لادن، رئيس مجلس الإدارة والمدير العام بالنيابة،وسعادة الدكتور عبد الله بن لادن المشرف على الكراسي العلمية، ويرحم الله تعالى والد القائمين على الكرسي: المعلم محمد عوض بن لادن، ذلك الرجل الذي سُمي الكرسي باسمه، والذي نال شرف إتقان إعمار المساجد الثلاثة المقدسة، والشكر موصول لسعادة الأستاذ الدكتور عبد اللطيف خماخم مستشار مجموعة ابن لادن السعودية ونائب الرئيس للتطوير الإداري على جهوده المباركة في عنايته وتقديره لهذا الكرسي،كما أتقدم بالشكر الجزيل لمعالي مدير الجامعة الأستاذ الدكتور أسامة بن صادق طيب، ولسعادة الدكتور أحمد بن حامد نقادي وكيل الجامعة للأعمال والإبداع المعرفي، ولسعادة الدكتور محمد نجيب غزالي

خياط عميد معهد البحوث والاستشارات ووكيليه: سعادة الدكتور عبدالله ابن أحمد الغامدي، وسعادة الدكتور حسين بن محمد برعي، وإلى أصحاب السعادة أعضاء لجنة أبحاث الكراسي العلمية بالجامعة، والشكر الجزيل إلى سعادة الدكتور محمد بن عبدالله الحلواني المشرف على الكرسي الذي بذل جهداً مشكوراً في مراجعة هذا البحث، وللشيخ الفاضل إبراهيم بن محمد أول الباحث المساعد الذي قام بالتنسيق الطباعي.

والله تعالى ولي التوفيق ،،،

أ.د. حكمت بن بشير بن ياسين

أستاذ كرسي المعلم محمد عوض بن لادن

للدراسات القرآنية

الرد على شبهة الطمع بالمال والغنائم والسلب

لقد تمخض من شبهة العنف شبهة أخرى، وهي شبهة الطمع بالمال والغنائم، وهذه الإشاعة تشوه صورة الاسلام ونبيه محمد عليه الصلاة والسلام الذي ضرب القدح المعلى في الزهد والتقلل من حطام الدنيا الزائلة، فجعلوا هدف نبي الرحمة والملحمة ﷺ في الجهاد: جمع المال والسلب والنهب، ونسوا الأهداف السامية النبوية، والحياة التي تترفع عن الترف وملاذ الدنيا، كما تشهد بذلك الأخبار الصحيحة والآثار المشهودة الباقية، كما سيأتي في الرد بعد العرض.

عرض الشبهة

هـذه الشـبهة أثارهـا بعـض المستشـرقين مـن طـراز مرجليـوث الانجليـزي والمستشرق تور أندريه الفرنسي، يقول المستشرق الإنجليزي مرجليوث: عاش محمد [ﷺ] هـذه السنين الست مـا بعد الهجرة إلى المدينـة على التلصص والسلب والنهب، ولكن نهب أهل مكة قد يسوّغه طرده من بلده ومسقط رأسه وضياع أملاكه، وكذلك بالنسبة إلى القبائل اليهودية في المدينة فقد كان هناك – على أي حال – سبب ما، أحقيقياً كان أم مصطنعاً يدعو إلى انتقامه منهم، إلا أن خيبر التي تبعد عن المدينة كل هذا البعد لم يرتكب أهلها في حقه ولا في حق أتباعه خطأ يعد تعدياً منهم جميعاً؛ لأن قتل أحدهم رسول محمد [ﷺ] لا يصلح أن يكون ذريعة للانتقام[1].

وقد شكك المستشرق الفرنسي تور أندريه Tor Andrae بزهد وورع نبي الرحمة ﷺ في كتابه (محمد:حياته وعقيدته) وهو نقطة انطلاق المستشرقين الفرنسيين المعاصرين في دراسة السيرة النبوية.

ففي معرض حديثه عن صفات الرسول ﷺ تحدث عن زهده وورعه، فقال وبنبرة يلفها الشك والتهوين: " فبعض هذه الصفات تبدو لنا جد حقيقية، وفيها بصمات الصحة، لكن لا ندري أبداً بماذا نثق، إذ هناك أحاديث أخرى تصور النبي في هيئة مختلفة تماماً عن هذه، تنفي أن يكون زهد فعلاً في حياته... ثم يستطرد قائلاً: ومن المؤكد أن الروايات المتحدثة

(١) الإسلام والمستشرقون، ص(٢٥٦).

عن فقر النبي وحرمانه فيها مبالغات كثيرة، فإذا كان باستطاعته أن يهب لعائشة عقد لؤلؤ ثمين، فهو قطعاً ليس في حاجة لرهن درعه[٢]...

(٢) ينظر الاهتمام بالسيرة النبوية باللغة الفرنسية ص(٥٣-٥٤).

الرد على الشبهة

أولاً: إن تركة نبي الرحمة ﷺ تردُّ على هؤلاء، تلك التركة المتواضعة المكونة من: بغلة بيضاء، وسلاحه، وأرض جعلها صدقة، وحجراته المتواضعة[٣].

ثانياً: أما عن حجرات نسائه فإنها لازالت قائمة داخل المسجد النبوي، إذ تشهد على الزهد المثالي والورع النبوي، فقد فتح البلدان، وكان بإمكانه أن يبني ماشاء من القصور والبروج، لكنه ﷺ أبى إلا أن يبقى في تلك الحجرات، التي لايتجاوز طول الحجرة الواحدة بضعة أذرع!! فأين الطمع بالمال ؟!

ثالثاً: لقد ثبت بالأدلة الصحيحة والمشاهد الصريحة أن النبي ﷺ كان لايملك ما يحتاج من قوت حتى إنه رهن درعه عند يهودي من أجل شراء الطعام[٤]، وهكذا كان الحال في مكة، فقد صحَّ أنه خرج ذات يوم أو ليلة فإذا هو بأبي بكر وعمر فقال ﷺ: (ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة ؟) قالا: الجوع يا رسول الله، قال ﷺ: (وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما، قوموا)، فقاموا معه، فأتى رجلاً من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته، فلما رأته المرأة قالت: مرحباً وأهلاً، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أين فلان ؟) قالت: ذهب يستعذب لنا من

---

(٣) ينظر صحيح البخاري- كتاب الوصايا - باب الوصايا حديث رقم: (٢٧٣٩).

(٤) ينظر صحيح البخاري - كتاب الرهن - باب من رهن درعه ١٤٢/٥ ، حديث رقم: (٢٥٠٩).

الماء، إذ جاء الأنصاري فنظر إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم وصاحبيه ثم قال: الحمد لله ما أحد اليوم أكرم أضيافاً مني، قال فانطلق فجاءهم بعذق فيه بسر وتمر ورطب، فقال: كلوا من هذه، وأخذ المدية فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إياك والحلوب)، فذبح لهم، فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق وشربوا، فلما أن شبعوا ورووا قال رسول الله صلى الله عليه و سلم لأبي بكر وعمر: (والذي نفسي بيده لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة أخرجكم من بيوتكم الجوع ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم) (٥).

فهو لايخشى الفقر كما صح عنه أنه قال : " ماأخشى عليكم الفقر، ولكن أخشى عليكم التكاثر، وماأخشى عليكم الخطأ، ولكن أخشى عليكم العمد" (٦).

ويقول الدكتور عبد العزيز قريشي: ولقد أخطأ المستشرقون حين ظنوا أن الحاجة المادية هي التي دفعت المسلمين إلى الفتوحات تحت تهديد السيف، ولقد كان هناك فتوحات إسلامية لم ترق فيها قطرة دم واحدة،

---

(٥) صحيح مسلم – كتاب الأشربة — باب جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه ذلك ، حديث رقم: (٢٠٣٨).

(٦) المسند ٣٠٨/٢، وابن حبان في صحيحه ١٦/٨، حديث ٣٢٢٢، والحاكم في المستدرك ٥٣٤/٢ ، وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي. وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح — وقد عزاه لأحمد — مجمع الزوائد ١٢١/٣، وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح ، المسند بتحقيقه حديث ٨٠٦٠، وحسّن الأرناؤوط إسناده (حاشية الإحسان).

وفتح القدس خير مثال على ذلك، وسيبقى مثلاً رائعاً في سجل التاريخ الإسلامي[٧].

رابعاً: أمّا تعليل مرجليوث أنّ سبب انتقام المسلمين من اليهود في غزوة خيبر هو قتل أحدهم رسولَ رسولِ الله ﷺ، فهو خطأ وافتراء عظيم على الحقائق التاريخية التي لاشك أنها لاتخفى على مرجليوث، فالصواب الثابت تاريخياً[٨] أنّ قتل أحدِ يهود خيبر رسولَ رسولِ الله ﷺ - عبدالله بن سهل- كان بعد غزوة فتح خيبر، وليس قبلها[٩]، حتى يكون سبباً للانتقام منهم[١٠].

خامساً: أما قول مرجليوث: أن أهل خيبر لم يرتكبوا خطأً في حق رسول الله ﷺ، ولا في حق أتباعه.

فإن غزوة خيبر قامت بسبب دسائس يهود خيبر في تحزيب الأحزاب ضد المؤمنين، ولأنهم أثاروا بني قريظة على الغدر والخيانة، وكانوا يعدون العدة لحرب المسلمين، وعند رجوعه بوادي القرى اعتدى بعض اليهود ومن

---

(٧) ينظر سماحة الإسلام ص(١٤٦).

(٨) انظر صحيح البخاري ح(٦١٤٢،٦١٤٣)، صحيح مسلم (٣/١٢٩١-١٢٩٥) حديث رقم: ١٦٦٩.

(٩) حيث ورد في صحيح مسلم المشار إليه في الحاشية السابقة صريحاً أن عبد الله بن سهل وحميصة بن مسعود الأنصاريين خرجا إلى خيبر في زمان رسول الله وهي يومئذ صلح وأهلها يهود ...

(١٠) ينظر الاستشراق وموقفه من السيرة النبوية ص(٤٤-٤٨).

معهم من الأعراب على بعض الصحابة، فنشبت المعركة، ثم عقد معهم صلحاً كما صنع مع أهل خيبر.

سادساً:وفي قول تور أندريه غلطتان:

الأولى: قوله (عقد لؤلؤ ثمين)، والصواب كما في الصحيح: عقد من جزع أظفار[١١]، أي من خرز من مدينة باليمن[١٢].

الثانية: إنكاره رهن الدرع وهو ثابت في الصحيح أيضاً كما تقدم في الفقرة الثالثة.

سابعاً:أطلقت السنة النبوية عنان التملك مهما بلغ المالك من الأموال والقناطير المقنطرة بشرط أن يؤدي المالك حق الزكاة، وشجع التملك حيث صرح بأن ذلك خير من الذي لايملك شيئاً، وثبت عنه ﷺ أنه" اليد العليا خير من اليد السفلى" [١٣].

كما أعطى الإسلام حرية التملك لغير المسلمين، حيث قال الأستاذ الفرنسي جاك ريسلر: كانت جميع الأديان لها حق الممارسة المطلقة في

---

(١١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، سورة النور، باب: لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا إلى قوله : ٱلْكَٰذِبُونَ حديث (٤٧٥٠).

(١٢) فتح الباري (١/٤٣٥).

(١٣) أخرجه البخاري –كتاب الزكاة – باب لاصدقة إلا عن ظهر غنى حديث رقم: ١٤٢٧هـ ، وصحيح مسلم – الزكاة – باب أفضل صدقة الشحيح ٢/ ٧١٧، حديث رقم: ١٠٣٣.

عبادتها، وكان اليهود لديهم مطلق الحرية في اقتناء الثروات، ووصلوا أحياناً إلى مراكز سامية [١٤].

ثامناً: كرمه وعطاؤه ﷺ لغير المسلمين، ومنهم المؤلفة قلوبهم، إذ ذكرهم الله تعالى ضمن الثمانية المستحقين للزكاة كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة/٦٠]، ولما نتابع السنة النبوية نرى تطبيق ذلك مع المشركين، فقد كان يغدق عليهم العطاء، فيعطيهم عطاء من لا يخشى الفقر تأليفاً لقلوبهم، وإحساناً لنفوسهم، فالنفوس جبلت بحب من أحسن إليها، وهكذا كان فعله مع الذين هم حديثو عهد بالإسلام، فمن السنة الفعلية ما أخرجه مسلم عن ابن شهاب قال: غزا رسول الله ﷺ غزوة الفتح - فتح مكة - ثم خرج رسول الله ﷺ بمن معه من المسلمين، فاقتتلوا بحنين، فنصر الله دينه والمسلمين، وأعطى رسول الله ﷺ يومئذ صفوان بن أمية مائةً من النعم، ثم مائة، ثم مائة.

قال ابن شهاب: حدثني سعيد بن المسيب أن صفوان قال: والله لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني، وإنه لأبغض الناس إليّ، فما برح يعطيني حتى إنه لأحب الناس إليّ[١٥].

---

(١٤) انظر قالوا عن الإسلام ص ٢٩٠.

(١٥) الصحيح، كتاب الفضائل، باب ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قط فقال: لا، (٤/١٨٠٦ح٢٣١٣).

وصحّ عنه ﷺ أنه قال: "إني أعطي قريشاً أتألفهم؛ لأنهم حديثو عهد بالجاهلية"[١٦].

وهذا العطاء من الخمس، إذ عقد البخاري كتاباً بعنوان: (فرض الخمس)، ثم تحته باب: (ما كان النبي ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه)، كما في الحديث السابق.

قال الحافظ ابن حجر: قوله: "من الخمس ونحوه" أي: من مال الخراج والجزية والفيء.

قال إسماعيل القاضي: في إعطاء النبي ﷺ للمؤلفة قلوبهم من الخُمُس دلالة على أن الخمس إلى الإمام يفعل فيه ما يرى من المصلحة... واختلف بعد ذلك من أين كان يعطي المؤلفة ؟

فقال مالك وجماعة: من الخُمُس.

وقال الشافعي وجماعة: من خمُس الخُمُس[١٧].

تاسعاً: ومن المناقب النبوية التي تردّ تلك المزاعم أنه ﷺ كان يدافع ويقاتل عن أهل الذمة، وبما أن أخذ الجزية من أهل الذمة كان من أسبابه حفظهم والدفاع عنهم، فقد أوصى بذلك ﷺ ودافع عنهم في عدة مواطن،

---

(١٦) صحيح البخاري، كتاب فرض الخمس، باب ما كان النبي ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه (٦/٢٥٩) حديث رقم: (٣١٤٦).

(١٧) فتح الباري (٦/٢٥٢).

فقد صحَّ عن عمر رضي الله عنه أنه قال: "وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله ﷺ أن يوفى لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم، ولا يكلفوا إلا طاقتهم"[١٨].

قال ابن حجر: في الحديث الحض على الوفاء بالعهد، وحسن النظر في عواقب الأمور، والإصلاح لمعاني المال وأصول الاكتساب[١٩].

قال العلامة العيني: قوله: "بذمة الله" أي عهد الله. قوله: "وأن يقاتل من ورائهم" أراد به دفع الكافر الحربي ونحوه عنهم. قوله: "ولا يكلفوا" على صيغة المجهول من التكليف، ومعناه أن لا يزيدوا على مقدار الجزية[٢٠].

قال الشافعي - رحمه الله تعالى-: وينبغي للإمام أن يظهر لهم أنهم إن كانوا في بلاد الإسلام أو بين أظهر أهل الإسلام منفردين أو مجتمعين فعليه أن يمنعهم من أن يسبيهم العدو أو يقتلهم منعه ذلك من المسلمين، وإن كانت دارهم وسط دار المسلمين وذلك أن يكون من المسلمين أحد بينهم وبين العدو فلم يكن في صلحهم أن يمنعهم فعليه منعهم؛ لأن منعهم منع دار الإسلام دونهم، وكذلك إن كان لا يوصل إلى موضع هم فيه منفردون إلا بأن توطأ من بلادهم شيء كان عليه منعهم وإن لم يشترط ذلك لهم[٢١].

---

(١٨) صحيح البخاري، كتاب الجهاد، باب يقاتل عن أهل الذمة ولا يسترقون، ح(٣٠٥٢)، (١١١١/٣).

(١٩) فتح الباري (٢٦٧/٦).

(٢٠) عمدة القاري (٢٩٧/١٤).

(٢١) الأم، فصل ما يعطيهم الإمام من المنع من العدو(٢٠٧/٤).

عاشراً: لقد عرف العالم زهد النبي ﷺ وورعه وقناعته وعزوفه عن حطام الدنيا، ومن شهادات العلماء الأجانب في الردِّ على هذه الشبهة ما يلي:

١- يقول (الكونت هنري دي كاستري): إن محمداً [ﷺ] ما كان يميل إلى زخارف الدنيا ولم يكن بخيلاً، وكان يستدرّ اللبن من نعاجه بنفسه، ويجلس على التراب، ويرقّع ثوبه ونعاله بيده، ويلبسها مرقعة، وكان قنوعًا، وقد خرج من هذا الباب، ولم يشبع من خبز الشعير مرة في حياته، وتجرد من الطمع، وتمكن من نوال المقام الأعلى في بلاد العرب، ولكنه لم يجنح إلى الاستبداد فيها، فلم تكن له حاشية، ولم يتخذ وزيراً ولا حشماً، وقد احتقر المال، وإنه بلغ من السلطان منتهاه، ومع ذلك لم يكن له علامات الإمارة والملك سوى خاتم من الفضة مكتوب عليه (محمد رسول الله) (٢٢).

٢- يقول المستشرق الفرنسي أميل درمنغم: إن محمداً [ﷺ] الذي خلق القيادة لم يطلب معاصريه بغير ما يفرض عليهم من الطاعة لرجل يبلغهم رسالات الله، فهو بذلك واسطة بين الله رب العالمين والناس أجمعين... ولقد نال السلطان والثراء والمجد، ولكنه لم يغتر بشيء من هذا كله، فكان يفضل إسلام رجل على أعظم الغنائم، ومما كان يمضّه عجز كثير من الناس عن إدراك كنه رسالته... (٢٣)

٣- يقول الكاتب الإنجليزي توماس كارلايل: لقد كان زاهداً متقشفاً في مسكنه ومأكله ومشربه وملبسه وسائر أموره وأحواله، فكان طعامه عادة

---

(٢٢) الإسلام والمستشرقون، ص(٣١٧).

(٢٣) حياة محمد ص(٣٦٠).

الخبز والماء، وكثيراً ما تتابعت الشهور ولم توقد بداره نار، فهل بعد ذلك مكرمة ومفخرة، فحبذا محمد من رجل متقشف خشن الملبس والمأكل، مجتهد في الله، دائب في نشر دين الله، غير طامع إلى ما يطمع إليه غيره من رتبة أو دولة أو سلطان[٢٤].

٤- يقول المستشرق الأمريكي واشنجتون إيرفنج: كان الرسول [ﷺ] ينفق مما يحصل من جزية أو ما يقع في يديه من غنائم في سبيل انتصار الإسلام، وفي معاونة فقراء المسلمين، وكثيراً ما كان ينفق في سبيل ذلك آخر درهم في بيت المال.. وهو لم يخلف وراءه ديناراً أو درهماً أو رقيقاً.. وقد خيَّره الله بين مفاتيح كنوز الأرض في الدنيا وبين الآخرة فاختار الآخرة.

٥- ويقول أيضاً: لقي الرسول [ﷺ] من أجل نشر الإسلام كثيراً من العناء، وبذل عدة تضحيات. فقد شكَّ الكثير في صدق دعوته، وظل عدة سنوات دون أن ينال نجاحاً كبيراً، وتعرض خلال إبلاغ الوحي إلى الإهانات والاعتداءات والاضطهادات؛ بل اضطر إلى أن يترك وطنه ويبحث عن مكان يهاجر إليه هنا وهناك، وتخلَّى عن كل متع الحياة، وعن السعي وراء الثراء من أجل نشر العقيدة.

٦- ويقول أيضاً: برغم انتصارات الرسول [ﷺ] العسكرية لم تثر هذه الانتصارات كبرياءه أو غروره، فقد كان يحارب من أجل الإسلام لا من أجل مصلحة شخصية، وحتى في أوج مجده حافظ الرسول [ﷺ] على

(٢٤) أوروبا والإسلام ص(٤٦-٤٧).

بساطته وتواضعه، فكان يكره إذا دخل حجرة على جماعة أن يقوموا له أو يبالغوا في الترحيب به، وإن كان قد هدف إلى تكوين دولة عظيمة، فإنها كانت دولة الإسلام، وقد حكم فيها بالعدل[٢٥].

٧- يقول العالم الأمريكي جورج سارتون: صدع الرسول [ﷺ] بالدعوة نحو عام ٦١٠م وعمره يومذاك أربعون سنة، وكان مثل إخوانه الأنبياء السابقين عليهم السلام، ولكن كان أفضل منهم بما لا نسبة فيه.. وكان زاهداً وفقيهاً ومشرعاً ورجلاً عملياً... [٢٦].

واختم هذا الرد بآية كريمة تبين من الذي ينشد جمع المال ويفرح به، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس/٥٧-٥٨].

---

(٢٥) أوروبا والإسلام ص(٣٠٠-٣٠٣).

(٢٦) الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط (٢٩-٣١).

أهم المصادر والمراجع

١. الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، للأمير علاء الدين بن بلبان الفارسي، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٠٨ هـ .

٢. الاسلام والمستشرقون، نخبة من العلماء المسلمين، مطبعة عالم المعرفة، جدة، ط١، ١٤٠٥هـ.

٣. الاهتمام بالسيرة النبوية باللغة الفرنسية، د.حسن إدريس عزوزي، هذه البحوث مقدمة لندوة عناية المملكة العربية السعودية بالسنة النبوية، والتي أقيمت في مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف في الفترة ١٥-١٧/٣/١٤٢٥هـ.

٤. الأم – للإمام الشافعي، الطبعة الثانية، دار المعرفة– بيروت ١٣٩٣هـ.

٥. الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط، جورج سارتون، تعريب د.عمر فروخ، مكتبة المعارف، بيروت ١٩٥٢م.

٦. حياة محمد، واشنجتون إيرفنج، ترجمة علي حسين الخربوطلي، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٦٢م.

٧. صحيح مسلم، للإمام مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، تحقيق الدكتور محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

٨. عمدة القاري- للعلامة بدر العيني- دار إحياء التراث العربي- بيروت.

٩. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، طبعة دار الفكر، بيروت، نسخة مصورة عن الطبعة السلفية المصرية.

١٠. قالوا عن الإسلام، د. عماد الدين خليل، الندوة العالمية للشباب الإسلامي الرياض ط١، ١٤١٢هـ.

١١. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد — للهيثمي - مطبعة دار الكتب - بيروت - الطبعة الثانية - ١٩٦٧م.

١٢. المستدرك على الصحيحين، للحافظ الحاكم، وبذيله التلخيص، للحافظ الذهبي صورة عن الطبعة الهندية.

١٣. مسند الإمام أحمد بن حنبل، بتحقيق شعيب الأرناؤوط ومجموعة من العلماء، إشراف معالي الأستاذ الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ.

فهرس الموضوعات

م	الموضوع	الصفحة
١	مقدمة	٣
٢	عرض الشبهة	٦
٣	الرد على الشبهة	٨
٤	شهادة العلماء الأجانب	١٥
٥	المصادر والمراجع	١٨

المملكة العربية السعودية
جامعة الملك عبد العزيز
معهد البحوث والاستشارات
كرسي المعلم محمد عوض بن لادن للدراسات القرآنية

مكتبة المسجد النبوي الشريف
رقم الكتاب ١٤٢٩٨٧
تاريخ التسجيل ١٤٢٩/١/٢هـ
٢٤١٠٤

سلسلة الرد على الشبهات

(٥)

الرد على شبهة الطعن في تفسير بن عباس

إعداد

أ. د. حكمت بن بشير بن ياسين

أستاذ كرسي المعلم محمد عوض بن لادن للدراسات القرآنية

مراجعة

د. محمد بن عبدالله الحلواني

المشرف على الكرسي ورئيس قسم الدراسات الاسلامية سابقاً

طبعة تجريبية للمتخصصين

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

كرسي المعلم محمد عوض بن لادن للدراسات القرآنية

هاتف: ٦٩٥٢٠٠٠ تحويلة :٦٧٢٤٦/ فاكس : ٦٩٥٢٠٠٠ تحويلة : ٦٨٨٥٧
ص.ب. ٨٠٢٠٢ جدة ٢١٥٨٩ / جوال : ٠٥٠٣٤٠٩٢٨٩

الموقع الألكتروني: http://binladenchair-qs.kau.edu.sa
البريد الألكتروني: quran.s.c@hotmail.com

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله ومن والاه، أما بعد:

فقد أثار شبهة الطعن في تفسير ابن عباس رضي الله عنهما بعض المستشرقين، وتأثر بها بعض علماء المسلمين، ومن هؤلاء الذين تأثروا بها أ.د. فؤاد سزكين مؤلف كتاب: (تاريخ التراث العربي)، الذي أودع فيه درراً من نفائس تراث القرون الأربعة الأولى وأوائل القرن الخامس من الموجود والمفقود، فنظمها في هذا الكتاب فأجاد وأفاد، بيد أنه وقع في بعض الهفوات العلمية؛ بسبب كثرة نقوله عن بعض المستشرقين الحاقدين، من طراز جولد تسيهر، إذ نقل منهم الغث والسمين من دون تتبع ولانقد ولاتوجيه إلا في بعض الأحيان ومن هذه الهفوات قدحه في تفسير الصحابي الجليل عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، ولما كان هذا القدح في ركن من أركان التفسير فإنه يؤدي إلى الطعن في التفسير بالمأثور الذي هو سنام التفسير[1]، من أجل ذلك جاء الرد على هذه الشبهة الخطيرة، وقد اقتضت أن تكون خطة البحث كما يلي:

- المقدمة.
- القسم الأول: عرض الشبهة.
- القسم الثاني: الرد على الشبهة.
- القسم الثالث: شبهة مصادر ابن عباس في التفسير.

---

(١) ينظر : ص٢٤ من هذا البحث.

ويطيب لي أن أتقدم بالشكر الجزيل لرعاة الكرسي أولي الفضل والبذل: سعادة المهندس بكر بن محمد عوض بن لادن مدير عام ورئيس مجلس إدارة مجموعة ابن لادن السعودية، وسعادة المهندس يحيى بن محمد عوض ابن لادن، رئيس مجلس الإدارة والمدير العام بالنيابة، وسعادة الدكتور عبد الله بن لادن المشرف على الكراسي العلمية، ويرحم الله تعالى والد القائمين على الكرسي: المعلم محمد عوض بن لادن، ذلك الرجل الذي سُمي الكرسي باسمه، والشكر موصول لسعادة الأستاذ الدكتور عبد اللطيف خماخم مستشار مجموعة ابن لادن السعودية ونائب الرئيس للتطوير الإداري ومدير برنامج مابعد الألفية الثانية للتطوير على جهوده المباركة في عنايته وتقديره لهذا الكرسي، كما أتقدم بالشكر الجزيل لمعالي مدير الجامعة الأستاذ الدكتور أسامة بن صادق طيب، ولسعادة الدكتور أحمد بن حامد نقادي وكيل الجامعة للأعمال والإبداع المعرفي، ولسعادة الدكتور محمد نجيب الخياط عميد معهد البحوث والاستشارات ووكيليه: سعادة الدكتور عبدالله بن أحمد الغامدي، وسعادة الدكتور حسين بن محمد برعي، وإلى أصحاب السعادة أعضاء لجنة أبحاث الكراسي العلمية بالجامعة، والشكر الجزيل إلى سعادة الدكتور محمد بن عبدالله الحلواني المشرف على الكرسي الذي بذل جهداً مشكوراً في مراجعة هذا البحث، وللشيخ الفاضل إبراهيم ابن محمد أول الباحث المساعد الذي قام بالتنسيق الطباعي.

والله تعالى ولي التوفيق،،،

أ.د. حكمت بن بشير بن ياسين
أستاذ كرسي المعلم محمد عوض بن لادن
للدراسات القرآنية

عرض الشبهة

نقل الأستاذ فؤاد سزكين الطعن في تفسير ابن عباس رضي الله عنهما عن المستشرق (جولد تسيهر) في كتابه: (اتجاهات التفسير القرآني) إذ قال في الرواة عن ابن عباس: "وهناك شروح أخرى لا تحصى ترجع إلى ابن عباس، ويبدو أنها مأخوذة من كتب تلاميذه التي أنجزت تارة أثناء مجالس العلم العامة، وتارة في مجالسه الخاصة أوفي مناقشاته، على أن الاختلافات بل حتى أحياناً التناقضات بين هذه التفسيرات يمكن أن تفسر إلى حد ما كنتيجة للتطور الذي طرأ على فكر ابن عباس وعلى فكر تلاميذه الذين كانوا يتوجهون إليه دائماً بأسئلة، ثم يؤلفون بعد ذلك كتبهم في التفسير.

ويتضح من النصوص أن التفسير القرآني قد تطور في هذه الفترة تطوراً قوياً وسريعاً، وفضلاً عن هذا فلدينا انطباع أن ابن عباس وتلاميذه لم يكن بإمكانهم أن يتجنبوا التفسير الحر للقرآن الكريم، في وقتٍ تطور فيه تفسير القرآن تطوراً سريعاً، وكثيراً ما أدخل هؤلاء مبدأ (الرأي) وطبقوه في مجال التفسير، ودفع الحرص على تفسير القرآن أيضاً عبد الله ابن عباس وبعض تلاميذه إلى علماء النصارى واليهود من أهل الكتاب" اهـ[٢].

(٢) تاريخ التراث العربي ١/٦٠ .

الرد على الشبهة

أما إشارته إلى الاختلافات والتناقضات من دون دليل ولا توجيه، فهو افتراء على الرواة الثقات من تلاميذ ابن عباس رضي اللّه عنهما، وهم من رجال الشيخين الجليلين الإمام البخاري والإمام مسلم؛ بل هم أولئك الرواة الثقات صفوة التابعين المفسرين، وما ذكره من الاختلافات والتناقضات لا ينبغي إطلاقه بدون ترجيح أو توجيه، فإن ما ورد في ذلك لا يخلو من أمرين: إما أن يروى بإسناد ضعيف، أو أنه يروى بإسناد ثابت، فما ورد بسند ضعيف لا يدخل في هذه المسألة ويكون من باب المرجوح، وأما ما ثبت فإنه خلاف تنوع لا اختلاف تضاد وتناقض، وقد بين ذلك وفصّله شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه اللّه فقال في كتابه الموسوم بـ: (مقدمة في أصول التفسير): "الخلاف بين السلف في التفسير قليل، وخلافهم في الأحكام أكثر من خلافهم في التفسير، وغالب ما يصح عنهم من الخلاف يرجع إلى اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد. وذلك صنفان: أحدهما: أن يعبر كل واحد منهم عن المراد بعبارة غير عبارة صاحبه تدل على معنى في المسمى غير المعنى الآخر مع اتحاد المسمى، بمنزلة الأسماء المتكافئة التي بين المترادفة والمتباينة، كما قيل في اسم السيف: الصارم والمهند، وذلك مثل أسماء اللّه الحسنى وأسماء رسوله ﷺ وأسماء القرآن، فإن أسماء اللّه كلها على مسمى واحد، فليس دعاؤه باسم من أسمائه الحسنى مضاداً لدعائه باسم آخر؛ بل الأمر كما قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [الإسراء: ١١٠]" اهـ. ثم تكلم عن الأسماء والصفات للّه تعالى

وعن أسماء النبي ﷺ وأسماء القرآن ثم قال: " إذا عرف هذا فالسلف كثيراً مايعبرون عن المسمى بعبارة تدل على عينه، وإن كان فيها من الصفة ما ليس في الاسم الآخر، كمن يقول: أحمد هو الحاشر والماحي والعاقب. والقدوس هو الغفور والرحيم، أي المسمى واحد لا أن هذه الصفة هي هذه. ومعلوم أن هذا ليس اختلاف تضاد كما يظنه بعض الناس، مثال ذلك: تفسيرهم للصراط المستقيم، فقال بعضهم: هو القرآن - أي اتباعه - لقول النبي ﷺ في حديث علي ﷺ الذي رواه الترمذي ورواه أبو نعيم من طرق متعددة: "هو حبل اللّه المتين، والذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم "[٣]، وقال بعضهم: هو الإسلام لقوله ﷺ في حديث النواس بن سمعان الذي رواه الترمذي وغيره: " ضرب اللّه مثلاً صراطاً مستقيماً، وعلى جنبتي الصراط سوران، وفي السورين أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وداع يدعو من فوق الصراط، وداع يدعو على رأس الصراط. قال: فالصراط المستقيم هو الإسلام، والسوران حدود اللّه، والأبواب المفتحة محارم اللّه، والداعي على رأس الصراط كتاب اللّه، والداعي فوق الصراط واعظ اللّه في قلب كل مؤمن " [٤]. فهذان القولان متفقان؛ لأن دين الإسلام هو اتباع القرآن، ولكن كل منهما نبه على وصف غير الوصف الآخر، كما أن لفظ (صراط) يشعر بوصف ثالث، وكذلك قول من قال:

---

(٣) سنن الترمذي ، كتاب فضائل القرآن ، باب ماجاء في فضل القرآن ، ١٧٢/٥، حديث رقم : ٢٩٠٦، وأبو نعيم في الحلية ٣٨٠/٢.

(٤) انظر سنن الترمذي، كتاب الأمثال عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب: ما جاء في مثل الله لعباده، ١٤٤/٥حديث رقم : ٢٨٥٩،.

هو السنة والجماعة، وقول من قال: هو طريق العبودية. وقول من قال: هو طاعة اللّه ورسوله ﷺ، وقد يجيء كثيراً من هذا الباب قولهم: هذه الآية نزلت في كذا، لاسيما إن كان المذكور شخصاً، كأسباب النزول المذكورة في التفسير، كقولهم: إن آية الظهار نزلت في امرأة أوس بن الصامت، وإن آية اللعان نزلت في عويمر العجلاني أو هلال بن أُمية، وإن آية الكلالة نزلت في جابر بن عبد الله، وإن قوله: ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ [المائدة: ٤٩]نزلت في بني قريظة والنضير، وإن قوله: ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥ ﴾ [الأنفال: ١٦] نزلت في بدر، وإن قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ ﴾ [المائدة: ١٠٦] نزلت في قضية تميم الداري وعدي بن بداء، وقول أبي أيوب رضي الله عنه إن قوله: ﴿ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة: ١٩٥] نزلت فينا معشر الأنصار. الحديث، ونظائر هذا كثير مما يذكرون أنه نزل في قوم من المشركين بمكة، أوفي قوم من أهل الكتاب اليهود والنصارى، أو في قوم من المؤمنين. فالذين قالوا ذلك لم يقصدوا أن حكم الآية مختص بأولئك الأعيان دون غيرهم، فإن هذا لا يقوله مسلم ولا عاقل على الإطلاق، والناس وإن تنازعوا في اللفظ العام الوارد على سبب هل يختص بسببه أم لا؟ فلم يقل أحد من علماء المسلمين: إن عمومات الكتاب والسنة تختص بالشخص المعين، وإنما غاية ما يقال: إنها تختص بنوع ذلك الشخص فيعم ما يشبهه، ولا يكون العموم فيها بحسب اللفظ، والآية التي لها سبب معين إن كانت أمراً ونهياً فهي متناولة لذلك الشخص ولغيره ممن كان بمنزلته، وإن كانت خبراً بمدح أو ذم فهي متناولة لذلك الشخص ولمن بمنزلته أيضاً،

وهذان الصنفان اللذان ذكرناهما في تنوع التفسير تارة لتنوع الأسماء والصفات، وتارة لذكر بعض أنواع المسمى وأقسامه كالتمثيلات، هما الغالب في تفسير سلف الأمة الذي يظن أنه مختلف. ومن التنازع الموجود عنهم ما يكون اللفظ فيه محتملاً للأمرين، إما لكونه مشتركاً في اللغة كلفظ: ﴿ قَسْوَرَةٍ ﴾ [المدثر: ٥١] الذي يراد به الرامي ويراد به الأسد، ولفظ: ﴿ عَسْعَسَ ﴾ [التكوير: ١٧] الذي يراد به إقبال الليل وإدباره، وإما لكونه متواطئاً في الأصل لكن المراد به أحد النوعين أو أحد الشيئين كالضمائر في قوله: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۞ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ [النجم: ٨-٩] وكلفظ ﴿ وَٱلْفَجْرِ ۞ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۞ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴾ [الفجر: ١-٣] وما أشبه ذلك، فمثل هذا قد يجوز أن يراد به كل المعاني التي قالها السلف، وقد لا يجوز ذلك. فالأول إما لكون الآية نزلت مرتين فأريد بها هذا تارة وهذا تارة، وإما لكون اللفظ المشترك يجوز أن يراد به معنياه، إذ قد جوز ذلك أكثر الفقهاء المالكية والشافعية والحنبلية وكثير من أهل الكلام، وإما لكون اللفظ متواطئاً فيكون عاماً إذا لم يكن لتخصيصه موجب، فهذا النوع إذا صح فيه القولان كان من الصنف الثاني، ومن الأقوال الموجودة عنهم ويجعلها بعض الناس اختلافاً أن يعبروا عن المعاني بألفاظ متقاربة لا مترادفة، فإن الترادف في اللغة قليل، وأما في ألفاظ القرآن فإما نادر وإما معدوم، وقلّ أن يعبر عن لفظ واحد بلفظ واحد يؤدي جميع معناه؛ بل يكون فيه تقريب لمعناه، وهذا من أسباب إعجاز القرآن، فإذا قال القائل: ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ ﴾ [الطور: ٩] إن المور هو: الحركة كان تقريباً، إذ المور حركة خفيفة سريعة.

وكذلك إذا قال: الوحي الإعلام، أو قيل: أوحينا إليك أنزلنا إليك، أو قيل: ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الإسراء: ٤] أي أعلمنا وأمثال ذلك، فهذا كله تقريب لا تحقيق، فإن الوحي هو إعلام سريع خفي، والقضاء إليهم أخص من الإعلام، فإن فيه إنزالاً إليهم وإيحاءً إليهم. وكذلك إذا قيل: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ [البقرة: ٢] هذا القرآن فهذا تقريب؛ لأن المشار إليه وإن كان واحداً فالإشارة بجهة الحضور غير الإشارة بجهة البعد والغيبة، ولفظ (الكتاب) يتضمن من كونه مكتوباً مضموناً ما لا يتضمنه لفظ القرآن من كونه مقروءاً مظهراً بادياً، فهذه الفروق موجودة في القرآن. فإذا قال أحدهم: ﴿ أَن تُبْسَلَ ﴾ [الأنعام: ٧٠] أي تحبس، وقال الآخر: ترتهن ونحو ذلك. لم يكن من اختلاف التضاد وإن كان المحبوس قد يكون مرتهناً وقد لا يكون، إذ هذا تقريب للمعنى كما تقدم، والاختلاف قد يكون لخفاء الدليل، أو الذهول عنه، وقد يكون لعدم سماعه، وقد يكون الغلط في فهم النص، وقد يكون لاعتقاد معارض راجح. فالمقصود هنا التعريف بمجمل الأمر دون تفاصيله" اهـ(٥).

وأضيف إلى ما ذكره شيخ الإسلام أن الخلاف قد يكون بسبب القراءات المتواترة، ففي بعض الأحيان يكون لكل قراءة معنى، وكذلك بعضهم يورد بعض القراءات الشاذة للتفسير لا للتلاوة.

---

(٥) مقدمة في أصول التفسير ص ١١- ٢٠.

هذا بالنسبة لشبهة الاختلاف والتناقض، وقد تمخض من هذه الشبهة أنه رتب على ذلك نتيجة التطور الذي طرأ في فكر ابن عباس رضي الله عنهما وفكر تلاميذه هكذا نقل. وأقول: إن هذا الاستنتاج باطل؛ لأن دليله باطل، وأنه لم يطرأ أي تطور على فكر ابن عباس ولا على فكر تلاميذه؛ لأن فكرهم ومنهجهم منضبط بين دفتي القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، ويعتمد على النقل، وقد صح عن عبيد الله بن أبي يزيد قال: " كان ابن عباس إذا سئل عن الأمر، فإن كان في القرآن أخبر به، وإن لم يكن في القرآن وكان عن رسول اللّه صلى الله عليه وسلم أخبر به، فإن لم يكن في القرآن ولا عن رسول اللّه وكان عن أبي بكر وعمر أخبر به، فإن لم يكن من ذلك اجتهد رأيه"(٦)، وما ذكره من الاجتهاد فهو أهل لذلك حيث أخذ العلم عن عشرات الصحابة فقد صح عن ابن عباس أنه قال: "إن كنت لأسأل عن الأمر الواحد ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ" (٧).

ولم يطلق رأيه في كل شيء، فما لم يعرفه يسكت عنه ويأبى أن يقفُوَ ما ليس له به علم، فقد أخرج أبوعبيد القاسم بن سلام عن محمد بن جعفر، عن شعبة، عن عمرو بن مرة، قال رجل لسعيد بن جبير: أما رأيت ابن عباس حين سئل عن هذه الآية: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ

(٦) أخرجه ابن سعد والدارمي من طريق عبيد اللّه بن أبي يزيد به. الطبقات الكبرى ٢/٣٦٦، وصححه ابن حجر في الإصابة في تمييز الصحابة ٤/ ١٤٩.

(٧) ذكره الذهبي من طريق يزيد بن إبراهيم عن سليمان الأحول عن طاووس عن ابن عباس، ثم قال إسناده صحيح. سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٤٤.

أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ [النساء: ٢٤] فلم يقل فيها شيئاً، فقال سعيد: " كان لا يعلمها "[٨].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وقال ابن جرير: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، قال حدثنا ابن علية، عن أيوب، عن ابن أبي مليكة، أن ابن عباس سئل عن آية لو سئل عنها بعضكم لقال فيها، فأبى أن يقول فيها " إسناده صحيح.

وقال أبو عبيد: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، عن أيوب، عن ابن أبي مليكة قال: "سأل رجل ابن عباس عن (يوم كان مقداره ألف سنة)، فقال له ابن عباس فما ﴿ يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [المعارج: ٤]فقال الرجل: إنما سألتك لتحدثني، فقال ابن عباس: "هما يومان ذكرهما الله في كتاب الله، اللّه أعلم بهما"، فكره أن يقول في كتاب الله ما لا يعلم"[٩].

وكان قد أفتى الناس في مسألة الصرف[١٠] فقد أخرج البخاري بسنده عن أبي صالح الزيات، أنه سمع أبا سعيد الخدري رضي اللّه عنه يقول: " الدينار بالدينار والدرهم بالدرهم ". فقلت له: فإن ابن عباس لا يقوله. فقال أبو سعيد: سألته فقلت: سمعته من النبي صلى الله عليه وسلم أو

---

(٨) فضائل القرآن رقم: ٨٢٧، وأخرجه الطبري من طريق محمد بن جعفر به. التفسير رقم: ٩٠١٣.

(٩) مقدمة في أصول التفسير ص٤٨.

(١٠) والصرف بفتح الصاد: دفع ذهب وأخذ فضة وعكسه، وله شرطان: منع النسيئة مع اتفاق النوع واختلافه وهو المجمع عليه، ومنع التفاضل في النوع الواحد منهما وهو قول الجمهور. انظر فتح الباري ٣٨٢/٤.

وجدته في كتاب اللّه؟ قال: كل ذلك لا أقول، وأنتم أعلم برسول اللّه صلى الله عليه وسلم مني، ولكن أخبرني أُسامة أن النبي الله عليه وسلم قال: " لا ربا إلا في النسيئة "[١١]، ولكنه رجع عنها، وقد أخرج الحاكم بسنده عن عبد اللّه بن مليك العجلي قال سمعت ابن عباس رضي اللّه عنهما قبل موته بثلاث يقول: " اللهم إني أتوب إليك مما كنت أفتي الناس في الصرف". وصححه ووافقه الذهبي، وقال الحاكم: "وهو من أجل مناقب عبد اللّه بن عباس أنه رجع عن فتوى لم ينقم عليه في شيء غيرها "[١٢].

وورد في صحيح مسلم: أن أبا الصهباء سأل ابن عباس عنه بمكة فكرهه[١٣].

ومن هنا نستنتج أن ابن عباس لم يطرأ على فكره أي تطور؛ بل هو من الصحابة الذين أخذوا منهج القراءة والتفسير عن رسول اللّه ﷺ ، فقد أخرج أبو عمرو الداني في كتاب (البيان) بإسناده عن عثمان وابن مسعود وأبيّ: " أن رسول اللّه ﷺ كان يقرئهم العشر فلا يجاوزونها إلى عشر أخرى حتى يتعلموا ما فيها من العمل، فيعلمنا القرآن والعمل جميعا ". وذكر عبد الرزاق، عن معمر، عن عطاء بن السائب، عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: " كنا إذا تعلمنا عشر آيات من القرآن لم نتعلم العشر التي بعدها

---

(١١) الصحيح- البيوع - باب بيع الدينار بالدينار نساء رقم: ٢١٧٨-٢١٧٩.

(١٢) المستدرك ٤٥٢/٣.

(١٣) صحيح مسلم - كتاب المساقاة - باب بيع الطعام مثلاً بمثل رقم: ١٠٠.

حتى نعرف حلالها وحرامها وأمرها ونهيها "[١٤]، وأخرجه ابن عساكر والذهبي عن ابن مسعود بنحوه[١٥].

وكفى بشهادة ابن مسعود، فقد صح عنه أنه قال: " نعم ترجمان القرآن ابن عباس"[١٦]، وبدعاء النبي صلى الله عليه وسلم: " اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل"[١٧].

أما ما ذكره أ.د.سزكين في قوله عن ابن عباس وتلاميذه: "وكثيراً ما أدخل هؤلاء مبدأ الرأي وطبقوه في مجال التفسير، ودفع الحرص على تفسير القرآن أيضاً عبد اللّه بن عباس وبعض تلاميذه إلى علماء النصارى واليهود من أهل الكتاب " اهـ.

وأقول: قبل أن نحكم أنهم فسروا بالرأي لابد من معرفة ثبوت الإسناد إليهم؛ لأنه ما روي من طريق الكلبي وعطية العوفي وأبي صالح باذام- أو باذان- أو من طريق الضحاك بن مزاحم فكل هذه الطرق ضعيفة لا تثبت، أما ما ورد من الطرق الصحيحة في التفسير

---

(١٤) انظر الجامع لأحكام القرآن ١/٣٩.

(١٥) تاريخ دمشق ترجمة ابن مسعود ص ٩٣- ٩٤، وسير أعلام النبلاء ١/ ٤٩٠.

(١٦) أخرجه الطبري بسنده عن ابن مسعود، وصححه شيخ الإسلام ابن تيمية في مقدمة في أصول التفسير ص ٤٠.

(١٧) أخرجه أحمد والفسوي والطبراني بأسانيد عن ابن عباس، وصححه أحمد شاكر، وقال الهيثمي: ولأحمد طريقان رجالهما رجال الصحيح: المسند رقم: ٣٠٣٣، والمعرفة والتاريخ ١/ ٤٩٤، والمعجم الصغير ١/١٩٧، ومجمع الزوائد ٩/ ٢٧٦، وأخرجه البخاري ومسلم بمعناه: صحيح البخاري رقم: ٧٢٧٠، وصحيح مسلم رقم: ٢٤٧٧.

بالرأي عنهم فهو من قبيل الرأي المحمود لا المذموم كآراء الزنادقة وأهل الشبهات، فآراء ابن عباس وتلاميذه لا تخلو من أربعة أمور: إما الاستنباط من القرآن والسنة وأقوال الصحابة كما سيأتي عن مجاهد بن جبر، وإما ما أخذوه من لغة العرب، أو وجوه القراءات المتواترة، أو عن أهل الكتاب، فإنه فيما سكت عنه أو ما وافق القرآن والسنة؛ لأن الإسرائيليات على أنواع كما قسمها شيخ الإسلام ابن تيمية إلى ثلاثة أقسام:

أحدها: ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق فذاك صحيح.

والثاني: ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه.

والثالث: ما هو مسكوت عنه، لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل، فلا نؤمن به ولا نكذبه، وتجوز حكايته لما تقدم، وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني[١٨].

والقسم الأول قد ورد في الصحيحين مرفوعاً، كحديث الذي قتل مائة نفس، وحديث الأبرص والأقرع والأعمى، وكلاهما متفق عليه؛ بل عقد البخاري باباً بعنوان: باب ما ذكر عن بني إسرائيل[١٩]، فمثل هذا يصدق إذا وصل إلينا بالنقل الصحيح.

---

(١٨) مقدمة في أصول التفسير ص ٤٢.

(١٩) انظر صحيح البخاري - كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل رقم: ٣٢٧٧.

وهنا يأتي الرد على قوله في أخذ ابن عباس وتلاميذه عن أهل الكتاب، فهم لا يأخذون ما خالف الكتاب والسنة، وما ورد من هذا القبيل لابد من التثبت؛ لأن أهل الأهواء قد أدخلوا على ابن عباس الكثير، وبنقد الأسانيد تُفضح أهواؤهم ودسائسهم بواسطة النقاد الجهابذة.

الرد على شبهة مصادر ابن عباس في التفسير اللغوي

هذه الشبهة أيضاً أوردها أ.د.سزكين واستدل بسؤالات نافع بن الأزرق لابن عباس معتمداً أيضاً على المستشرقين من طراز لوت وجولد تسيهر، فذكر أن التفسير اللغوي الخالص للقرآن الكريم بدأ بإجابات ابن عباس على أسئلة نافع بن الأزرق فقال: "ويبدو أن محاولات التفسير اللغوي الخالص للقرآن الكريم بدأت بإجابات ابن عباس على أسئلة نافع بن الأزرق أحد زعماء الخوارج"(٢٠).

وأقول: إن هذا الاستدلال لا يقوي ما ذهب إليه أ.د.سزكين؛ لأن هذه الأسئلة لم تثبت، فقد وصلت إلينا بواسطة الطبراني في (المعجم الكبير)(٢١)، وابن الأنباري في كتابه (الإيضاح في الوقف والابتداء)(٢٢)، والسيوطي في كتابه (الإتقان في علوم القرآن)(٢٣).

وكل هذه الطرق ضعيفة جداً، فما أورده الطبراني من طريق جويبر وهو متروك كما في التقريب لابن حجر، وما أورده ابن الأنباري من طريق محمد ابن زياد اليشكري وهو كذاب يضع الحديث(٢٤)، وما أورده السيوطي من

---

(٢٠) تاريخ التراث العربي ١/ ٦١. .

(٢١) ١٠/٣٠٤-٣١٢.

(٢٢) ص ٧٦-٩٨.

(٢٣) ١/١٥٨-١٧٥.

(٢٤) لسان الميزان ٣/٥٥٢.

طريق عيسى بن دأب وهو منكر الحديث ويضع الحديث[٢٥]، فكلها طرق تالفة لا تصلح للاستشهاد والاستدلال.

ومن عجبٍ أن أ.د.سزكين يوافق المستشرقين في أخطائهم فيما ينقله عنهم، ويخالفهم في بعض صوابهم وهو قليل، ومثاله هذه التساؤلات التي لم تثبت، حيث ذهب إلى ذلك (جولد تسيهر) اليهودي فقال معقباً عليه: " وهناك أسباب أخرى تجعلنا لا نتفق مع (جولد تسيهر) في اعتباره هذا الخبر مجرد أسطورة، فابن عباس شرح المائتي كلمة — تقريباً – التي قدمها له نافع بن الأزرق أحد زعماء الخوارج، بشواهد من الشعر الجاهلي"[٢٦].

وفي الصفحة نفسها وافق المستشرقين: (جولد تسيهر) اليهودي و(لوت) في بعض الافتراءات على ابن عباس رضي اللّه عنهما، فقال بعد الفقرة السابقة: " إن المقتبسات الباقية التي ترجع إلى عبد الله بن عباس تذكر أحياناً أسماء عدد من الرواة، وفي هذه المقتبسات يتضح أن ابن عباس ذكر روايات عن النبي ﷺ وعن كبار الصحابة، وأنه اعتمد– من ناحية أخرى – في شرح دلالات الكلمات على أحد المخضرمين وهو أبو الجلد جيلان بن فروة، وكان أبو الجلد مخضرماً يزهو بأنه قرأ كتباً قديمة. وقد ورد (في هذه النصوص) أيضاً اسمان ليهوديين أسلما، هما كعب الأحبار وعبد الله بن سلام، وكان كعب حبراً يمنياً، وقد وصفها لوت بأنها (مدرسة ذات لون يهودي) تنتسب إلى ابن عباس" اهـ.

---

(٢٥) لسان الميزان ٤/٤٠٨.

(٢٦) تاريخ التراث العربي ١/ ٦٥.

وفي هذا النقل وجهان من الافتراءات:

الوجه الأول: أن ابن عباس روى عن أبي الجلد، ثم استدل بخمس روايات من تفسير الطبري، وذكر مواطنها، وأسوقها بالترتيب كما وردت: قال الطبري: حدثنا أحمد بن إسحاق قال حدثنا أبو أحمد الزبيري قال حدثنا بشر بن إسماعيل عن أبي كثير قال: كنت عند أبي الجلد، إذ جاءه رسول ابن عباس بكتاب إليه، فكتب إليه: " كتبت تسألني عن الرعد، فالرعد الريح "(٢٧).

حدثنا أحمد بن إسحاق الأهوازي قال: حدثنا أبو أحمد الزبيري قال حدثنا بشر بن إسماعيل عن أبي كثير قال: كنت عند أبي الجلد، إذ جاءه رسول ابن عباس بكتاب إليه، فكتب إليه: " كتبت إليّ تسألني عن البرق، فالبرق الماء "(٢٨).

حدثنا إبراهيم بن عبد الله قال حدثنا عمران بن ميسرة قال حدثنا ابن إدريس عن الحسن بن الفرات عن أبيه قال: كتب ابن عباس إلى أبي الجلد يسأله عن البرق، فقال: " البرق ماء ".

حدثنا ابن حميد قال حدثنا جرير عن عطاء عن رجل من أهل البصرة من قرائهم قال: كتب ابن عباس إلى أبي الجلد - رجل من أهل هجر-

---

(٢٧) تفسير الطبري١/ ٣٤٢، ٣٤٣ رقم ٤٣٧، ٤٤٣.

(٢٨) المصدر السابق .

يسأله عن البرق، فكتب إليه: " كتبت إليّ تسألني عن البرق، وإنه الماء"[٢٩].

وحدثني المثنى بن إبراهيم قال حدثنا مسلم بن إبراهيم قال حدثنا القاسم قال حدثني رجل من بني تميم أن ابن عباس كتب إلى أبي الجلد يسأله عن الشجرة التي أكل منها آدم، والشجرة التي تاب عندها ؟ فكتب إليه أبو الجلد: " سألتني عن الشجرة التي نهي عنها آدم وهي السنبلة، وسألتني عن الشجرة التي تاب عندها آدم وهي الزيتونة "[٣٠].

وهذه الروايات كلها ضعيفة ففي الرواية الأولى والثانية بشر بن إسماعيل. نقل ابن أبي حاتم عن أبيه: أنه مجهول[٣١]، وكذا نقل الذهبي في (ديوان الضعفاء والمتروكين)، والحافظ ابن حجر في (لسان الميزان) في ترجمته.

وأما الرواية الثالثة: ففي الإسناد فرات بن أبي عبد الرحمن القزاز، ثقة لكن روايته عن ابن عباس منقطعة، فالإسناد ضعيف.

وأما الرواية الرابعة والخامسة: ففي كل واحدة منها شيخ مبهم لم يصرح باسمه، وكذلك في الرواية الأولى والثانية أبو كثير، ما عرفت من هو، وقد قال فيه الشيخ أحمد شاكر: "وهو إسناد مشكل ما وجدت ترجمة بشر بن إسماعيل، وما عرفت من هو، ثم لم أعرف من هو أبو كثير الراوي عن أبي الجلد" اهـ.

---

(٢٩) تفسير الطبري١/ ٣٤٣، ٣٤٤، ٥١٧، رقم: ٤٤٤ ،٤٤٥، ٧٢٣.

(٣٠) تفسير الطبري١/ ٣٤٣، ٣٤٤، ٥١٧، رقم: ٤٤٤، ٤٤٥، ٧٢٣.

(٣١) الجرح والتعديل٢/٣٥٢.

هذا بالنسبة للإسناد، أما بالنسبة للمتن فقد ورد عن ابن عباس رضي اللّه عنهما أن تفسير(الرعد): الريح. وما ثبت عنه مرفوعاً أنه ملك من ملائكة اللّه موكل بالسحاب، كما أخرج الإمام أحمد[٣٢] والترمذي[٣٣] والنسائي[٣٤] وابن أبي حاتم[٣٥]، من طريق بكير بن شهاب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: أقبلت يهود إلى رسول اللّه صلّى الله عليه وسلم فقالوا: يا أبا القاسم أخبرنا ما هذا الرعد؟ قال: "ملك من ملائكة اللّه موكل بالسحاب بيده أو في يده مخاريق من نار يزجر به السحاب ويسوقه حيث أمره اللّه ". قالوا: فما هذا الصوت الذي يسمع؟ قال:" صوته " قالوا: صدقت. واللفظ لابن أبي حاتم وقد ساقه مقتصراً على موضع تفسير الرعد والحديث طويل، وقال الترمذي: حسن غريب. وفي نسخة تحفة الأحوذي: حسن صحيح غريب[٣٦] ، وذكره الهيثمي ونسبه إلى أحمد والطبراني وقال: ورجالهما ثقات[٣٧]، وصححه أحمد شاكر في تعليقه على مسند أحمد[٣٨]، والألباني في صحيح سنن الترمذي[٣٩].

---

(٣٢) المسند رقم: ٢٤٨٣.

(٣٣) السنن – تفسير سورة الرعد رقم: ٣١١٧.

(٣٤) في السنن الكبرى كما في تحفة الأشراف٤/٣٩٤.

(٣٥) التفسير رقم: ١٨٦.

(٣٦) تحفة الأحوذي ٨/٥٤٢-٥٤٤.

(٣٧) مجمع الزوائد ٨/٢٤٢.

(٣٨) المسند رقم:٢٤٨٣.

(٣٩) رقم:٢٤٩٢.

فكيف يتفق هذا الثابت مع ذلك الذي لم يثبت؟ وهل عند ابن عباس مذهب قديم وجديد كالشافعي؟ لا. وإنما المسألة فيها الثابت وغير الثابت، فقد استشهد أ.د.سزكين بغير الثابت وهذا لا يصلح للاستدلال.

هذا وقد وردت عدة روايات عن ابن عباس رضي اللّه عنهما ظاهرها التناقض، ولكن بعد النقد نجد التوجيه بالترجيح، وبالتمثيل يزداد التوضيح، فقد ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ ﴾ [النساء: ٨]، عن ابن عباس قولان:

الأول ما أخرجه البخاري بسنده الصحيح عن ابن عباس قال: "هي محكمة وليست بمنسوخة"(٤٠).

الثاني: ما أخرجه ابن أبي حاتم في (تفسيره)(٤١) وابن الجوزي في (نواسخ القرآن) (٤٢)بسنديهما عن عطاء الخراساني عن ابن عباس: أنها منسوخة، وأخرجه النحاس في (الناسخ والمنسوخ) من طريق حميد الأعرج عن مجاهد عن ابن عباس(٤٣).

فهل نقول إن القولين متناقضان ؟ كلا؛ لأن الرأي الأول ورد بسند صحيح، أما الرأي الثاني فهو ضعيف؛ فيه عطاء الخراساني صدوق يهم

---

(٤٠) الصحيح- كتاب التفسير- سورة النساء- باب ﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ ﴾ رقم :٤٥٧٦.

(٤١) تفسير القرآن العظيم- سورة النساء - رقم النص : ٣٣٦.

(٤٢) ص٢٥٥.

(٤٣) ص ٩٥.

كثيراً ويرسل ويدلس ولم يلق ابن عباس، وكذلك سند النحاس فيه حميد الأعرج وهو ضعيف، وأخرجه ابن مردويه أيضاً بسند ضعيف[٤٤].

الوجه الثاني: نقله عن (جولد تسيهر) اليهودي في قوله: "وقد ورد في هذه النصوص أيضاً اسمان ليهوديين أسلما هما كعب الأحبار وعبد اللّه ابن سلام"[٤٥].

لم يبيّن لنا هذه النصوص، ولعله أراد هذه النصوص التي أشار إليها وذكرتها آنفاً عن الطبري، فإن لم يقصد هذه النصوص فياليته بين لنا هذه النصوص حتى أفندها وأبين زيفها أو أوجد المراد منها.

ثم نقل عن المستشرق لوت بأنهما- أي كعب الأحبار وعبد اللّه بن سلام- (مدرسة ذات لون يهودي) تنتسب إلى ابن عباس.

أقول لهما ومن اتبعهما: لقد أسّستم كلامكم على شفا جرفٍ هارٍ، أين المدرسة ذات اللون اليهودي ؟ وأين نصوصها ورواياتها ؟ وإذا كان ابن عباس رضي الله عنهما قد روى عن كعب وعبد الله بن سلام، كما تزعمون، فهل يقال إنها مدرسة تنسب إلى ابن عباس، وهو الذي يأخذ منهم! وعلى احتمال أنهم وقفوا على بعض النصوص عن هذين الراويين فإنه لا يقال إنها مدرسة يهودية، فهؤلاء دخلوا الإسلام، وإذا ورد عنهم أخبار أهل الكتاب فقد فصلت الكلام سابقاً عن ذلك في الرد عن مثل هذه الشبهة.

---

(٤٤) انظر فتح الباري ٨/٢٤٢.

(٤٥) تاريخ التراث العربي ١/٦٥.

وما نقله أ.د.سزكين عن أولئك المستشرقين من اليهود والنصارى، يشوّه التفسير بالمأثور المنقول عن أولئك الرجال الذين طُعن فيهم، وفي تشويه التفسير بالمأثور ورجاله تشويه لعلم التفسير، وهو أساس التفسير، ولا تفسير بدونه، وبواسطته يكتمل علم التفسير، وذلك بمعرفة أسباب النزول والمكي والمدني والوقف والابتداء وأحكام القرآن والناسخ والمنسوخ وبيان المشكل والخاص والعام والمجمل والمبين والمطلق والمقيد والقراءات والغريب وفضائل الآيات والسور، وكل هذه المعارف تنبثق من علم التفسير بالمأثور ولا يقوم علم التفسير إلا بها.

فهرس بأهم المصادر والمراجع

- الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلاني، تحقيق: علي محمد البجاوي، مطبعة النهضة، مصر، القاهرة .
- تاريخ التراث العربي، لفؤاد سزكين، طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود الاسلامية، ط٢، ١٤٠٢هـ ، الرياض .
- تحفة الأحوذي بشرح سنن الترمذي -للمباركفوري- دار الكتب العلمية- بيروت.
- تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، طبعة الشعب، القاهرة .
- الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- جامع البيان في تأويل آي القرآن، لابن جرير الطبري، تحقيق وتخريج:محمود شاكر. أحمد شاكر، ط٢، دار المعارف، القاهرة.
- سنن الترمذي، تحقيق أحمد محمد شاكر- لبنان، دار إحياء التراث العربي.
- سير أعلام النبلاء، للذهبي، مجموعة من المحققين، مؤسسة الرسالة.
- صحيح مسلم، للإمام مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، تحقيق الدكتور محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
- الطبقات الكبرى لابن سعد، دار صادر، بيروت.

- فتح الباري بشرح صحيح البخاري - لابن حجر العسقلاني - طبعة دار الفكر - بيروت- نسخة مصورة عن الطبعة السلفية المصرية.
- لسان الميزان، لابن حجر العسقلاني، الهند .
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد — للهيثمي - مطبعة دار الكتب - بيروت - الطبعة الثانية - ١٩٦٧م.
- المستدرك على الصحيحين، للحافظ الحاكم، وبذيله التلخيص، للحافظ الذهبي صورة عن الطبعة الهندية.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل، بتحقيق شعيب الأرناؤوط ومجموعة من العلماء، إشراف معالي الأستاذ الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ.
- المعجم الصغير للطبراني، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان، دار النصر للطباعة بالقاهرة — ١٣٨٨هـ
- مقدمة في أصول التفسير لشيخ الاسلام ابن تيمية، نشر مكتبة دار الحياة، بيروت ١٩٨٠م.
- مجلة الفيصل ، عدد ٢٥

فهرس المحتويات

م	الموضوع	الصفحة
١	مقدمـــة	٣
٢	عرض الشبهة	٥
٣	الرد على الشبهة	٦
٤	أنواع الإسرائيليات	١٥
٥	الرد على شبهة مصادر ابن عباس في التفسير اللغوي	١٧
٦	أوجه افتراءات النقل عن ابن عباس	١٩
٧	الوجه الأول	١٩
٨	الوجه الثاني	٢٣
٩	المصادر والمراجع	٢٥

المملكة العربية السعودية
جامعة الملك عبد العزيز
معهد البحوث والاستشارات
كرسي المعلم محمد عوض بن لادن للدراسات القرآنية

مكتبة المسجد النبوي الشريف
رقم الكتاب ١٢٣٩٨٨
تاريخ التسجيل ٢ / ١ / ١٤٢٥هـ

سلسلة الرد على الشبهات

(٦)

الرد على شبهة وقوع اللحن في القرآن الكريم

٧٢١٠٥

إعداد

أ. د. حكمت بن بشير بن ياسين

أستاذ كرسي المعلم محمد عوض بن لادن للدراسات القرآنية

مراجعة

د. محمد بن عبدالله الحلواني

المشرف على الكرسي ورئيس قسم الدراسات الاسلامية سابقاً

طبعة تجريبية للمتخصصين

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

كرسي المعلم محمد عوض بن لادن للدراسات القرآنية

هاتف: ٦٩٥٢٠٠٠ تحويلة :٦٧٢٤٦/ فاكس : ٦٩٥٢٠٠٠ تحويلة : ٦٨٨٥٧
ص.ب. ٨٠٢٠٢ جدة ٢١٥٨٩ / جوال : ٠٥٠٣٤٠٩٢٨٩
الموقع الألكتروني: http://binladenchair-qs.kau.edu.sa
البريد الألكتروني: quran.s.c@hotmail.com

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله ومن والاه، أما بعد:

فهذا البحث يتضمن الردَّ على شبهة وقوع اللحن في القرآن وذلك من خلال سلسلة الرد على الشبهات، ضمن أعمال " كرسي المعلم محمد عوض بن لادن للدراسات القرآنية "، فقد أثار هذه الشبهة بعض المستشرقين الحاقدين، من طراز برجشتراسر، وتأثر بها بعض علماء المسلمين، إذ نقل الغث والسمين من دون تتبع ولانقد ولاتوجيه إلا في بعض الأحيان ، ومن هؤلاء الأستاذ/ محمد فؤاد سزكين، إذ نقل بعض افتراءات المستشرقين في الطعن في القرآن عن طريق التشكيك في بلاغة القرآن، وزعم وجود اللحن في القرآن الكريم، ولما كان هذا القدح في القرآن الكريم وجب الرد على هذه الشبهة الخطيرة التي تطعن في أعظم مصدر للأُمة، وقد جعلت خطة البحث كما يلي:

- المقدمة.
- عرض الشبهة.
- الرد على الشبهة في قسمين:
  - **القسم الأول**: نقد الرواية عن عثمان بن عفان رضي الله عنه .
  - **القسم الثاني**: نقد الرواية عن عائشة أُم المؤمنين رضي الله عنها.

ويطيب لي أن أتقدم بالشكر الجزيل لرعاة الكرسي أولي الفضل والبذل، سعادة المهندس بكر بن محمد بن عوض بن لادن مدير عام ورئيس مجلس إدارة مجموعة ابن لادن السعودية، وسعادة المهندس يحيى بن محمد عوض بن لادن، رئيس مجلس

الإدارة والمدير العام بالنيابة، وسعادة الدكتور عبد الله بن لادن المشرف على الكراسي العلمية، ويرحم الله تعالى والد القائمين على الكرسي: المعلم محمد عوض بن لادن، ذلك الرجل الذي سُمي الكرسي باسمه، والشكر موصول لسعادة الأستاذ الدكتور عبد اللطيف خماخم مستشار مجموعة ابن لادن السعودية ونائب الرئيس للتطوير الإداري ومدير برنامج ما بعد الألفية للتطوير على جهوده المباركة في عنايته وتقديره لهذا الكرسي، كما أتقدم بالشكر الجزيل لأولي الفضل والعناية بالكرسي معالي مدير الجامعة الأستاذ الدكتور أسامة بن صادق طيب، وسعادة الدكتور أحمد بن حامد نقادي وكيل الجامعة للأعمال والإبداع المعرفي، وسعادة الدكتور محمد نجيب غزالي خياط عميد معهد البحوث والاستشارات ووكيليه: سعادة الدكتور عبدالله بن أحمد الغامدي، وسعادة الدكتور حسين بن محمد برعي، وإلى أصحاب السعادة أعضاء لجنة أبحاث الكراسي العلمية بالجامعة، والشكر الجزيل موصول إلى سعادة الدكتور محمد بن عبدالله الحلواني المشرف على الكرسي الذي بذل جهداً مشكوراً في مراجعة هذا البحث، وللشيخ الفاضل إبراهيم بن محمد أول الباحث المساعد الذي قام بالتنسيق الطباعي.

والله تعالى ولي التوفيق،،،

أ.د. حكمت بن بشير بن ياسين

أستاذ كرسي المعلم محمد عوض بن لادن

للدراسات القرآنية

عرض الشبهة

لقد جانب الصواب أ.د.سزكين في استهلال مقدمته لعلوم القرآن في الفصل الأول- القراءات القرآنية - حينما أكثر في نقله عن بعض المستشرقين من طراز (برجشتراسر) في كتابه (تاريخ القرآن)، حيث نقل بعض الافتراءات كقوله: " إلا أن هذه المصاحف التي أعدتها لجنة عثمان ابن عفان والتي وزعت على الأمصار المختلفة، لم تكن تخلو هي الأخرى من بعض الاختلافات حتى إنه روي أن عثمان بن عفان وعائشة رضي الله عنهما تحدثا إنَّ في القرآن لحناً وستقيمه العرب بألسنتها " [1] اهـ. ثم أحال إلى كتاب (المصاحف) لابن أبي داود ٣٣-٣٤ و(تفسير الطبري) ٦/ ١٦ (وتاريخ القرآن) لبرجشتراسر[2].

إن هذا الذي نقله بالروايات الضعيفة دون نقد ودراسة مجازفة كبيرة يجب رده جملةً وتفصيلاً سنداً ومتناً ، ومن ينقل عن هؤلاء الذين اخترعوا وتلمسوا المطاعن في القرآن الكريم بدون نقد فهو كحاطب ليل يقع في طامات، ومنها هذه الطامة التي تطعن في القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

---

(١) تاريخ التراث العربي ١٩/١ الفصل الأول، القراءات القرآنية .

(٢) المصدر السابق.

الرد على الشبهة

لقد كان الاعتماد على الروايات الضعيفة هو سبب الوقوع في هذه الشبهة، فإن الاستشهاد بتلك الروايات فيه نظر من حيث الإسناد، وفيه توجيه من حيث المتن ، وسأذكر الروايات مع نقدها سنداً ومتناً كما يلي:

القسم الأول: نقد الرواية المنسوبة إلى الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه.

أولاً: نقد الإسناد:

أما بالنسبة لرواية عثمان رضي الله فما رواه ابن أبي داود في كتابه (المصاحف) عن عثمان رضي اللّه عنه ست روايات وهي كما يلي:

١- قوله:حدثنا المؤمل بن هشام، حدثنا إسماعيل عن الحارث بن عبد الرحمن، عن عبد الأعلى بن عبد الله بن عامر القرشي قال: لما فرغ من المصحف أتى به عثمان فنظر فيه فقال: " قد أحسنتم وأجملتم أرى فيه شيئاً من لحن ستقيمه العرب بألسنتها".

٢- قوله: حدثنا شعيب بن أيوب، حدثنا يحيى (يعني: ابن آدم)، حدثنا إسماعيل بهذا، وقال: ستقيمه العرب بألسنتها. قال أبو بكر بن أبي داود: " هذا عندي يعني: بلغتها وإلا لو كان فيه لحن لا يجوز في كلام العرب جميعاً لما استجاز أن يبعث به إلى قوم يقرؤونه ".

٣- قوله :حدثنا يونس بن حبيب حدثنا بكر (يعني: ابن بكار) قال: حدثنا أصحابنا، عن أبي عمرو، عن قتادة أن عثمان رضي اللّه عنه لما رفع إليه المصحف قال: " إن فيه لحناً وستقيمه العرب بألسنتها".

٤- قوله :حدثنا يونس بن حبيب، حدثنا أبو داود، حدثنا عمران بن دوار[٣] القطان، عن قتادة، عن نصر بن عاصم الليثي، عن عبد الله بن فطيمة، عن يحيى بن يعمر قال: " قال عثمان رضي اللّه عنه، في القرآن لحن وستقيمه العرب بألسنتها ".

٥- قوله :حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا أبو داود، حدثنا عمران ابن دوار القطان، عن قتادة، عن نصر بن عاصم الليثي، عن عبد الله بن فطيمة، عن يحيى بن يعمر قال قال عثمان بن عفان رضي الله عنه: " إن في القرآن لحناً وستقيمه العرب بألسنتها ".(قال أبو بكر: هذا عبد الله بن فطيمة أحد كُتاب المصاحف).

٦- قوله : حدثنا أبو حاتم السجستاني، حدثنا عبيد بن عقيل، عن هارون، عن الزبير بنِ الخريت، عن عكرمة الطائي قال: " لما أتي عثمان رضي اللّه عنه بالمصحف رأى فيه شيئاً من لحن"، فقال: "

(٣) دوار : في الأصل داود وهو تصحيف ، وعمران بن دوار معروف بالرواية عن قتادة كما سيأتي الكلام عنه .

لو كان المملي من هذيل والكاتب من ثقيف لم يوجد فيه هذا"[٤].

وفي إسناد الرواية الأولى والثانية عبد الأعلى بن عبد الله بن عامر القرشي قال عنه الحافظ ابن حجر في التقريب: مقبول. وفي إسناد الرواية الثالثة إبهام شيوخ بكر بن بكار حيث قال: حدثنا أصحابنا عن أبي عمرو. وكذلك قتادة لم يلق عثمان رضي اللّه عنه، وقد ذكر ابن أبي حاتم في المراسيل أن قتادة لم يلق من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إلا أنساً وعبد الرحمن ابن سرجس[٥].

وقد جعله الحافظ ابن حجر في المرتبة الثالثة من المدلسين الذين لا تقبل روايتهم إلا إذا صرحوا بالسماع ولم يصرح في هذه الرواية بالسماع، أما الرواية الرابعة والخامسة في إسنادهما عمران بن دوار القطان فهو صدوق يهم، ورمي برأي الخوارج كما في التقريب، وروى عنه قتادة ما لم يتابع عليه، كما أخرج العقيلي من طريق عمران القطان عن قتادة، عن سعيد بن أبي الحسن، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " ليس شيء أكرم على الله من الدعاء". ثم قال: لا يتابع عليه ولا يعرف بهذا

(٤) ينظر: المصاحف ص ٤١، ٤٢ ط. دار الكتب العلمية .

(٥) المراسيل ص ١٥٧.

اللفظ إلا عن عمران[٦] ، وفي الإسناد أيضاً يحيى بن يعمر لم يسمع شيئا عن عثمان؛ بل لم ير عثمان رضي الله عنه[٧].

وقال ابن الأنباري في كتاب (الرد على من خالف مصحف عثمان): في الأحاديث المروية عن عثمان في ذلك: " لا تقوم بها حجة؛ لأنها منقطعة غير متصلة، وما يشهد عقل بأن عثمان وهو إمام الأُمة الذي هو إمام الناس في وقته وقدوتهم يجمعهم على المصحف الذي هو الإمام فيتبين فيه خللاً، ويشاهد في خطه زللاً فلا يصلحه! كلا واللّه ما يتوهم عليه هذا ذو إنصاف وتمييز، ولا يعتقد أنه أخّر الخطأ في الكتاب ليصلحه من بعده، وسبيل الجائين من بعده البناء على رسمه والوقوف عند حكمه، ومن زعم أن عثمان أراد بقوله: " أرى فيه لحناً " أرى في خطه لحناً إذا أقمناه بألسنتنا كان لحن الخط غير مفسد ولا محرف من جهة تحريف الألفاظ وإفساد الإعراب فقد أبطل ولم يصب؛ لأن الخط منبيء عن النطق، فمن لحن في كتبه فهو لاحن في نطقه، ولم يكن عثمان ليؤخّر فساداً في هجاء ألفاظ القرآن من جهة كتب ولا نطق. ومعلوم أنه كان مواصلاً لدرس القرآن، متقناً لألفاظه، موافقاً على ما رسم في المصاحف المنفذة إلى الأمصار والنواحي[٨].

---

(٦) الضعفاء الكبير ٣/٣٠١.

(٧) انظر المقنع للداني ص١١٥.

(٨) انظر الإتقان ٢/٢٧١.

وعبد اللّه بن فطيمة ترجم له البخاري وقال: عبد الله بن فطيمة عن يحيى بن يعمر روى عن قتادة عن نصر بن عاصم منقطع[٩].

وأما الرواية السادسة فقد أخرجها أيضاً أبو عبيد القاسم بن سلام من طريق هارون بن موسى عن الزبير بن الخريت به[١٠]، وفي الاسناد أيضاً عكرمة لم يلق عثمان رضي الله عنه.

ثانياً: نقد المتن:

١- قال أبو عمرو الداني في هذه الرواية: هذا الخبر عندنا لا تقوم بمثله حجة ولا يصح به دليل من جهتين: إحداهما أنه مع تخليط في إسناده واضطراب في ألفاظه مرسل؛ لأن ابن يعمر وعكرمة لم يسمعا من عثمان شيئاً ولا رأياه. وأيضاً فإن ظاهر ألفاظه ينفي وروده عن عثمان رضي اللّه عنه لما فيه من الطعن عليه مع محله من الدين ومكانه من الإسلام وشدة اجتهاده في بذل النصيحة واهتباله بما فيه الصلاح للأمة... ثم يوجه معنى اللحن في الخبر- لو صح- بأن المراد به التلاوة دون الرسم، إذ كان كثير منه لو تُلي على حال رسمه لانقلب بذلك معنى التلاوة وتغيرت ألفاظها من مثل: ﴿ أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ ﴾ [النمل: ٢١] وما شاكله[١١]، ثم حتى لو صح

(٩) التاريخ الكبير ٥/ ١٧٠، ١٧١.

(١٠) فضائل القرآن رقم ٥٥٥.

(١١) المقنع ص ١١٦.

الإسناد بطرق أخرى[١٢] فإن ابن أبي داود قبل أن يسوق هذه الروايات ترجم لها باباً بعنوان: باب المصاحف العثمانية اختلاف ألحان العرب في المصاحف.

ثم قال: والألحان: اللغات. وقال عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه: "إنا لنرغب عن كثير من لحن أُبَيّ". يعني: لغة أُبيّ. فيريد اللحن هنا اللغة، وكان على أ.سزكين أن يبين هذا على الأقل ما ذكره ابن أبي داود بعد الرواية الأولى، هذا بالنسبة للمتن فقد ورد ما يخالفه فيما رواه ابن أشتة في كتابه (المصاحف) فقال: أنبأنا محمد بن يعقوب، أنبأنا أبو داود سليمان بن الأشعث، أنبأنا أحمد بن مسعدة، أنبأنا إسماعيل، أخبرني الحارث بن عبد الرحمن، عن عبد الأعلى بن عبد اللّه بن عامر، قال: لما فرغ من المصحف أتى به عثمان، فنظر فيه، فقال: أحسنتم وأجملتم! أرى شيئاً سنقيمه بألسنتنا[١٣].

فلم يذكر لفظ (اللحن)، وقد رواه من طريق أبي داود سليمان بن الأشعث عن أحمد بن مسعدة عن إسماعيل، فيحتمل الخطأ من شيخ ابن أبي داود، أو من دسّ المستشرق د. آرثر جفري محقق كتاب (المصاحف)

(١٢) علماً أن السيوطي ذكره في جمع الجوامع ونسبه فقط إلى ابن أبى داود وابن الأنباري الجزء الثاني ل٥.

(١٣) انظر الإتقان ٢/٢٧٢.

لابن أبي داود، وقد نص على هذا الدسّ الأستاذ محمد تيجاني جوهري محقق كتاب (فضائل القرآن) لأبي عبيد القاسم بن سلام[١٤].

٢- علق الإمام السيوطي على رواية ابن أشتة فقال: " فهذا الأثر لا إشكال فيه، وبه يتضح معنى ما تقدم، فكأنه عرض عليه عقب الفراغ من كتابته، فرأى فيه شيئاً كتب على غير لسان قريش، كما وقع لهم في "التابوة "و" التابوت "، فوعد بأنه سيقيمه على لسان قريش، ثم وفى بذلك عند العرض والتقويم، ولم يترك فيه شيئاً. ولعل من روى تلك الآثار السابقة عنه حرفها، ولم يتقن اللفظ الذي صدر عن عثمان، فلزم منه ما لزم من الإشكال، فهذا أقوى ما يجاب عن ذلك، ولله الحمد"[١٥].

وقد أفاد السيوطي وأجاد في رده ونقله عن العلماء المتقدمين في الرد عن هذه الشبهة فقال: وقد أجاب العلماء عن ذلك بثلاثة أجوبة:

أحدها: أن ذلك لا يصح عن عثمان، فإن إسناده ضعيف مضطرب منقطع، ولأن عثمان جعل للناس إماماً يقتدون به، فكيف يرى فيه لحناً ويتركه لتقيمه العرب بألسنتها! فإذا كان الذين تولوا جمعه وكتابته لم يقيموا ذلك وهم الخيار، فكيف يقيمه غيرهم! وأيضاً فإنه لم يكتب مصحفاً واحداً؛ بل كتب عدة مصاحف. فإن قيل: إن اللحن وقع في جميعها فبعيد اتفاقها على ذلك، أوفي بعضها فهو اعتراف بصحة البعض، ولم يذكر أحد

(١٤) انظر ص ٢٢٧.

(١٥) انظر الإتقان : ٢/ ٢٧٢.

من الناس أن اللحن كان في مصحف دون مصحف، ولم تأتِ المصاحف قط مختلفة إلا فيما هو من وجوه القراءة، وليس ذلك بلحن.

الوجه الثاني: على تقدير صحة الرواية، إن ذلك محمول على الرمز والإشارة ومواضع الحذف، نحو" الكتب"، " الصبرين"، وما أشبه ذلك.

الوجه الثالث: أنه مؤول على أشياء خالف لفظها رسمها، كما كتبوا "لا أوضعوا"، و" لا أذبحنه" بألف بعد لا، و"جزاؤا الظالمين" بواو وألف، و"بأييد" بيائين، فلو قرىء بظاهر الخط لكان لحناً، وبهذا الجواب وما قبله جزم ابن أشتة في كتاب (المصاحف).

وكيف يظن بالصحابة أولاً أنهم يلحنون في الكلام فضلاً عن القرآن، وهم الفصحاء اللد! ثم كيف يُظن بهم ثانياً في القرآن الذي تلقوه من النبي صلى الله عليه وسلم كما أنزل، وحفظوه وضبطوه، وأتقنوه! ثم كيف يظن بهم ثالثاً اجتماعهم كلهم على الخطأ وكتابته! ثم كيف يظن بهم رابعاً عدم تنبههم ورجوعهم عنه! ثم كيف يظن بعثمان أنه ينهى عن تغييره! ثم كيف يظن أن القراءة استمرت على مقتضى ذلك الخطأ، وهو مروي بالتواتر خلفاً عن سلف! هذا مما يستحيل عقلاً وشرعاً وعادة[١٦].

٣- انبرى لهذه الشبهة قديماً وحديثاً نخبة من العلماء المشهورين كابن الأنباري، وأبي عمرو الداني، وأبي القاسم الشاطبي، وأبي بكر الباقلاني، والجعبري، والزمخشري، والسخاوي، والزرقاني، وعبد الرحمن الجزيرى،

(١٦) انظر الإتقان : ٢/٢٧٠، ٢٧١.

والألوسي، ومحمد بن أبي شهبة، أما ما قاله شيخنا أ.د. محمد ابن محمد أبو شهبة رحمه اللّه، الذي فَنّد هذه الفرية وبين من بدأ بترويج هذه الافتراءات فقال: " حمل لواء هذا الإفك قسٌّ يدعى (فندر)، فألف كتاباً سماه (ميزان الحق)، وأولى به أن يسمى ميزان الباطل، وقسٌّ آخر مجهول تستر تحت اسم (هاشم العربي) في (تذييل مقال في الإسلام)، وقسٌّ ثالث يدعى (تسدل) "[١٧]....ثم قال رحمه اللّه:

قالوا روي عن عثمان- رضي اللّه عنه- أنه حين عرض عليه المصحف قال: أحسنتم وأجملتم، إن في القرآن لحناً ستقيمه العرب بألسنتها، وروي عن عكرمة أنه قال: لما كتبت المصاحف عرضت على عثمان فوجد فيها حروفاً من اللحن فقال: لا تغيروها فإن العرب ستغيرها أو قال: ستعربها بألسنتها، لو كان الكاتب من ثقيف والمملي من هذيل لم توجد فيه هذه الحروف، قالوا: فكيف تكون المصاحف العثمانية مع هذا موضع إجماع من الصحابة وثقة من المسلمين؟ بل كيف يكون رسم المصحف توقيفياً ؟ وهذا هو عثمان يقول: إن فيه لحناً ؟ والجواب: إن هاتين الروايتين ضعيفتا الإسناد وإن فيهما اضطراباً وانقطاعاً يذهب بالثقة بهما كما قال الإمام السخاوي في الرواية الثانية، ونقله الإمام الآلوسي في تفسيره، وعكرمة لم يسمع من عثمان أصلاً، وقد روى الأثر الثاني عن يحي بن يعمر عن عثمان وهو أيضاً لم يسمع من عثمان، وقد رد الرواية الأولى جماعة من

(١٧) انظر كتاب (أدلة اليقين) للمغفور له - إن شاء الله - أستاذنا الشيخ عبد الرحمن الجزيري ص ٨، ٩.

العلماء كالإمام أبي بكر الباقلاني، والحافظ أبي عمرو الداني، وأبي القاسم الشاطبي، والجعبري وغيرهم، وغير خفي على المتأمل ما في الروايتين من اضطراب وتناقض، فإن قوله: أحسنتم وأجملتم مدح وثناء، وقوله: إن فيه لحناً يشعر بالتقصير والتفريط، فكيف يصح في العقول أن يمدحهم على التقصير والتفريط؟ وأيضاً فالغرض من كتابة المصاحف في عهد عثمان رضي اللّه عنه على حرف قريش أن تكون مرجعاً عاماً يرجع إليه المسلمون عند الاختلاف في حروف القرآن وقراءاته، وإذا كان الأمر كذلك فكيف يكل تصحيحها إليهم؟ إن هذا إن صح فسيصل بنا إلى الدور المحال، إذ تكون صحة قراءتهم متوقفة على القراءة وفق المصاحف التي كتبها لهم عثمان، وصحة المصاحف وسلامتها من اللحن متوقفة على صحة قراءتهم، وهذا ما ننزه عنه أي عاقل فضلاً عن عثمان رضي اللّه عنه.

إن هذين الأثرين يخالفان ما كان عليه عثمان رضي اللّه عنه من حفظه القرآن، وملازمة قراءته، ومدارسته حتى صار في ذلك ممن يؤخذ عنهم القرآن، حرص غاية الحرص على إحاطة كتابة المصاحف بسياج قوي من المحافظة على القرآن أن يتطرق إليه لحن أو تحريف أو تبديل، وجعل من نفسه حارساً أميناً على كتابة المصاحف في عهده، والمرجع عند أي اختلاف في كيفية الرسم، فقد قال للرهط القرشيين: إذا اختلفتم أنتم وزيد فاكتبوه بلسان قريش، وقد اختلفوا في "التابوت" أيكتبوه بالتاء أم بالهاء؟ ورفعوا الأمر إليه. فأمرهم أن يكتبوه بالتاء. فإذا كان هذا شأنه وشأنهم في حرف لا يتغير به المعنى ولا يعتبر تحريفاً ولا تبديلاً لاستناده إلى الحروف

التي نزل بها القرآن، فكيف يعقل منه أن يرى في المصاحف لحناً ثم يقرهم عليه؟ وإليك رواية أخرى تدل على مبلغ عنايته بالقرآن عند الكتابة.

أخرج أبو عبيد عن عبد الرحمن بن مهدي، عن عبد الله بن المبارك قال: حدثني أبو وائل شيخ من أهل اليمن[١٨] عن هانىء البربري مولى عثمان قال: كنت عند عثمان وهم يعرضون المصاحف فأرسلني بكتف شاة إلى أبي بن كعب فيها { لَمْ يَتَسَنْ}، وفيها {لا تَبْديلَ لْلخَلْقِ}، وفيها {فأمْهِلِ}، وكتب {فَمَهِّل}وكتب { لَمْ يَتَسَنَّهْ}، فألحق فيها الهاء، فهل يصح في العقول ممن هذا شأنه أن يرى لحناً في المصاحف ثم يقرهم عليه ويدعه للعرب تصلحه؟ ومن أحق بإصلاح اللحن والخطأ منه وهو من هو في حفظ القرآن والحفاظ عليه؟.

ولو جوزنا فرضاً أن عثمان تساهل في إصلاح هذا أفيدعه جمهور المسلمين من المهاجرين والأنصار دون أن يصححوه؟ وهم الذين لا يخشون في الحق لومة لائم، ولا يقرون على باطل، ولو صحت هذه المقالة عن عثمان لأنكروا عليه غاية الإنكار ولو أنكروا لاستفاض ونقل إلينا وأنّى هو؟ ولقد كانوا يعترضون عليه وعلى غيره فيما دون هذا، فما بالك بأمر يتعلق بالقرآن الكريم؟ الحق أن هذا لا يصدقه إلا من ألغى عقله .

---

(١٨) هذا السطر سقط من كتاب المدخل لدراسة القرآن الكريم لشيخي أبي شهبة رحمه الله، وقد ألحقته من كتاب فضائل القرآن لأبي عبيد ص ٢٥٥ ، وأما المتن فقد ساقه مختصراً.

على فرض صحة هذين الأثرين فيمكن أن نؤولهما بما يتفق هو والصحيح المعروف عن عثمان في جمع القرآن ونسخ المصاحف، وذلك بأن يحمل لفظ (لحناً) على معنى اللغة، ويكون المعنى أن في رسم القرآن وكتابته في المصاحف وجهاً في القراءة لا تلين به ألسنة العرب جميعاً الآن، ولكنها لا تلبث أن تلين به ألسنتهم جميعاً بالمرانة، وكثرة تلاوة القرآن بهذا الوجه اهـ[١٩].

٤-كما انبرى الشيخ الزرقاني لهذه الشبهة وفندها أيضاً فقال: يقولون: روي عن عثمان أنه حين عرض عليه المصحف قال: " أحسنتم وأجملتم، إن في القرآن لحناً ستقيمه العرب بألسنتها ".

ويقولون: روي عن عكرمة أنه قال: "لما كتبت المصاحف عرضت على عثمان فوجد فيها حروفاً من اللحن فقال: لا تغيروها فإن العرب ستغيرها أو قال: ستعربها بألسنتها. لو كان الكاتب من ثقيف والمملي من هذيل لم توجد هذه الحروف ".

أورد أعداء الإسلام هاتين الروايتين وقالوا: إنهما طعنان صريحان في رسم المصحف، فكيف يكون مصحف عثمان وجمعه للقرآن موضع ثقة، وإجماع من الصحابة ؟ وكيف يكون توقيفياً ؟ وهذا عثمان نفسه يقول بملء فيه: " إن فيه لحناً ".

ونجيب على هذه الشبهة:

---

(١٩) المدخل لدراسة القرآن الكريم ٣٦٦- ٣٦٩.

أولاً: بأن ما جاء في هاتين الروايتين ضعيف الإسناد، وأن فيهما اضطراباً وانقطاعاً. قال العلامة الألوسي في تفسيره: "إن ذلك لم يصح عن عثمان أصلاً". لعلك تلمح معي دليل سقوط هاتين الروايتين ماثلاً فيهما من جراء هذا التناقض الظاهر بين وصفهما نساخ المصحف بأنهم أحسنوا وأجملوا ووصفهما المصحف الذي نسخوه بأن فيه لحناً. وهل يقال للذين لحنوا في المصحف: أحسنتم وأجملتم؟ اللهم إلا إذا كان المراد معنى آخر!.

ثانياً: أن المعروف عن عثمان في دقته وكمال ضبطه وتحريه يجعل صدور أمثال هاتين الروايتين من المستحيل عليه. انظر ما سبق من دستوره في جمع القرآن، ثم انظر ما أخرجه أبو عبيد عن عبد الرحمن بن هانئ مولى عثمان قال: كنت عند عثمان وهم يعرضون المصاحف فأرسلني بكتف شاة إلى أبيّ بن كعب فيها: {لَمْ يَتَسَنْ}، وفيها {لا تَبْدِيلَ لِلْخَلْقِ}، وفيها {فَأَمْهِلِ الكَافِرِينَ}، فدعا بدواة فمحا أحد اللامين وكتب: {لِخَلْقِ الله}، ومحا {فَأَمْهِلِ}، وكتب: {فَمَهِّلِ}، وكتب: {لَمْ يَتَسَنَّهْ} فألحق فيها الهاء.

قال ابن الأنباري: "فكيف يدعى عليه أنه رأى فساداً فأمضاه؟ وهو يوقف على ما يكتب ويرفع الخلاف الواقع من الناسخين فيه، فيحكم بالحق ويلزمهم إثبات الصواب وتخليده". اهـ.

ثالثاً: على فرض صحة ما ذكر يمكن أن نؤوله بما يتفق والصحيح المتواتر عن عثمان في نسخ المصاحف وجمع القرآن، ومن نهاية التثبت والدقة والضبط.

وذلك بأن يراد بكلمة (لحناً) في الروايتين المذكورتين قراءة ولغة. والمعنى أن في القرآن ورسم مصحفه وجهاً في القراءة لا تلين به ألسنة العرب جميعاً، ولكنها لا تلبث أن تلين به ألسنتهم جميعاً بالمران وكثرة تلاوة القرآن بهذا الوجه، وقد ضرب بعض أجلاء العلماء لذلك مثلاً كلمة (الصراط) بالصاد المبدلة من السين فتقرأ العرب بالصاد عملاً بالرسم، والسين عملاً بالأصل اهـ[٢٠].

٥- قال أ.د. عبد الفتاح شلبي في الملحق الرابع من كتابه الموسوم (رسم المصحف العثماني وأوهام المستشرقين في قراءات القرآن الكريم ودوافعها ودفعها): " وأرجو أن أدفع في هذا الملحق بعض الشبهات التي أثارها المغرضون حول كتابة المصحف، واتخذوها دليلاً لهم على وقوع اللحن في القرآن، ووسيلة إلى الطعن في كتاب اللّه.. أثاروا هذا حول ما رواه سعيد ابن جبير من أنه قال: في القرآن أربعة أحرف لحن ﴿ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ ﴾ [المائدة: ٦٩]، ﴿ وَٱلْمُقِيمِينَ ﴾[النساء: ١٦٢]، ﴿ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[المنافقون: ١٠]، ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ ﴾[طه: ٦٣]، كما أثاروا نحو ذلك حول ما يروى من أنه (لما فرغ من المصحف أتى به عثمان فنظر فيه قال: "قد أحسنتم، وأجملتم، أرى فيه شيئاً من لحن ستقيمه العرب بألسنتها"[٢١].

وهذه الشبهات التي أثاروها مردودة بأمور:

---

(٢٠) مناهل العرفان في علوم القرآن ٣٧٩، ٣٨٠.

(٢١) المصاحف لابن أبي داود السجستاني ص ٣٢.

أولا: المعنى اللغوي لكلمة اللحن.فاللحن: اللغة، والقراءة. قال عمر رضي اللّه عنه: "إنا لنرغب عن كثير من لحن أُبي، يعني: لغة أُبي"[٢٢].

وكان عمر رضي اللّه عنه يقول: "أُبي أقرؤُنا، وإنا لندع بعض لحنه، أي: قراءته"[٢٣].

ثانياً: قياس العربية يصحح تلاوة هذه الكلمات بما رسمت به. فلا خطأ في قراءة {الصابئون} بالرفع كما رسمت في المصاحف فالصابئون رفع على الابتداء، وخبره محذوف، والنية به التأخير عما في حيز إن من اسمها وخبرها كأنه قيل: إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى حكمهم كذا. والصابئون كذلك[٢٤]. وأنشد سيبويه شاهداً له:

وإلا فاعلموا أنا وأنتم بغاة ما بقينا في شقاق[٢٥]

أي فاعلموا أنا بغاة وأنتم كذلك. ومثله: فإني وقيار بها لغريب. أي: فإني لغريب وقيار بها كذلك[٢٦].

أما قراءة {والمقيمين} بالياء فلها وجه من سنن العربية، والتوجيه الإعرابي، فهو منصوب على المدح بتقدير: أعني المقيمين، وذلك لأن العرب تنصب على المدح عند تكرر العطف والوصف. قالت الخرنق:

---

(٢٢) المصاحف: ص ٣٢.

(٢٣) المقنع للداني ص ١٢٨.

(٢٤) تفسير الكشاف ١/ ٣٥٤.

(٢٥) الكتاب ١/ ٢٩٠.

(٢٦) انظر إعراب القرآن للعكبري ص ١٢٤.

لايبعدن قومي الذي همُ سم العداة، وآفة الجزر

النازلون بكل معـــترك والطيبين معـاقد الأزر

فنصبت الطيبين على المدح، فكأنها قالت: أعني الطيبين[٢٧]. قال الشاعر:

إني الملك القرم، وابن الهمام وليث الكتيبة في المزدحم

وذا الرأي حين تغم الأمور بذات الصليل، وذات اللجم[٢٨].

فنصب ذا الرأي على المدح[٢٩].

قالوا: والعرب تفعل ذلك في صفة الشيء ونعته، إذا تطاولت بمدح أو ذم، خالفوا بين إعراب أوله وأوسطه أحياناً، ثم رجعوا بآخره إلى إعراب أوله، وربما أجروا إعراب آخره على إعراب أوسطه، وربما أجروا ذلك على نوع واحد من الإعراب[٣٠].

وقد يكون موضع المقيمين في الإعراب خفض: على (ما) التي في قوله ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ [النساء: ١٦٢]، يؤمنون بالمقيمين

---

(٢٧) الانصاف في مسائل الخلاف ص ٢٧٦.

(٢٨) القرم: المعظم ، والمزدحم : ميدان القتال حيث يزدحم الشجعان . تغم الأمور : تظلم. الصليل : صوت الحديد. وذات الصليل : كتيبة من الرجالة يصل حديد سلاحها . وذات اللجم : كتيبة من الفرسان.

(٢٩) الانصاف في مسائل الخلاف ص ٢٧٦، وتفسير الطبري ٣/ ٣٥٣.

(٣٠) تفسير الطبري ٩/ ٣٩٥ ، وإعراب القرآن للعكبري ١/١١٣.

الصلاة[٣١]. والمقيمون الصلاة هم الملائكة، قالوا: وإقامتهم الصلاة تسبيحهم ربهم واستغفارهم لمن في الأرض .فمعنى الكلام: والمؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالملائكة[٣٢] .

وأما قراءة ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾[المنافقون: ١٠]، بجزم (أكن) فله وجه من الإعراب، ذلك أنه محمول على المعنى والتقدير: إن أخرتني أكن[٣٣].

وأما ﴿إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾[طه: ٦٣] فلا يلتفت لطعن الطاعن فيها، فهي قراءة متواترة قرأ بها نافع، وابن عامر، وأبو بكر، وحمزة، والكسائي، وأبو جعفر، ويعقوب، وخلف[٣٤] ، على أن لها وجهاً فصيحاً في العربية، ذلك هو إلزام المثنى بالألف في جميع حالاته، ومنه قول الشاعر العربي:

واها لسلمى ثم واها واها ... ياليت عيناها لنا وفاها

وموضع الخلخال رجلاها ... بثمن يرضى به أباها

إن أباها، وأبا أباها ... قد بلغا في المجد غايتاها

وهذه لغة بني الحرث بن كعب، وقبائل أخر[٣٥].

---

(٣١) انظرالانصاف ص ٢٧٧، وتفسير الطبري ٣٩٦/٩.

(٣٢) تفسير الطبري ٩/ ٣٩٦ ، وانظر تفسير الكشاف ٣١٣/١.

(٣٣) إعراب القرآن للعكبري ٢/ ١٣٨ ، وانظر تفسير الكشاف ١٠٣/٤ .

(٣٤) إتحاف فضلاء البشر ص ٣٠٤.

(٣٥) شرح الأشموني ١٤٢/١.

وثالث الأمور التي نرد بها طعن الطاعنين مكانة عثمان بن عفان رضي اللّه عنه من الحافظ على كتاب اللّه، ومحله من الدين، ومكانه من الإسلام، وشدة اجتهاده في بذل النصيحة. فهل يعقل أن يرى عثمان في المصحف لحناً وخطأ ثم يتركه ليتولى من يأتي بعده تغييره؟. عثمان الذي تولى جمع المصحف مع سائر الصحابة الأخيار، وتحرى في ذلك الدقة والأمانة وكمال الضبط، ورغبة منه في جمع الأمة على مصحف إمام، فلا يقع اختلاف في القرآن بينهم...عثمان الذي هذا شأنه يرى في كتاب اللّه ثلمة فيتركها ليسدها من بعده؟.

ثم ماهذا التناقض الظاهر بين صدر النص: أحسنتم وأجملتم وآخرته: أرى فيه شيئا من لحن..كيف يصف نساخ المصحف بالإحسان والإجمال أولا.. ثم يصف المصحف الذي نسخوه بأن فيه لحناً..؟ هل يقال للذين لحنوا في المصحف: أحسنتم وأجملتم؟ [٣٦].

ألا إن مكانة عثمان.. والاضطراب بين صدر النص وعجزه كل هذا يدعونا إلى الاعتقاد بأن صدور ذلك عن عثمان أمر بعيد عنه، مدسوس عليه. اهـ[٣٧].

وأقول للذين يرددون طعنة (اللحن في القرآن) من المستشرقين: (رمتني بدائها وانسلت) لقد أشتهرت وانتشرت التحريفات التي وقعت في التوراة

---

(٣٦) انظر رسم المصحف العثماني ص ١١١-١١٥ ، والمقنع للداني ص ١٢٤ ، ومناهل العرفان ص ٣٨٠.

(٣٧) رسم المصحف العثماني ص ١١١-١١٥ ط . دار الشروق — جدة .

والإنجيل، وهاهم يريدون أن يلحقوا القرآن الكريم - الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد - بكتبهم المحرفة.

القسم الثاني : نقد الرواية عن أُم المؤمنين عائشة رضي الله عنها

وأما الرواية عن عائشة رضي الله عنها فقد أخرج أبو عبيد القاسم بن سلام وابن أبي داود من طريق أبي معاوية، عن هشام بن عروة، عن أبيه قال: سألت عائشة عن لحن القرآن، ﴿إِنْ هَٰذَانِ لَسَٰحِرَانِ﴾[طه: ٦٣]، وعن قوله: ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[النساء: ١٦٢]، وعن قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ [المائدة: ٦٩]، فقالت: يا ابن أختي هذا عمل الكُتّاب أخطأوا في الكِتاب[٣٨]. وقد ضعّف بعض أهل العلم هذه الرواية، لوجود أبي معاوية فيها وهو محمد بن خازم الضرير، قال الذهبي: وقال ابن خراش: يقال: " هو في الأعمش ثقة، وفي غيره فيه اضطراب"، وكذلك قال عبد الله بن أحمد: سمعت أبي يقول: " هو في غير الأعمش مضطرب، لا يحفظها حفظاً جيداً. علي بن مسهر أحبّ إلي منه في الحديث ". وقال الحاكم: " احتجّ به الشيخان. وقد أشتهر عنه الغلو أي غلو التشيع"[٣٩].

وما رواه البخاري عنه فمن طريق الأعمش، وبما أنه أشتهر في غلو التشيع وأن الرواية تؤيد بدعته في نسبته مثل هذا الكلام إلى عائشة رضي اللّه عنها فيتوقف في هذه الرواية، ولكن يبقى الاحتمال فيما إذ وجدت متابعة أو شاهد لهذه الرواية، وعلى كل الاحتمالات فإن العلماء من أهل

---

(٣٨) فضائل القرآن رقم ٥٥٦، والمصاحف ص ٤٣.

(٣٩) ميزان الإعتدال ٤/٥٧٥.

هذا الشأن قد بينوا ووجهوا المراد من هذا المتن فقال أبو عمرو الداني: "إن عروة لم يسأل عن حروف الرسم التي تزاد وتنقص، وإنما سألها عن حروف القراءة المختلفة الألفاظ المحتملة الوجوه على اختلاف اللغات، مما أذن اللّه عز وجل القراءة به، ومن ثم فليس ما جاء في الخبر من الخطأ أو اللحن بداخل في معنى المرسوم ولا هو من سببه في شيء، وإنما سمى عروة ذلك لحناً، وأطلقت عائشة على مرسومه الخطأ على جهة الاتساع في الإخبار وطريق المجاز في العبارة". اهـ. وينقل الداني أن بعض العلماء قد تأول قول أم المؤمنين (أخطأوا في الكتاب) أي: أخطأوا في اختيار الأولى من الأحرف السبعة بجمع الناس عليه، لا أن الذي كتبوا من ذلك خطأ لا يجوز، لأن ما لا يجوز مردود بإجماع، وإن طالت مدة وقوعه وعظم قدر موقعه. ثم ينقل أن هناك من تأول اللحن بأنه القراءة واللغة - كقول عمر- رضي اللّه عنه - أُبيّ أقرؤنا وإنا لندع بعض لحنه، أي قراءته ولغته[٤٠].

ومن أدق المؤلفين كتابةً وتفصيلاً وبياناً لهذا المتن هو الأستاذ الدكتور غانم قدوري الحمد في كتابه القيم (رسم المصحف دراسة لغوية وتاريخية) حيث قال عند هذه الرواية:

أما حديث عروة الذي يرويه عن عائشة فإن علينا أن نشير أولاً إلى بعض الحقائق المتعلقة بالآيات التي وردت فيه، وأول هذه الحقائق هي أن الكلمات موضع السؤال قد جاءت صحيحة في رسمها جارية على قواعد الهجاء، فكلمة "هذان" في الآية الأولى الواردة في الخبر جاءت على وفق

(٤٠) المقنع ص ١١٨، ١١٩.

القاعدة التي جرى عليها الرسم العثماني من حذف ألف (ها) التي للتنبيه ووصلها بما يليها من اسم الإشارة أو نحوه، وحذف الألف من (ذان) على نحو حذفها من كل مثنى، أما كلمة {والمقِيمِينَ} في الآية الثانية فهي من حيث رسمها، على ما هي عليه، صحيحاً، مثل ما رسم في المصحف {المؤْمنينَ وَالمسْلمِينَ...} وكذلك بالنسبة لكلمة "الصبئون" في الآية الثالثة التي رسمت على مثال "الخطِئُون".

فهذه الكلمات جاءت من حيث الرسم صحيحة، جارية على المشهور من قواعد الرسم العثماني، لكنها من حيث التوافق الإعرابي وما يقتضيه موقعها في الظاهر جاءت على نحو يستوقف النظر ويدفع إلى التأمل. فالكلمة الأولى قد ينظر إليها على أنها اسم (أن) المشددة وهي مثنى، لكنها جاءت من غير الياء التي هي علامة النصب، والكلمتان الأخريان {المقِيمِينَ} و{الصَّبئُونَ} كلاهما جاءت مخالفة إعرابياً لما عطفت عليه في الظاهر.

وبالرجوع إلى القراءات الصحيحة المروية في هذه الكلمات يمكن أن يتاح لنا فهم سر رسمها على ذلك النحو، فالآية الأولى ﴿إِنْ هَٰذَانِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾[طه: ٦٣] قرأها ابن كثير — وحده – بتخفيف (إن) و(هذان) بالألف مع تشديد النوَن، وقرأ حفص كذلك إلا أنه خفف نون (هذان)، ووافقه ابن محيصن، وقرأ الباقون ماعدا أبا عمرو بتشديد (إن) و(هذان) بالألف وتخفيف النون، وقرأ أبو عمرو (إنّ) بتشديد النون و(هذين) بالياء مع تخفيف النون، ونجد أن أوضح القراءات في هذه الآية معنى ولفظاً وخطاً

هي قراءة ابن كثير وحفص، وذلك أن (إن) المخففة من الثقيلة أهملت و(هذان) مبتدأ و(الساحران) الخبر، واللام للفرق بين النافية والمخففة، وقراءة أبي عمرو واضحة من حيث الإعراب والمعنى رغم مخالفتها الرسم، وقد تكلم أهل العربية في توجيه القراءة الأخرى. وقد أشرنا من قبل أن رسم المصحف كتب على قراءة واحدة، فليس من الضروري موافقة كافة القراءات الصحيحة له إذا وافق بعضها، وهو ما نجده في هذه الحالة.

أماالآيتان الأخريان ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[النساء: ١٦٢]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ [المائدة: ٦٩]، فقد اتفق الجمهور على قراءة {والمقِيمِينَ} بالياء منصوباً على نحو ما هو مرسوم إلا رواية يونس وهارون عن أبي عمرو لها بالواو، وقراءة عاصم الجحدري لها بالواو كذلك، مع محافظته على رسمها بالياء. واتفقوا كذلك على قراءة {الصبِئُونَ} بالواو على نحو ما هو مرسوم إلا ابن محيصن فقد قرأها بالياء، والجحدري كذلك، ومادامت قراءة العامة قد جاءت موافقة للرسم على هذا النحو وقد تواترت عن القراء فلا مجال — إذن - للكلام هنا عن الخطأ في الرسم أو القراءة، خاصة أن النحاة قد تكلموا على ما في الآيتين من تخالف إعرابي، ووجهوا ذلك بوجوه كثيرة...

رغم أن القراءة إذا صحت روايتها لاينظر في موافقتها قواعد النحاة ، ولايطلب لها التعليل والمثال من كلام العرب، فصحة روايتها هي نفسها أقوى في الدلالة على علوها في الفصاحة والعربية من التماس قول مجهول أو شعر منحول لتوجيهها ، وما أجل قول الفخر الرازي في هذا المعنى حين

يقول : إذا جوزنا إثبات اللغة بشعر مجهول ، فجواز إثباتها بالقرآن العظيم أولى ، وكثيراً ما ترى النحويين متحيرين في تقرير الألفاظ الواردة في القرآن ، فإذا استشهدوا في تقريرها ببيت مجهول فرحوا به ، وأنا شديد التعجب منهم، فإنهم إذا جعلوا ورود ذلك البيت المجهول على وفقها دليلاً على صحتها فلأن يجعلوا القرآن دليلاً على صحتها كان أولى .

وعلى ذلك فإن حديث عروة يمكن أن يحمل على ما ذهب إليه ابن أشتة ورواه الداني من أن معنى الخطأ هو أنهم أخطأوا في اختيار الأولى من الأحرف السبعة بجمع الناس عليه، لا أن الذي كتبوا من ذلك لا يجوز لأن ما لا يجوز مردود بإجماع، وإن طالت مدة وقوعه، وعظم قدر موقعه، ويقول الداني بعد أن ناقش ما ورد في دلالة الخبر: على أن أم المؤمنين – رضي الله عنها – مع عظيم محلها وجليل قدرها واتساع علمها ومعرفتها بلغة قومها لحّنت الصحابة وخطّأت الكتبة، وموضعهم من الفصاحة والعلم باللغة موضعهم الذي لا يجهل ولا ينكر، هذا ما لا يسوغ ولا يجوز.

ونخلص من ذلك كله إلى نفي دلالة الخبرين على وقوع الخطأ في الرسم العثماني اهـ[٤١].

وقد استقر الأمر على الرسم العثماني، واعتمدت الأمة عليه؛ بل أجمعت على ذلك، فقد نقل الإمام أبو عمرو الداني عن أشهب أنه قال: سئل مالك: هل يكتب المصحف على ما أحدثه الناس من الهجاء؟ فقال:

(٤١) رسم المصحف ص٢٢٠-٢٢٢.

لا، إلا على الكتبة الأولى. ثم علق الداني بقوله: ولا مخالف له من علماء الأمة[٤٢].

وقال في موضع آخر: سئل مالك عن الحروف في القرآن الواو والألف، أترى أن يغير من المصحف إذا وجد فيه كذلك؟ قال: لا. قال أبو عمرو: يعني الواو والألف المزيدتين في الرسم المعدومتين في اللفظ، نحو (الواو)، في {أولُواْ}. وقال الإمام أحمد: "يحرم مخالفة مصحف الإمام في واو أو ياء أو ألف أو غير ذلك"[٤٣].

وقال البيهقي في شعب الإيمان: "من كتب مصحفاً فينبغي أن يحافظ على الهجاء التي كتبوا بها تلك المصاحف، ولا يخالفهم فيها، ولا يغير مما كتبوه شيئاً، فإنهم كانوا أكثر علماً، وأصدق قلباً ولساناً، وأعظم أمانة منا، فلا ينبغي أن يظن بأنفسنا استدراكاً عليهم ولاتسقطاً لهم .

وقال أيضاً: "وأمر أبو بكر رضي الله عنه بجمع القرآن ونقله إلى مصحف، ثم اتخذ عثمان من ذلك المصحف مصاحف، وبعث بها إلى الأمصار، ولم يعرف أنه أثبت في المصحف الأول ولا فيما نسخ عنه شيء سوى القرآن، فبذلك ينبغي أن يعمل في كتابة كل مصحف"[٤٤].

وبعد هذه الطعنة أتبعها الأستاذ: سزكين بقوله: "وإلى جانب هذا فقد استمرت القبائل في قراءة القرآن الكريم وفق لهجة كل قبيلة مثلما كان عليه

---

(٤٢) المقنع ص ١٠.

(٤٣) انظر الإتقان ١٤٦/٤، والمقنع ص٣٠.

(٤٤) شعب الإيمان ٥/ ٥٩٧، ٦٠٠.

الحال من قبل في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهذا بدوره أدى إلى ظهور عدد من القراءات المختلفة بعد إعداد النص الرسمي للقرآن في المصحف العثماني، وكان بعض التابعين يعلق أهمية كبيرة على قراءة الآية الواحدة خمس قراءات مختلفة(٤٥).

ويقصد ببعض التابعين الإمام مجاهد بن جبر حيث أشار إلى تفسير الطبري ١/٥٣، وهذا نص الطبري قال: حدثني محمد بن حميد الرازي قال: حدثنا حكام، عن عنبسة، عن ليث، عن مجاهد أنه كان يقرأ القرآن على خمسة أحرف.

وهذا لم يثبت عن مجاهد ففي إسناده محمد بن حميد الرازي وهوضعيف(٤٦).

وفي إسناده أيضاً ليث: وهو ابن أبي سليم :صدوق اختلط جداً لم يتميز حديثه فترك، قاله الحافظ ابن حجر في التقريب.

إن الذي ينقل عن الصحابة أو التابعين لابد أن يتثبت هل صح القول إليهم، فإن صح فيحق له أن يستشهد بقوله، وإن لم يصح فلا.

وأما رأيه بأن القبائل استمرت في قراءة القرآن الكريم وفق لهجة كل قبيلة... وهذا بدوره أدى إلى ظهور عدد من القراءات المختلفة... فإن هذا خطأ؛ لأن ظهور القراءات مصدرها الوحي عن الله تعالى ثم عن رسول الله

---

(٤٥) تاريخ التراث العربي ١/٢٠.

(٤٦) انظر تاريخ بغداد ٢/٢٦١.

صلى الله عليه وسلم ثم الصحابة ثم التابعين ، وهذه القراءات كانت موافقة للهجات العرب الأصيلة .

فهرس بأهم المصادر والمراجع

- إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر، للعلامة أحمد بن محمد البنا، عالم الكتب، مكتبة الكليات الأزهرية.
- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، ط٤،مطبعة مصطفى البابي بمصر.
- تاريخ التراث العربي، لفؤاد سزكين، طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود الاسلامية، ط٢، ١٤٠٢هـ ، الرياض .
- تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي، المكتبة السلفية بالمدينة المنورة.
- التاريخ الكبير، للبخاري، دار الكتب العلمية، بيروت، نسخة مصورة عن الطبعة الهندية.
- تفسير الكشاف، لأبي القاسم الزمخشري، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.
- جامع البيان في تأويل آي القرآن، لابن جرير الطبري، تحقيق وتخريج: محمود شاكر. أحمد شاكر، ط٢، دار المعارف، القاهرة.
- رسم المصحف العثماني، للشيخ عبد الفتاح القاضي، ط . دار الشروق — جدة .
- شعب الإيمان، للبيهقي، مصورة عن الطبعة الهندية.
- الضعفاء الكبير، لابن عدي، دار الفكر، بيروت.

- فضائل القرآن لأبى عبيد، تحقيق د. محمد تيجاني جوهري، رسالة دكتوراه — جامعة ام القرى — مرقومة بالآلة الكاتبة.
- المدخل لدراسة القرآن الكريم، لمحمد أبي شهبة، القاهرة.
- المراسيل - تأليف الحافظ أبي محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم - طبع بعناية شكر الله بن نعمة الله قوجاني - مؤسسة الرسالة - الطبعة الأولى - ١٣٩٧ هـ .
- المصاحف لابن أبي داود السجستاني ط. دار الكتب العلمية .
- المقنع في معرفة مرسوم المصاحف أهل الأمصار، لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني،ط١، دار الفكر، دمشق.
- مناهل العرفان في علوم القرآن، للشيخ عبد العظيم الزرقاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ميزان الاعتدال في نقد الرجال — للذهبي — تحقيق علي محمد البجاوي — طبعة دار الفكر العربي .

فهرس المحتويات

م	الموضوع	الصفحة
١	مقدمـــة	٣
٢	عرض الشبهة	٥
٣	الرد على الشبهة	٦
٤	القسم الأول: نقد الرواية عن عثمان بن عفان رضي الله عنه	٦
٥	أولاً: نقد الإسناد	٦
٦	ثانياً: نقد المتن	١٠
٧	ردود العلماء على الشبهة	١٣
٨	القسم الثاني: الرواية عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها	٢٤
٩	المصادر والمراجع	٣٢